نشأة المسألة المصرية فى السياسة الرومانية

٨٠ – ٥١ ق . م .

تمهيد :

ترجع علاقة مصر البطلمية مع روما إلى عهد بطلميوس فيلادلفوس ، ثانى من تربعوا على عرش مصر من الملوك البطالمة ، فقد حدثنا المؤرخ الرومانى ليڤيوس[1] بأن فيلادلفوس هو الذى أوفد إلى روما فى عام ٢٧٣ ق . م . أول سفارة توجهت إليها من الشرق . وبعث مجلس الشيوخ الرومانى سفارة مماثلة إلى مصر ، استقبلت فى الإسكندرية استقبالا كريماً . وليس من شك فى أن اتفاقاً قد أبرم بين مصر وروما حينئذ . ونحن وإن كنا لا نعرف طبيعة هذا الاتفاق ، إلا أننا نرجح أنه كان ذا صبغة تجارية لسببين رئيسيين : أولهما أن المصالح السياسية المشتركة بين الدولتين لم تكن قد وجدت فى تلك الآونة ، وثانيهما اهتمام فيلادلفوس الشديد بالشئون التجارية[2] .

واستمرت العلاقات قائمة بعد ذلك بين مصر وروما ، غير أنها لم تجاوز حدودها التجارية الضيقة حتى فرغت روما من حروبها مع قرطاجة . ومنذ

---

(١) Livy, 13, 9, 1-5; M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, Vol. I p. 395; M. Holleaux, Rome, La Grèce et Les Monarchies Hellenistiquies au 3ème. Siècle av. J.C., p. 60; H.F. Pelham, Outlines of Roman History, p. 162; W.W. Tarn, J.E.A. Vol. XIV, p. 251.

(٢) يذهب لكلرك (B.-Léclercq, Histoire des Lagides, Vol. I, p. 319) إلى أن المعاهدة التى أبرمت حينئذ بين مصر وروما كانت ذات طابع سياسى أيضاً ، وأن فيلادلفوس كان يهدف من ورائها إلى تقوية نفوذه فى الشرق ضد مقدونيا ، ولكننا نستبعد هذا الاحتمال ؛ إذ الثابت أن روما لم تكن قد بدأت – آنئذ – التفكير فى شئون الشرق ، بل إن تاريخ الشرق كله كان بالنسبة لها – فى خلال القرن الثالث ق.م – كتاباً مغلقاً كما يقول فرانك (Cf. T. Frank, Roman Imperialism, p. 120)

عهد الملك بطلميوس الخامس (إپيفانس) أخذت هذه العلاقات تتخذ مظهراً جديداً ، فقد أحدقت الأخطار بمصر فى عهد هذا الملك عندما انتهز فرصة صغر سنه كل من فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وأنتيوخوس الأكبر ملك سليوكيا ، واتفقا معاً على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية فيما بينهما[١] ؛ عندئذ لم ير أجاثوكليس (Agathocles) — الذى تولى الوصاية على ملك مصر الصغير — إلا أن يبعث إلى السناتو طالباً التوسط بين مصر وسليوكيا لحماية مولاه الصغير[٢] .

وكانت تلك الاتفاقية المشئومة التى عقدت بين فيليب وأنتيوخوس لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، فاتحة الأحداث السياسية والحربية التى تمخضت آخر الأمر عن إذلال مقدونيا ثم سليوكيا — أقوى دولتين فى العالم الهيلينستى عندئذ — كما كانت سبباً فى وضع مصر — ثالثة هذه الدول قوة — تحت الحماية الرومانية . وعندما وضعت تسوية أباميا فى عام ١٨٨ ق . م . بعد انتصار روما على سليوكيا فى معركة مغنيسيا (عام ١٨٩ ق . م .) ، أضحت روما عاملا حاسماً فى سياسة الشرق الهيلينستى ، الذى لم تبق فيه دولة واحدة تتمتع باستقلالها كاملا ، إذ أصبح أعضاء السناتو هم الموجهون الحقيقيون لسياسة هذه الدول .

وتدخلت روما بعد ذلك تدخلا سافراً فى شئون مصر على عهد الأخوين فيلوميتور وإيوارجتيس الثانى ، فقد أنقذهما من الملك السلوكى السفير الرومانى بوبيليوس لايناس ، ومن ثم أصبح كلاهما مديناً لروما بعرشه وتاجه . ثم وقفت روما بعد ذلك فى صف الأخ الأصغر (إيوارجتيس الثانى) تؤيده ضد أخيه الأكبر (فيلوميتور) صاحب الحق الشرعى فى تاج مصر ، لكنها وجدت فى هذا الأخ الأكبر ملكاً شديد المراس معتزاً بكرامته متمسكاً بحقوقه ، فلم تستطع إكراهه على النزول عند رغباتها[٣] .

---

(١) Polyb. III, 2; XV, 20.

(٢) Ibid. XV 24a; XIII, 1-3; M. Holleaux, op. cit., p. 72.

(٣) راجع التفاصيل فى ، محمد عواد حسين « شئون مصر الداخلية وسياستها الخارجية على عهد إيوارجتيس الثانى » ص ٢٧٢ وما بعدها (رسالة لم تنشر مودعة بمكتبة جامعة القاهرة) .

واعتلى عرش مصر إيوارجيتيس الثانى عقب وفاة أخيه فيلوميتور ، فزارته سفارة رومانية كان على رأسها قاهر قرطاجة سكبيو أيميليانوس . وليس هناك شك فى أن هذه السفارة قد أوفدت لدراسة شئون مصر المختلفة تمهيداً لاحتلالها الذى لابد أن يتم فى يوم من الأيام . وشغلت روما بعد ذلك عن مصر وسواها من ممالك الشرق الهيلينستى بما اشتعل من ثورات فى ولاياتها الغربية وما احتدم فى داخلها من صراع حزبى عنيف لم تكن مصر عاملا فيه[١] .

وأعقبت ذلك فترة طويلة فى تاريخ مصر البطلمى ملأها النزاع الأسرى على العرش بين بطلميوس سوتر الثانى ووالدته كليوبتره الثالثة[٢]

وكيف كان الحال فى روما حينئذ ؟ لقد واجهت روما ثورة عاتية من جانب حلفائها الإيطاليين فى بداية القرن الأول قبل الميلاد ؛ وإذا كانت قد أفلحت فى إخماد هذه الثورة فى عام ٨٨ ق . م . ، إلا أنها اضطرت إلى إرضاء هؤلاء الحلفاء بالاستجابة إلى جميع مطالبهم . وفى نفس العام احتدم النزاع بين « ماريوس » و « صلا » على قيادة القوات الرومانية فى الشرق . وبيان ذلك أن فتوحات روما فى آسيا الصغرى وبحر إيجه وبلاد الإغريق وقعت فى يد ميثريداتيس إيوباتور ملك بونتس الذى استولى على آسيا الصغرى وجزيرة ديلوس وعلى بلاد الإغريق الجنوبية والوسطى . وتطلع كل من « ماريوس » و « صلا » إلى الظفر بقيادة القوات التى ينبغى إرسالها لإنقاذ هذه البقاع ، فاشتد الصراع بينهما ، وكتب النصر لصلا الذى تولى القيادة وأفلح فى رد ميثريداتيس على أعقابه ، ثم عقد معه صلحاً فى عام ٨٥ ق . م .[٣] ؛ وعاد « صلا » بعد ذلك إلى روما حيث قضى على أعدائه الذين استولوا على السلطة فى غيبته ، وأصبح دكتاتوراً فى عام ٨٢ ق . م .[٤]

---

(١) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ص ٢٠٢–٢٠٣ . M. Cary, History of Rome, p. 224.

(٢) انظر تفاصيل تاريخ هذه الفترة فى : محمد عواد حسين « النزاع الأسرى فى مصر البطلمية على عهد بطلميوس لاثيروس » حوليات كلية الآداب بجامعة إبراهيم ، العدد الثانى ١٩٥٣ ، ص ١١١–١٣٨

(٣) M. Cary, op. cit., pp. 319-35.

(٤) P. Jouguet, Histoire de La Nation Egyptienne, Vol. III, pp. 189-190.

« صلا » يتدخل فى مشاكل العرش المصرى :

أما فى مصر ، فقد اعتلت برنيكى الثالثة العرش منفردة بعد وفاة سوتر الثانى فى عام ٨٠ ق . م . ؛ فما كان من صلا وقد أصبح سيد العالم الرومانى إلا أن أرسل بطلميوس الإسكندر الثانى إلى عاصمة البطالمة وفرضه ملكاً على مصر . وتزوج هذا الملك من ابنة عمه برنيكى الثالثة ، ولكن الزواج لم يكن موفقاً ، فانتهى سريعاً بمقتل الزوجين معاً [١] .

وكانت هذه المأساة ذات أثر بعيد على الأسرة البطلمية كلها ، فقد ذهبت بآخر وريثين شرعيين فى البيت المالك ، ولم تعد هناك سوى كليوبتره سيلينى التى فقدت قوميتها — فى نظر شعب الإسكندرية — باعتلائها عرش سوريا . وكان على الإسكندريين أن يسرعوا بتنصيب ملك عليهم قبل أن يفرغ لهم « صلا » من مشاغله فى روما ويحاسبهم حساباً عسيراً على اعتدائهم على صنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى . ووسط هذه الأزمة لجأ شعب الإسكندرية إلى اثنين من أبناء لاثيروس غير الشرعيين ، فأقام أحدهما ملكاً على مصر ، والآخر ملكاً على قبرص ، حتى لا يكون هناك مجال للصراع بينهما [٢] .

كيف اعتلى الزمار عرش مصر :

وقد حدثنا ششرون[٣] بأن هذين الابنين كانا فى سوريا عندما استدعيا فجأة لارتقاء عرشيهما ، فما هى الظروف التى أوجدتهما فى سوريا ؟ الواقع أن هذا السؤال لم يظفر حتى الآن بجواب قاطع : فقد كان معظم سوريا آنئذ

---

(١) محمد عواد حسين ، المرجع السابق . ص ١٣٧

(٢) لم تتحدث مصادرنا القديمة بشىء ما عن أصل المحظية الى أنجب منها بطلميوس لاثيروس هذين الابنين . ويعتقد « بفان » أنها لم تكن مصرية ، كما يحتمل أنها كانت راقصة من أسرة إغريقية محترمة .

(Cf. E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, p. 344.)

(٣) Cic. de Rege Alexandrino.

فى قبضة تيجرانس ملك أرمينيا[١] . ونحن نعرف أن هذا الملك كان حليفاً لميثريداتيس ملك بونتس الذى استولى على جزيرة كوس فى عام ٨٨ ق . م . ووضع يده على كنوز كليوبتره الثالثة وعلى حفيدها ابن بطلميوس الإسكندر الأول الذى أرسلته إلى هذه الجزيرة قبل أن تخوض غمار الحرب ضد ابنها لاثيروس فى سوريا[٢] . وليس بمستبعد أن يكون ميثريداتيس قد وضع يده أيضاً على ولدى لاثيروس فى نفس الوقت ، إذ وجدهما فى الجزيرة مع ابن بطلميوس الإسكندر الأول . وهذا رأى يتفق مع ما جاء فى « يوسف »[٣] اليهودى من أن كليوبتره الثالثة قد بعثت إلى هذه الجزيرة بكنوزها و «أحفادها» . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون هذان الولدان قد عجزا عن الفرار إلى « صلا » كما فر بطلميوس الإسكندر الثانى ، فظلا فى بلاط بونتس حتى وفاة والدهما بطلميوس لاثيروس ، ثم اتخذا طريقهما إلى مصر وقبرص عن طريق سوريا ليرتقيا عرشيهما بناء على دعوة شعب الإسكندرية ، ووفقا للخطة التى رسمها معهما ميثريداتيس .

وإذا صح هذا التفسير[٤] فإنه يوائم ما جاء فى « أبيانوس[٥] » من أن كريمتى « ميثريداتيس » خطبتا لملكى مصر وقبرص وهما فى بونتس . وأغلب

---

(١) استطاع تيجرانس أن يتوغل فى سوريا الشمالية بعد أن أصبح سيد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وجوف كيليكيا . وقد اصطدم مع كليوبتره سيلينى أرمله بطلميوس لاثيروس وأنطيوخوس التاسع وأنطيوخوس الثامن ، ثم أنطيوخوس العاشر (انظر إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، حـ ١ ، ص ١١٩) .

(٢) راجع التفاصيل فى : محمد عواد حسين ، المرجع السابق . ص ١٢٤

(٣) Joseph, XIII, 13, 1.

(٤) يصطدم هذا التفسير مع ما جاء فى ششرون من أن ابن لاثيروس الذى اعتلى عرش مصر كان صبياً (Puer) ، والمفهوم أن هذه الكلمة اللاتينية لا تطلق على من يجاوز الخامسة عشرة من عمره ، فكيف يكون عمر هذا الابن خمسة عشر عاماً فى سنة ٨٠ ق . م . إذا وافقنا أنه أرسل فى طفولته إلى جزيرة كوس سنة ١٠٢ ق. م. ؟ أحد أمرين : إما أن يكون قد أرسل إلى كوس بعد ذلك التاريخ ليقيم هناك مع ابن عمه ، وإما أن يكون ششرون قد استعمل كلمة (Puer) استعمالا غير عادى فأطلقها على شاب يانع جاوز العشرين من عمره .

(٥) App. Mith. II

الظن أن « ميثريداتيس » قد رتب هذه الخطبة المزدوجة مع ضيفيه بعد وفاة والدهما « لاثيروس » فى عام ٨٠ ق . م. ثم أرسلهما ليعتليا عرش مصر وقبرص وهو يأمل أن يبعث فى أثرهما بكريمتيه فتقع مملكة البطالمة فى قبضته دون عناء . وقد سلك الشابان طريق سوريا . ولكن هذه الآمال كلها تحطمت أمام سرعة « صلا » غريم « ميثريداتيس » ، إذ أرسل صنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى فوصل إلى مصر وارتقى عرشها وتزوج من ملكتها قبل أن يبرح ولدا « لاثيروس » سوريا . غير أن الإسكندر الثانى لم يهنأ بعرشه الجديد أكثر من تسعة عشر يوما ثم قتل زوجته فغضب عليه الإسكندريون وأعدموه . ولما لم يجدوا أمامهم من يرتقى العرش الشاغر غير ابنى « لاثيروس » ، قرروا استدعاءهما ، وبالبحث عنهما وجدا فى سوريا .

وأيا كان الأمر ، فقد وصل ابن لاثيروس إلى مصر واعتلى عرشها بناء على رغبة الإسكندريين . ولكن زواجه من ابنة ميثريداتيس لم يتم [١] ، إذ تحدثنا وثيقة ديموطيقية ترجع إلى عام ٧٩ ق . م. [٢] — أى السنة التالية مباشرة لارتقائه العرش — بأن ملك مصر كان زوجاً لملكة تدعى كليوبتره تريفاينا ، وكان الزوجان يحملان معاً اللقب الإلهى « فيلوباتورس فيلادلفوى » وأغلب الظن أن هذه الزوجة كانت أختاً [٣] لزوجها بطلميوس الذى لقب فيما بعد « نيوس ديونيسيوس » أى « ديونيسيوس الجديد » ثم اشتهر « بالزمار »

---

(١) ليس من شك فى أن ميثريداتيس كان يرغب فى إتمام هذا الزواج ، ولكن بطلميوس الذى اعتلى عرش الاسكندرية بناء على دعوة من الاسكندريين لم يكن مستعداً لإغضابهم بزواج كهذا ، فإن شعب الاسكندرية كان يدرك تماماً خطر مصاهره كهذه مع أكبر عدو لصلا ، وهم يسعون لإرضائه بعد أن قتلوا صنيعته بطلميوس الاسكندر الثانى .

(٢) Cf. E. Bevan, op. cit. p. 346 n. 1.

أما الوثيقة التى استند إليها لكلرك (op. cit. Vol. II, p. 124) فى حديثه عن هذا الزواج فترجع إلى عام ٧٨ .

(٣) هذا هو الاحتمال المرجح ، لأن هذه الملكة وصفت فى وثيقة عام ٧٩ الديموطيقية بكلمة « الأخت » . وهناك احتمالات أخرى : فإما أن تكون ابنة لسوتر الثانى من محظية أخرى ، وإما أن تكون ابنة لبطلميوس الاسكندر الأول . وعلى كل حال فنحن لا نعرف وجه الحق فى هذه المسألة .

(Auletes) لبراعته فى العزف على الناى [١]

نشأة المسألة المصرية :

على هذا النحو تصرف الإسكندريون تصرفاً عاجلا أنقذهم من تدخل روما، واعتقدوا فى نفس الوقت أنهم قد أرضوا « صلا » بمنع زواج ملكهم الجديد من ابنة « ميثريداتيس » . ولكن اعتقادهم هذا لم يصدق إذ رفض دكتاتور روما الاعتراف بملك مصر ، ووقف السناتو من بطلميوس الزمار موقف التحدى ، فتحرجت العلاقات بين الدولتين وأصبحت دقيقة للغاية ، ونشأت فى السياسة الرومانية « مسألة مصرية »[٢] .

وصية بطلميوس الإسكندر الثانى :

وبدأت متاعب بطلميوس الزمار تأتى من ناحية روما فى صور شتى ، فقد أعلن مجلس الشيوخ أن لديه وصية كتبها ملك مصر السابق بطلميوس الإسكندر الثانى — الذى لم يدم حكمه أكثر من تسعة عشر يوماً ثم قتله الإسكندريون[٣] — يوصى فيها بمملكته للرومان . والواقع أن هذه الوصية كانت مثار جدل شديد بين المؤرخين ، فقد كثر الحديث عنها طوال عشرين عاماً دون أن يرى أحد نصها على الإطلاق[٤] .

ونحن لا نميل إلى الجدل فى مبدأ كتابة الوصية فى ذاته ، فقد عرف هذا المبدأ فى الشرق الهيلينستى منذ أخذت روما تبسط نفوذها على دوله ودويلاته وتتدخل فى شئون هذه وتلك تدخلا مباشراً . وقد حدثتنا المصادر القديمة عن الوصية التى كتبها « أتالوس الثالث » ملك « برغامون » فى عام ١٣٣ ق . م . موصياً فيها بمملكته للرومان بعد وفاته[٥] ، كما حدثتنا عن وصية أخرى مماثلة

(١) C.A.H. Vol. IX., p. 388.

(٢) Ibid. p. 389.

(٣) App. B. Civ. I, 102.

(٤) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II, p. 125.

(٥) O.G.I.S. No. 338.

« لبطلميوس آبيون » ملك برقة[١] . وإذاً فليس بمستبعد أن يكون بطلميوس الإسكندر الثانى قد أوصى بمصر للرومان ، ولا سيما أنه كان صنيعة « صلا » ، وبفضله ارتقى عرش مصر ، وفرض على الإسكندريين فرضاً دون استشارتهم .

ولكن المسألة الشائكة هى الوقت الذى حررت فيه وصية بطلميوس الإسكندر الثانى والدافع إليها . فهل كتبها هذا الملك وهو فى روما قبل أن يعتلى عرش مصر ؟ وهل حررها بناء على طلب « صلا» نفسه كثمن لارتقائه العرش ،أم أنه كتبها فى مصر خلال حكمه القصير الذى لم يدم إلا أياماً ؟

أما الاحتمال الأول فيرجحه المؤرخ الفرنسى « بوشيه لكلرك[٢] » لأنه يعتقد أن الفترة التى تبوأ فيها بطلميوس الإسكندر الثانى عرش مصر كانت قصيرة جداً بحيث لا تتسع للتفكير فى مثل هذه الوصية وكتابتها . ويؤيد لكلرك فى وجهة نظره هذه المؤرخ الإنجليزى « بڤان »[٣] . أما « نصحى »[٤] فيلتزم جانب التحفظ بالنسبة لوجود الوصية أصلا ، ولكنه لا يرى بأساً فى الأخذ برأى « لكلرك » فى حالة وجود الوصية فعلا .

وأما الاحتمال الثانى فهو الذى نرجحه نحن لعدة أسباب : أولها أن مجلس الشيوخ الرومانى لم يتخذ أية خطوة إيجابية لتنفيذ هذه الوصية التى لوح بها ؛ وكذلك كان الحال بالنسبة للدكتاتور الرومانى « صلا » ، فما الحكمة إذاً فى أن يطلب « صلا » من بطلميوس الإسكندر الثانى كتابة الوصية ثم لايقوم هو أو مجلس الشيوخ بعمل ما فى سبيل وضعها موضع التنفيذ بعد مقتل صاحبها[٤]؟ قد يقول قائل إن مجلس الشيوخ خشى تنفيذ الوصية حتى لا يتضخم نفوذ صلا ، أو أنه خشى أن تثار مشكلة كتلك التى أثيرت بين الترابنة ومجلس الشيوخ عند

---

(١) Livy, Epit. LXX; Justin, XXXIX, 5, 2.; App. B. Civ. I, 111; Mith. 121.
وقد كتبت هذه الوصية فى عام ٩٦ ق . م . أى قبل وصية الإسكندر الثانى بستة عشر عاماً .

(٢) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II., pp. 120-125.

(٣) إبراهيم نصحى ، المرجع السابق، ج ١ ، ص١٢١ . E. Bevan, op. cit. p. 350, No. 1

(٤) كذلك يقرر أصحاب الرأى الأول أنفسهم ، راجع إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥ . وراجع أيضاً : B. - Leclercq, op. cit. Vol. II., p. 125.

تنفيذ وصية أتالوس الثالث التى أشرنا إليها[١] . ولكن الرد على ذلك يسير ، وهو أن « صلا » كان عندئذ دكتاتور روما وسيد العالم الرومانى الذي لا ينازعه منازع ، ولو أنه رغب حقاً فى تنفيذ هذه الوصية لما وجد صعوبة فى ذلك ، ولما استطاع مجلس الشيوخ معارضته أو الوقوف فى وجهه ، ولا سيما أن « صلا » كان يناصر هذا المجلس ويعمل جاهداً على رد نفوذه القديم إليه .

والسبب الثانى أن الحجة التى يتذرع بها أصحاب الرأى الأول من أن فترة حكم بطلميوس الإسكندر الثانى فى مصر لم تتعد بضعة عشر يوماً لاتتسع للتفكير فى مثل هذه الوصية وكتابتها ، هذه الحجة نراها واهية : فكتابة وصية كهذه أمر لا يحتاج إلى تردد طويل فى مثل الظروف التى اكتنفت الإسكندر الثانى ، فهذا الملك يشعر ببغض الإسكندريين له ، ويدرك تماماً أنه فرض عليهم فرضاً ، ثم هو بعد ذلك قد قتل ملكتهم المحبوبة التى اتخذها زوجة له ، وأحس بالغضب الجارف الذى لابد أن يجتاح نفوس الإسكندريين ويدفعهم إلى الانتقام منه ، فهل نستبعد أن يكون قد كتب هذه الوصية تزلفاً إلى الرومان سادته ، ثم أسرع فبعث بها إليهم حتى يتخذوا العدة لإنقاذه مما ينتظره على يد شعب الإسكندرية الهائج ؟ هذا هو الاحتمال الذى نراه مقبولا ولا سيما أن المثل كان قد ضرب لبطلميوس الإسكندر الثانى من قبل على يد سلفه بطلميوس الصغير (إيوارجيتيس الثانى) الذى أوصى بمملكته (برقه) للرومان فى عام ١٥٥ ق . م. تزلفاً للرومان كى يحمسهم للوقوف فى صفه وهو يناضل أخاه الأكبر بطلميوس فيلوميتور [٢]

وأيا كان الأمر ، فقد كان ظهور هذه الوصية والتحدث عنها فى روما مثار إزعاج شديد لملك مصر الذى أحس تماماً أن رضاء شعب الإسكندرية عنه لن يغنيه شيئاً ، وأنه لن يستقر على عرشه إلا إذا رضيت عنه روما أولا وقبل كل شئ

---

(١) E. Volterra, Le Testament de Ptolemée Alex. II. Roi d'Egypte, Bull. Inst. d'Egypte, T. XXI, p. 116.

(٢) محمد عواد حسين ، شئون مصر الداخلية وسياستها الخارجية على عهد بطلميوس إيوارجيتيس الثانى ص ٢٩٦٠ وما بعدها .

ومن ثم كان لابد من السعى إلى هذا الرضاء والظفر به بأى ثمن . غير أن روما — لحسن حظ بطلميوس الزمار — لم تقدم على تنفيذ هذه الوصية لأن الحزب الأرستقراطى صاحب النفوذ والسلطان عندئذ كان يرى أن الوقت المناسب لم يحن بعد لضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية ، فقد كان « صلا » مشغولا بوضع إصلاحاته الدستورية الداخلية[١] ، وكانت عملية ضم مصر إلى الأملاك الرومانية رغم أنف شعبها تتطلب مجهوداً عسكرياً يبدو أن روما لم تكن على استعداد لبذله فى تلك الآونة وهى بعد لم تسترد أنفاسها من وصب الحروب الأهلية . لهذا اكتفى مجلس الشيوخ بإرسال بعض السفراء إلى صور للاستيلاء على أموال الملك بطلميوس الإسكندر الثانى صاحب الوصية[٢] .

روما لا تعترف بالزمار :

هكذا ترك بطلميوس الزمار ملكاً على مصر دون أن تعترف به روما رسمياً وهى تدرك مقدماً مدى ما سوف يحدثه موقفها هذا من أثر فى مسلك ملك مصر . ولقد صدق ظنها ، فإذا ببطلميوس الزمار يقضى حياته كلها مدافعاً عن نفسه وعرشه أمام مجلس الشيوخ الرومانى ، وإذا به يرهق شعبه فى سبيل الحصول على الأموال اللازمة لإشباع نهم المدافعين عنه فى روما ، وكان من صالح روما أن تتركه هكذا تحت رحمتها ، قلقاً على تاجه ، مضحياً بكل شىء فى سبيل الحصول على اعترافها . . .

مرت الأعوام الأربعة الأولى من حكم « بطلميوس نيوس ديونيسيوس » لا ينقصها القلق والاضطراب ، ثم حدث فى عام ٧٥ ق . م . ما أدى إلى زيادة قلق الملك واضطرابه ، ذلك أن مسلك روما تجاهه شجع « كليوبتره سيلينى »

---

(١) M. Cary, op. cit. p. 338.

(٢) E. Volterra, op. cit. p. 115; B.-Leclercq, op. cit. Vol. II, p. 125.

ويقال أن هذه الأموال هى التى أعطاها « صلا » لصنيعته بطلميوس الإسكندر الثانى عندما أوفده لاعتلاء عرش مصر .

على أن تطالب بعرش مصر وسوريا لولديها الصغيرين[١] ، فأرسلتهما إلى روما والأمل يحدوها في أن يؤيد السناتو قضيتها ما دام لم يعترف « ببطلميوس الزمار » ملكاً على مصر ، وما دام الشك قد بدأ يساور روما من ناحية « تيجرانس » ملك سوريا الذى صاهر غريمها الأكبر « ميثريداتيس »

ولدا سيليني في روما :

ووصل الأميران الشابان إلى عاصمة الجمهورية الرومانية وقد زودتهما سيليني بما يكفيهما من أموال للظهور بالمظهر اللائق في روما ، ولتقديم الهدايا للآلهة والرشاوى لذوى النفوذ والجاه من أعضاء مجلس الشيوخ[٢]

ولم يكن شيوخ روما على استعداد كاف للاستماع إلى قضية ولدى « كليوبتره سيليني » ومناقشتها ، ولهذا لم تعرض شكواهما ضد تيجرانس على السناتو بحجة أن الوقت لا يسمح بمناقشة هذا الموضوع[٣] . وأما عن مصر ، فقد كان يتربع على عرشها ملك ضعيف ، وليس من مصلحة روما في شيء أن تقصيه لتقيم بدله واحداً من ولدى سيليني صاحبي الحق الشرعي في هذا العرش ، فيستمد من حقه هذا قوة قد تغريه بالوقوف في وجهها فيما بعد . وليس من مصلحتها أيضاً أن تجمع عرشي مصر وسوريا في يد واحدة . ومن أجل هذا أجل السناتو النظر في دعوى الأخوين ضد بطلميوس الزمار وفي نيته ألا ينظرها على الإطلاق . وبقي الأمر هكذا معلقاً طيلة عامين كاملين حتى عيل صبر ولدى سيليني

---

(١) كانت كليوبتره سيليني آخر نسل شرعي للبطالمة بقي على قيد الحياة ، فهي ابنة بطلميوس إيوارجتيس الثاني ، وقد تزوجت أولا من أخيها بطلميوس لاثيروس ، ثم من ثلاثة من الملوك السليوكيين ، ولم يبق لها من كل هذه الزيجات إلا ولدان يرجح أنهما كانا من آخر أزواجها ، انطيوخوس العاشر (بيوس) .

(٢) كان ولدا سيليني في كيلكيا التي لجأت إليها والدتهما بعد أن وضع تيجرانس يده على سوريا في عام ٨٣ ق . م . (Cf. Justin, XL, 2, 3.)

(٣) Cf. Cic. In Verr., IV., 27.

والواقع أن أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لم يكن يهمهم البحث في الحقوق المشروعة لولدى سيليني في العرش السوري في تلك الآونة الدقيقة التي شغل خلالها جيشان من الجيوش الرومانية في محاربة سرتوريوس (Sertorius) والتي قد يستغلها ميثريداتيس لمعاودة القتال ضد روما .

وأيقنا ألا جدوى من الانتظار فغادرا روما فى عام ٧٣ ق . م .[١] ويحدثنا ششرون بأن أحدهما — وهو المدعو أنطيوخوس — قد عرج فى طريق عودته على جزيرة صقلية حيث نهبه حاكمها الرومانى ڤرس "Verres".[٢]

وكيف كان أثر هذه الزيارة على بطلميوس الزمار ؟ ليس من شك فى أنها سببت له إزعاجاً شديداً برغم فشلها ! فهو قد خلص حقاً من ولدى سيلينى ، ولكن مجرد ذهابهما إلى روما قد فتح عليه باباً كان مغلقاً . فهل هناك ما يمنع رجال السناتو من التفكير فى إراحة أنفسهم من هذه المشكلة برمتها فيعملون على ضم مصر نهائياً إلى الأملاك الرومانية ؟ هذا محتمل ، ولعل الخطوة التى اتخذوها حينئذ كانت دليلا واضحاً على تفكيرهم هذا ، فقد قرروا فى عام ٧٤ ق . م . ضم برقة إلى روما وتحويلها إلى ولاية من ولاياتهم[٣] . وإذا كانوا قد اتخذوا هذه الخطوة بعد انقضاء اثنين وعشرين عاماً على التاريخ الذى كتب فيه « بطلميوس آبيون » وصية بتوريث الرومان مملكته « برقة » عقب وفاته[٤] ، فما الذى يمنعهم من وضع وصية بطلميوس الإسكندر الثانى موضع التنفيذ أيضاً ؟ هذا أمر غير مستبعد ، بل لعلهم لم ينفذوا وصية « أبيون » بعد مرور هذه الأعوام الطويلة إلا لتكون مقدمة لتنفيذ وصية بطلميوس الإسكندر الثانى ، ولا سيما أن « نيكوميديس » الثالث ملك « بيثينيا » كان قد أوصى فى

---

(١) كانت روما آنئذ مشغولة بالحرب فى ثلاث جبهات مختلفة : حرب ضد سرتوريوس (Sertorius) وأخرى ضد ميثريداتيس ، وثالثه ضد سبارتاكوس . وقد استمرت الحرب ضد الأول من عام ٨٧ إلى عام ٧٢ ق . م ، بينما عاود ميثريداتيس قتاله ضد الرومان فى عام ٧٤ ق . م أما سبارتاكوس فقد حارب الرومان فى إيطاليا من عام ٧٣ إلى عام ٧١ ق . م . ويذهب (ماهافى) فى تاريخه عن البطالمة (Mahaffy's Hist. p. 227) . إلى أن الأميرين لم يذهبا إلى روما إلا فى عام ٧٢ ق . م ، ولسنا نرى سبباً مقبولا لذلك الفرض

(٢) Cf. Cic., In Verr., 27-30.

(٣) استنبط هذا التاريخ من المقارنات التاريخية التى جاءت فى « أبيانوس » .
(Cf. App., B. Civ., I, 111.)

(٤) أوصى بطلميوس آبيون بمملكته « برقه » للرومان فى عام ٩٦ ق . م .
(Cf. Livy, Epit., LXX; Justin, XXXIX, 5, 2; App., Loc. Cit.; Mithr., 121.)

هذا العام نفسه (٧٤ ق . م) بمملكته للشعب الرومانى ، فحولت إلى ولاية رومانية فوراً[١] . .

الظروف فى روما :

هكذا كانت الأفكار التى أدارت رأس بطلميوس الزمار وأقضت مضجعه فى تلك الآونة . وإذا كانت الظروف قد حالت دون ضم مصر إلى روما عقب رحيل ابنى كليوبتره سيلينى إلى سوريا ، فليس من ريب فى أن بطلميوس الزمار قد أدرك تماماً أنه لابد من دفع ثمن باهظ لأولى الأمر فى روما حتى يكفوا عن إزعاجه . والواقع أن الأحوال فى العاصمة الرومانية كانت عندئذ غير مواتية لضم مصر : فقد شاعت الرشوة واستشرى الفساد ، ولم يكن النبلاء — وهم القابضون على أزمة الحكم — يستهدفون غير مصالحهم الذاتية ، وكانت هذه المصالح تقتضيهم ترك المسألة المصرية معلقة ، ذلك بأنهم كانوا على يقين من أن ملك مصر لن يدخر وسعاً للظفر باعترافهم به ملكاً على مصر ، وهو فى سبيل هذه الغاية لن يتوانى عن تقديم كل ما يستطيع تقديمه لهؤلاء النبلاء الذين خربت ذممهم بحيث أصبحت تتسع لكل شيء . ولا شك أن اشتغال الزمار بهذه الأمور سوف يصرفه تماماً عن الاهتمام بشئون مملكته ، وسوف تضعف مصر تبعاً لذلك فتقع لقمة سائغة فى أيدى الرومان متى سمحت الظروف . هذا فضلا عن أن تكالب ملك مصر على جمع الرشاوى لنبلاء روما قد اضطره إلى إرهاق شعبه بمزيد من الضرائب والالتزامات المالية ، فكانت النتيجة أن غضب عليه هذا الشعب بينما احتقره الرومان أنفسهم ، وهكذا خسر بطلميوس الزمار حب المصريين واحترام الرومان فى وقت واحد .

* * *

ومضت الأحداث فى روما سراعاً خلال الأعوام القليلة التى أعقبت ضم برقة ، فإذا بالحرب الأهلية تشتعل مرة أخرى ، وإذا بالمشكلة المصرية تثار من

(١) Cf. App., loc. cit.

جديد . وبيان ذلك أن الحرب التى أعلنها النبلاء ضد الزعيم الشعبى سرتوريوس فى أسبانيا (٧١ – ٧٠ ق ، م .) . والفوضى الشاملة التى عمت أرجاء إيطاليا بعد وفاة « صلا » ، والجهود الشاقة التى بذلت للقضاء على تمرد العبيد ، كل أولئك انتهى بظهور زعماء جدد كان على رأسهم « كراسوس » و « بومبى » . وقد أفلح هذان الرجلان فى تولى منصب القنصلية (عام ٧٠ . ق.م) برغم معارضة السناتو . وفى عام ٦٧ ق.م . زاد نفوذ « بومبى » زيادة هائلة عندما منح سلطة غير عادية للقضاء على القراصنة الذين كانوا يهددون مئونة روما ، ثم فى عام ٦٦ ق.م. عندما كلف قيادة الحرب ضد ميثريداتيس (١) .

مصر فى حلبة الصراع الحزبى بروما :

ويبدو أن الغيرة والخوف من بومبى – بعد اتساع سلطانه على هذا النحو – قد أخذا سبيلهما إلى نفس « كراسوس » الذى خشى أن يعمل زميله « بومبى » على إقامة ديكتاتورية عسكرية كتلك التى أقامها « صلا » من قبل . لهذا بعث كراسوس الحياة فى حزب « ماريوس » القديم . وانضم إلى هذا الحزب رجل قوى قدر له أن يلعب دوراً خطيراً فى تاريخ بلاده ، هو « يوليوس قيصر » وفى عام ٦٥ ق.م. تولى كراسوس منصب الكنسورية ، بينما تولى قيصر منصب الأيديلية ، وعقدا العزم معاً على القيام بعمل ضخم يعلى مكانتهما الشعبية ، ويجتذب إليهما الجماهير ، ويضمن لهما نفوذاً كبيراً فى الدولة يناهضان به نفوذ بومبى (٢) .

المحاولة الديموقراطية الأولى لضم مصر :

وانتهى التفكير بالزعيمين إلى تقديم مشروع يقضى بضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية . غير أنهما لم يعلنا ذلك فى صراحة حتى لا يثيرا عليهما مجلس الشيوخ وطبقة النبلاء . ولهذا تقدم كراسوس ، وهو يعرض الحالة المالية

---

(١) Cf. C.A.H., IX., pp. 313-349; M. Cary, op. cit. pp. 363-70.

(٢) P. Jouguet, H.N.E. Vol. III, p. 192; C.A.H. op. cit. pp. 475 ff.

للجمهورية ، مطالباً بفرض جزية على مصر لمواجهة النفقات الباهظة التى تتكبدها روما فى حربها ضد ميثريداتيس(١) . ولما كان مفهوماً أن الدولة الصديقة لا تدفع جزية للجمهورية ، فقد كان كراسوس يطلب فى واقع الأمر تحويل مصر إلى ولاية رومانية . وفى نفس الوقت أوحى قيصر إلى بعض نقباء العامة بتقديم اقتراح بقانون يقضى بمنح قيصر سلطات استثنائية ليقوم بتنظيم ولاية مصر الرومانية(٢) . ولم تكن هناك صعوبة فى تبرير هذه الخطة التى رسمها كراسوس مع قيصر لضم مصر ؛ فبطلميوس الزمار لم يكن وريثاً شرعياً للتاج المصرى ، وهناك وصية تركها سلفه بطلميوس الإسكندر الثانى أوصى فيها بمصر للشعب الرومانى ، وروما آنئذ فى مسيس الحاجة لموارد مصر الغنية ولكنوز البطالمة أغنى ملوك البحر الأبيض المتوسط على الإطلاق .

ولكن المسألة لم تكن ثراء مصر وحاجة روما الملحة لهذا الثراء ، إنما كانت مسألة الصراع الحزبى العنيف داخل روما : فحزب العامة،وعلى رأسه كراسوس وبومبى ، يريد ضم مصر لتصبح فى قبضته دولة غنية يناوئ بها بومبى وأطماعه ، ولو قد له الظفر بهذه الدولة لكان فى ذلك القضاء المبرم على النبلاء وحزبهم . والنبلاء من أجل هذا يخشون العامة ويحرصون على حرمانهم من موارد مصر الهائلة .

شيشرون فى الميدان :

ووقف شيشرون — صديق بومبى — فى الميدان ، فجند فصاحته لمعارضة المشروع ، لا حرصاً على حرية مصر واستقلالها ، وإنما تنفيذاً لأهداف حزبية خالصة . واستطاع النبلاء إقناع زميل كراسوس — الكنسور « لوتاتيوس

---

(١) Cf. Plut., Crass., 13.

(٢) يذهب سويتونيوس (Suet., Caes., XI) إلى أن اقتراح ضم مصر كان من وضع يوليوس قيصر لا كراسوس . ولكن ما جاء فى شيشرون (De Rege Alexandrino) ، وفى بلوتارك (Crass., 13) ، يقطع بأن صاحب الاقتراح كان كراسوس . وأيا كان الأمر ، فالواضح أن الاتفاق بين الرجلين على ضم مصر للأسباب التى ذكرناها كان تاماً .

كاتولوس » — بالوقوف من زميله موقف المعارضة ، وانتهى النزاع بين الزميلين إلى استقالة كل منهما من منصبه دون أداء شيء من مهامه . ولم يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للترابنة الذين كانوا أداة فى يد قيصر ، فقد وقف زملاؤهم يعارضونهم بوحى من النبلاء . وهكذا فشلت خطة العامة ، وأنقذ بطلميوس الزمار من أزمة خطيرة كادت تفقده تاجه ، والفضل يرجع أولا وأخيراً إلى التطاحن الحزبى فى روما (١).

وإذا كان ملك مصر قد خلص على هذا النحو من تلك الأزمة ، إلا أنه كان يدرك تماماً مدى الخطر المقبل عليه ؛ فإن الحزب الديموقراطى كان يعتبره ملكاً غير شرعى ويسعى إلى خلعه ، ولم يدافع عنه الارستقراطيون إلا تمشياً مع مصالحهم الخاصة ، أى أن ظروف النزاع الحزبى فى روما هى وحدها التى أوقفت رجال الحزب الارستقراطى فى موقف الدفاع عن ملك مصر .

المحاولة الثانية :

وبعد ذلك بعامين اثنين ، وضع قيصر خطة جديدة للانتقام من الهزيمة السياسية التى أنزلها الحزب الأرستقراطى بالديموقراطيين ، ذلك أنه أوحى إلى التربيون « سرڤيليوس رولوس » (Servilius Rullus) — الذى تولى منصبه فى ديسمبر عام ٦٤ ق.م. — بتقديم مشروع قانون زراعى يقضى بإنشاء مستعمرات لعامة الرومان فى الأراضى الصالحة للزراعة داخل إيطاليا ولا سيما فى إقليم كابوا ، فإذا لم تكف هذه الأراضى لسد حاجة العامة ، فلا مانع من شراء مساحات أخرى لنفس الغرض ، على أن يؤخذ المال اللازم للشراء من ثمن بيع جزء من الأملاك الرومانية التى تقع خارج إيطاليا ، والتى اكتسبت منذ قنصلية « صلا » و « بومبى » (عام ٨٨ ق.م.) ، وتضمن مشروع القانون المقدم ، النص على تأليف لجنة من عشرة رجال ، يمنح أعضاؤها سلطة مطلقة لتنفيذه فى خلال خمسة أعوام ، وكان معنى ذلك أن هؤلاء الرجال تمتعوا بهذه

(١) B. - Leclercq, op. cit. Vol. II, pp. 128-129.

السلطة فى كل الأراضى التى تمتلكها الجمهورية حول حوض البحر المتوسط .

لقد كان مشروع القانون بريئاً فى مظهره، فهو يستهدف الرخاء الاقتصادى لعامة الرومان ، ويخفف حدة الأزمة الاقتصادية التى يرزحون تحتها . ولكن قيصر عندما أوحى بهذا المشروع لنقيب العامة ، كان يستهدف غرضاً حزبياً آخر ، هو تقوية حزب العامة لمواجهة بومبى عند عودته إلى روما ، كما كان — دون شك — يقصد الاستيلاء على مصر باعتبارها من الأملاك الرومانية خارج إيطاليا .

شيشرون يحبط المحاولة :

ولم تكن هذه الأهداف البعيدة لتخفى على شيشرون ، فما كاد يتولى منصب القنصلية فى عام ٦٣ ق.م. حتى عبأ نفوذه السياسى وفصاحته الخطابية لمعارضة هذا المشروع الخطير ، فألقى فى مجلس السناتو خطاباً قوياً ضد المشروع كله فضح فيه نوايا الديموقراطيين الحقيقية ، وقد جاء فيه : « الواقع أن هيئة العشرة سوف تتذرع بما يقال من أن مصر قد أصبحت ملكاً للشعب الرومانى بناء على وصية الإسكندر ، وأنكم — بناء على ذلك — تسلمون الإسكندرية لنفس الرجال الذين يخفون أهدافهم الحقيقية ، بينما أبيتم عليهم ذلك وهم يكافحون علناً فى سبيل الظفر بها . »[١] ولم تكد تمضى أيام قليلة حتى أعلن شيشرون للشعب الرومانى أسماء الأقطار التى يمكن أن تدخل فى نطاق مشروع « رولوس » وقال إن من بينها ممالك برمتها مثل بيثينيا و « الإسكندرية ومصر التى أحكموا إخفاءها وإسدال الستار عليها » ، ثم بين الخطورة القصوى فى المسألة المصرية قائلا إنها لا تتعلق بالبت فيها على أى وجه من الوجوه ، وإنما تمتد إلى مجرد عرضها للمناقشة[٢] . ووفق شيشرون فى مهاجمة المشروع حتى اضطر صاحبه إلى سحبه ، وهكذا خلص الزمار من تلك الأزمة الجديدة التى كانت تهدد عرشه .

ونحن نستطيع أن نخرج من خطاب شيشرون الذى هاجم به مشروع « رولوس » بأن الرومان قد انقسموا إلى فريقين إزاء المسألة المصرية : فريق

---

(١) Cic., Leg. Agr., I, 1.

(٢) Ibid., loc. cit.

يرى ضم مصر إلى أملاك الجمهورية الرومانية ضماً نهائياً وما يترتب على ذلك من خلع ملكها وتعيين حاكم روماني لها ، وفريق آخر يكتفي بمجرد وضعها تحت الحماية الرومانية مع إبقاء ملكها البطلمي فوق عرشه معترفاً بهذه الحماية . ولم يكن هناك بعد ذلك مجال للاعتراف الرسمي ببطلميوس الزمار واعتباره ملكاً شرعياً لمصر . لقد كانت المسألة — كما ذكرنا — مسألة الصراع الحزبي داخل روما بين الأرستقراطيين والديموقراطيين قبل أن تكون أي شيء آخر .

ويبدو أن الرومان قد ظنوا أنهم وحدهم أصحاب الحق المطلق في تقرير مصير مصر كمملكة ، فأسقطوا من حسابهم عاملا جوهرياً في المسألة كلها ، ذلك هو الشعب الإسكندري نفسه ، هذا الشعب الأبي الذي لا يمكن أن يوافق على الخضوع لملك ليس إلا عبداً لمشيئة سادته الرومان . ولقد أدرك الإسكندريون بموقف ملكهم من روما ، أنهم ومدينتهم أصبحوا تحت رحمة قرار يصدره مجلس الشيوخ الروماني أو يوافق عليه شعب روما . وكان طبيعياً أن يملأهم هذا الإدراك غضباً ، وأن ينصب غضبهم كله على رأس ملكهم الذي رأوه لا يعرف رداً على الإهانات التي توجه إليه ، غير الهدايا والأموال يغدقها في كرم وسخاء على من أهانوه . وكان موقف الزمار من شعبه غريباً غاية الغرابة ، فبدلا من أن يستعين بالإسكندريين على الرومان الذين يعرف حقيقة موقفهم منه ، إذا به يستعدي الرومان عليهم ، ويطلب عون هؤلاء الأجانب ضد رعيته ، وكأنما كان يعتقد أن مساعدة الرومان له ، تحمل في طياتها اعترافاً ضمنياً بحقه الشرعي في الملك .

الزمار يستعدي بومبي على شعبه :

وكانت الخطب التي ألقيت في روما (عام ٦٣ ق.م.) حول مشروع رولوس — محبذة له أو معارضة — كفيلة بإثارة شعب الإسكندرية الذي وقف منه ملكه موقفاً مزرياً حقاً ، فهاهم أولاء يرونه موضع التحقير في روما ، ثم لا يحرك فيه ذلك إلا نوازع الذلة والخنوع لمحتقريه ، فإذا به يرسل معونته المادية والعسكرية لبومبي ، ويطلب إليه زيارة الإسكندرية لتأديب شعبها الثائر ! !

وبيان ذلك أن بومبى كان يعمل على فتح فلسطين فى عام ٦٣ ق. م.[١] ، فتطوع الزمار لمدم بمبالغ طائلة من الأموال المصرية ، مع ثمانية آلاف من الفرسان ليستعين بهم فى مهمته . لقد كانت هذه خيانة سافرة من ملك مصر ، فبدلا من أن يعمل على استرداد جوف سوريا الذى فعل أسلافه ما فعلوا فى سبيل الاحتفاظ به ضمن أملاكهم ، نراه الآن يعاون الرومان على ضمه إلى أملاكهم . ويغضب الإسكندريون لهذه الخيانة التى اقترفها ملكهم ، ويحس الزمار بالخطر يحدق به فيسرع بطلب العون من بومبى ، ويرسل إليه الهدايا والأموال ، ويدعوه لتأديب الأسكندريين[٢] . ولكن بومبى كان حصيفاً فقبل الهدايا واعتذر من زيارة الإسكندرية لأنه يعلم أى إشكال سياسى يثيره على نفسه بخطوة كهذه ، وهو يعرف تماماً مدى التطاحن الحزبى فى روما من أجل مصر ، ثم إنه كان يربأ بنفسه أن يؤدى للزمار مهمة الشرطى فى الإسكندرية ، وهو الذى دان له الشرق كله بعد انتصاراته العظيمة على ميثريداتيس وتيجرانس .

وكيف كان موقف شعب الإسكندرية من ملكه الخائن ؟ كانت الثورة تعتمل فى صدره ، ويود مخلصاً لو خلى بينه وبين الزمار ليقذف به بعيداً عن العرش الذى برهن على أنه غير جدير به . ولكن كيف يتاح له أن يعبر عن ثورته المكبوتة تعبيراً عملياً وهو يعرف سلفاً أن النتيجة الوحيدة لن تكون غير ضم مصر إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية . لهذا آثر الإسكندريون الصبر حتى تتاح لهم فرصة أخرى . ولقد حدثنا ديودوروس الصقلى — الذى زار مصر

(١) كان بومبى يقود جيوشه منتصراً فى الشرق حينئذ ، فهزم ميثريداتيس (٦٦ ق . م .) واضطره إلى الفرار إلى القرم حيث قتله ابنه الغادر فارناكيس ، وبذلك خضعت بونتس لروما . وفى عام ٦٥ أكره تيجرانس على الارتداد إلى أرمينيا وقضى على كل سلطان له فى سوريا وآسيا الصغرى ، ثم استطاع فى العام التالى (٦٤ ق . م .) أن يحول سوريا إلى ولاية رومانية ، وكانت كليوبتره سيليني عندئذ قد فارقت الحياة إذ قتلها تيجرانس فى عام ٦٩ ق . م . بعد أن أسرها فى مدينة سليوكيا على الفرات . وهكذا انتهت سلالة البطالمة الشرعية اللهم إلا إذا اعتبرناها مستمرة فى أبناء وأحفاد كليوبتره سيليني وكليوبتره تريفاينا ، وهم فى الواقع أمراء سليوكيون (Cf. E. Bevan, op. cit. p. 351)

(٢) App. Mith., 114.

فى تلك الآونة — عن مبلغ حفاوة الإسكندريين بالزوار الإيطاليين ، وقال إن هذه الحفاوة لم تكن خالصة لوجه الصداقة ، وإنما كان يدفعهم إليها خوفهم من إثارة الرومان عليهم(١) .

هكذا كان حال الزمار : يجلس قلقاً فوق عرشه لا يستقر له قرار ؛ فلا هو يستطيع الاطمئنان إلى الرومان برغم ما بذل لهم من أموال وهدايا ، ولا هو يأمن جانب الشعب الإسكندرى الذى يطوى أفراده صدورهم على كراهية عميقة ومقت شديد لهذا الملك . ولم يكن أمام الزمار بعد ذلك إلا أن يعتمد على عيونه يبثهم فى روما لتأتيه عن طريقهم دقائق الموقف الحزبى فى روما بعد أن أصبح مصيره مرتبطاً بهذا الموقف كل الارتباط .

وفى عام ٦٠ ق.م. تمت انتخابات القنصلية فى روما ، فكانت نذيراً لملك مصر بشر مستطير ، إذ ظفر بالمنصب يوليوس قيصر الذى حاول انتزاع مصر من ملكها مرتين قبل ذلك . وكان يعاون قيصر فى قنصليته كل من كراسوس وبومبى(٢) ، وموقف أولهما من المسألة المصرية معروف . ولهذا توقع بطلميوس الزمار أن يبدأ قيصر عمله فى منصبه الجديد بإعلان ضم مصر إلى روما . ولكن قيصر كان أبعد من ذلك نظراً ، فهو فى حاجة ماسة إلى المال ، وملك مصر بقرة حلوب ، ولن يتوانى عن افتداء عرشه بأى مبلغ من المال مهما عظم . لهذا أرسل إليه قيصر مطالباً — باسمه واسم بومبى — بمبلغ ستة آلاف تالنتا ثمناً لتسوية المشكلة المصرية(٣) .

---

(١) Diod. Sic. I, 83.

(٢) عندما عاد بومبى من الشرق ظافراً كان ينتظر أن يؤيده السناتو فيوافق على النظم التى سنها للمناطق التى فتحها ، ولكن المجلس — خوفاً من اتساع نفوذ هذا القائد — أراد أن يكبح جماحه فلم يمنحه تأييده . وكانت النتيجة المباشرة لذلك المسلك الغريب ، أن ارتمى بومبى فى أحضان حزب العامة ، ومن ثم تألفت الحكومة الثلاثية الأولى من قيصر وكراسوس وبومبى ، وانتخب قيصر قنصلا لعام ٥٩ ق . م . (Cf. M. Cary, op. cit. pp. 374 ff.) .

(٣) Suet., Caes., 54

ويبدو أن هذا المبلغ كان عملة فضية وإن لم يذكر سويتونيوس ذلك صراحة ، إذ المفروض أن التالنتات « المصرية » كانت فضية . وهذا المبلغ يوازى — على وجه التقريب — نصف

روما تعترف بالزمار :

وأسرع بطلميوس فأجاب الطلب ، وظفر آخر الأمر بما حاول الظفر به دون جدوى أكثر من عشرين عاماً ، فقد حصل له قيصر على اعتراف روما الرسمي ، ولم يأت هذا الاعتراف فى صورة قرار من مجلس الشيوخ يكون عرضة للنقض فى أى وقت ، وإنما أتى بموجب قانون خاص « بملك الإسكندرية » « De Rege Alexandrino » جاء فيه أنه نظراً للخدمات التى أداها بطلميوس لجيوش روما فى آسيا ، فإن روما تعترف به ملكاً على مصر ، وتمنحه لقب « حليف وصديق الشعب الرومانى » . وقد صدر هذا القانون فى شهر فبراير من عام ٥٩ ق.م. برغم المعارضة الشديدة التى أثارها الأرستقراطيون ضده[١] . وتأكيداً لهذا القانون ، عقدت معاهدة تحالف وود مع مصر ، وحفظت بين سجلات الكابيتول ، كما جاء فى دفاع شيشرون عن رابير يوس[٢] . وهكذا جاءت نجاة بطلميوس الزمار على يد من كانوا يحاولون من قبل إقصاءه عن عرش مصر ؛ وأعتقد أنه قد آن له أن يطمئن على تاجه ، وأن ينعم بقسط من الهدوء والراحة فى ظل الرضاء الذى حظى به من سادته الرومان !

لكن بطلميوس الزمار كان واهماً فى واقع الأمر ، فهو قد ربط نفسه إلى عجلة الصراع الحزبى فى روما ، والصراع الحزبى فى كل زمان ومكان لا تؤمن له عواقب ، ذلك لأن مصالح الأحزاب وأهدافها السياسية هى التى ترسم لها خطة العمل التى ينبغى أن تنتهجها ، فهى قد تهادن اليوم جهة من الجهات ثم لا تلبث بعد قليل أن تعلن عليها حرباً شعواء ، وذلك هو ما حدث بالفعل

دخل الملك السنوى إذا صح ما جاء فى سترابون (XVII, p. 797) نقلا عن شيشرون من أن دخل الزمار كان ١٢٥٠٠ تالنتا فى السنة . وقد ذكر ديودوروس (loc. cit.) فى معرض حديثه عن زيارته لمصر (حوالى عام ٦٠ ق . م .) ، أن دخل الملك كان ستة آلاف تالنتا فى السنة . ونحن نستبعد أن يطالب قيصر ملك مصر بدفع كل دخله السنوى ، ولهذا نرجح أن يكون ديودوروس قد استند فى ذكر هذا الرقم على معلومات خاطئة كان يستقيها من أفواه الكهنة ولا يمحصها ، أو لعله كان يقصد الدخل النقدى دون العينى . Cf. E. Bevan, op. cit. p. 352, No. 1

(١) Cic. Ad Att., II, 5-16.

(٢) Cic. Pro Rabir., 3.

بالنسبة للمسألة المصرية فى حلبة الصراع الحزبى فى روما ، فقد كان الحزب الديموقراطى تواقاً للحصول على مصر ومواردها ، ورأينا كيف حاول قيصر أكثر من مرة أن ينتزعها من بطلميوس الزمار ، ولكن الحزب الأرستقراطى كان يقف لهذه المحاولات بالمرصاد حتى يقضى عليها ، ثم تغيرت الأوضاع ، فإذا بالحزب الديموقراطى هو الذى يدافع عن ملك مصر ضد الحزب الأرستقراطى ، وهو الذى يعترف رسمياً بحق بطلميوس الزمار فى التاج المصرى ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال حباً فى ملك مصر وحرصاً على مصالحه ، وإنما استجابة لدواعى المصلحة الحزبية الخالصة فى روما .

مشكلة قبرص :

ولم يكد ينقضى عام واحد على اعتراف روما رسمياً ببطلميوس الزمار حتى أثيرت مشكلة قبرص ، تلك الجزيرة التى بقيت وحدها من أجزاء الإمبراطورية البطلمية القديمة . فقد تقدم نقيب العامة « كلوديوس » بعدة اقتراحات بقوانين ، أغلب الظن أنها كانت بوحى من قيصر . وكان من بين هذه الاقتراحات واحد يقضى بضم جزيرة قبرص إلى الأملاك الرومانية ، وتحويلها إلى ولاية رومانية[١] .

والواقع أن مشروع القانون الذى تقدم به « كلوديوس » كان عملا سياسياً بارعاً ، أصاب عدة أهداف بضربة واحدة ، فقد جاء فى مذكرته التفسيرية — إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير الحديث — أن دخل هذه الجزيرة سوف يحول إلى خزانة الجمهورية[٢] . والحقيقة أن حزب الشعب كان يقصد الاستيلاء على هذا الدخل ليعوض ما فقده بتنازله عن مصر ، وليتمكن من تمويل قانون شعبى آخر يقضى بمنح الغلال لأفراد الشعب دون ثمن على الإطلاق ، وهكذا يرضى العامة الذين يؤيدونه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد عهد

---

(١) كان يحكم قبرص منذ عام ٨٠ ق . م . شقيق الزمار الذى أتى معه من سوريا . وكان يسمى بطلميوس ، ولا نعرف له كناية خاصة كغيره من البطالمة .

(٢) Liv., Epit., CIV; Dio Cass., XXXVIII, 30.

إلى كاتو بالذهاب إلى قبرص لإقناع ملكها بالتنازل عنها للرومان ، والقصد من ذلك إبعاد هذا الزعيم الأرستقراطي العنيد عن روما حتى لا يفسد في غيبة قيصر تدابير حزب الشعب[١] .

ولم يكن من العسير على « كلوديوس » أن يمهد لمشروعه بكثير من الحجج التي تبرره ، فقد اتهم ملك قبرص بعدائه الشديد للرومان وصداقته الوطيدة مع القراصنة [٢] ، واعتمد على وصية بطلميوس الإسكندر الثاني التي كان الرومان لا يفتأون يتحدثون عنها ؛ أما المعاهدة التي عقدت مع الزمار منذ عام واحد ، فإنها لا تنصب على قبرص إذ نص فيها على « ملك الإسكندرية » وحده دون ملك قبرص .

وكان حرياً ببطلميوس الزمار حينئذ أن يكافح من أجل الاحتفاظ بقبرص ، تلك الجزيرة التي كانت جزءاً من أملاك البطالمة منذ عهد أولهم الملك بطلميوس سوتر ، كان حرياً به أن يرد على حجة « كلوديوس » الأخيرة بأن « ملك الإسكندرية » المشار إليه في معاهدة عام ٥٩ ق.م. هو ملك مصر وما يتبعها ، وأن قبرص ليست مملكة منفصلة مستقلة بذاتها ، وإنما هي جزء لا يتجزأ من المملكة البطلمية . وموقف كهذا هو أقل ما كان ينتظره شعب الإسكندرية من ملكه بطلميوس الزمار . ولكن الإسكندريين لفرط دهشتهم وجدوا منه إهمالا زرياً لمشكلة قبرص التي أثارها الرومان على هذا النحو . ويبدو أنه وقد ظفر باعتراف الرومان الرسمي بملكه في وادي النيل قد آثر ألا يغضبهم بالتمسك بقبرص ، وفضل أن يضحي بهذه الجزيرة في سبيل إرضاء

---

(١) قصد قيصر إلى بلاد الغال في عام ٥٨ ق . م . تاركاً روما وشئونها الداخلية في يد حليفيه بومبي وكراسوس . وكان بين نقباء العامة واحد يدعى « كلوديوس » ، كانت صلته بقيصر وطيده ، فاعتمد عليه قيصر في تنفيذ خطة رسمها معه قبل رحيله إلى بلاد الغال .

(٢) Strab., XIV, p. 684; App., B. Civ., II, 23.

ويحدثنا سترابون بأن كلوديوس « كان قد وقع في يد القراصنه (عام ٦٧ ق . م .) ، ولم يقدم ملك قبرص الفدية الكافية لفك أسرة ، إنما اكتفى بتقديم تالنتين لم يقنع بهما القراصنة ، فظل « كلوديوس » أسيراً لديهم حتى اقترب منهم بومبي . وكان طبيعياً ألا ينسى « كلوديوس » هذا الموقف لبطلميوس ملك قبرص .

سادته الرومان حتى لا يعرض عرشه فى مصر نفسها للزوال . ويرى « بوشيه — لكلرك »[١] أن السبب فى هذا الموقف المخجل الذى وقفه بطلميوس الزمار هو أنه لم يجد فسحة من الوقت كى يتصل بأخيه ملك قبرص ويرتب معه شئون الدفاع عن حقهما فى الجزيرة ، فقد قدم اقتراح « كلوديوس » فى شهر ديسمبر من عام ٥٩ ق.م. ، ثم ووفق عليه فى شهر مارس من العام التالى . ولكنا نعتقد أن بطلميوس الزمار لم يبذل أية محاولة لهذا الاتصال ، ولم تبد منه أية بادرة تدل على اهتمامه بالاحتفاظ بقبرص حتى لقد أثار دهشة الأرستقراطيين أنفسهم فى روما[٢].

وأيا كان الأمر ، فما كاد « كلوديوس » يظفر بالموافقة على قانونه ، حتى طلب إلى الشعب إرسال « كاتو » إلى الجزيرة للإشراف على تصفية أموال الملك المخلوع ، فهو الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه فى القيام بمهمة جليلة الخطر كهذه ! وواقع الأمر كما ذكرنا هو الرغبة فى إبعاد « كاتو » عن روما أطول مدة ممكنة أثناء غياب قيصر عنها حتى يصفو الجو تماماً للحزب الديموقراطى ، ولا سيما بعد أن أمكن نفى شيشرون من العاصمة فى عام ٥٨ ق.م.

واضطر « كاتو » إلى مغادرة روما . ويحدثنا « بلوتارك » بأنه لم يزود فى رحلته بقوات عسكرية أو بحرس خاص ، وإنما صاحبه تابعان اثنان فقط ، ومضى « كاتو » إلى « رودس » حيث أقام فى انتظار صديقه « كانيديوس » Canidius الذى أرسله إلى بطلميوس ملك قبرص ليقنعه بالتنازل عن الجزيرة دون قتال نظير تعيينه كاهناً لمعبد أفروديت فى بافوس إلى جانب الظفر بصداقة الشعب

---

(١) B. - Leclercq, op. cit., II, p. 139.

(٢) Cic., Pro Sest., 27.

وقد هاجم شيشرون فى دفاعه عن « سستيوس » (عام ٥٦ ق . م .) قانون كلوديوس الخاص بضم جزيرة قبرص ؛ ومما جاء فى هذا الدفاع قوله « إن الشعب الرومانى قد أظهر تسامحاً مع أعدائه الذين حاربهم ، فرد لهم تيجانهم ، كما حدث مع انطيوخوس الأكبر وتيجرانس بل وميثريداتيس نفسه ، بينما انتزع التاج من ملك قبرص التعيس برغم أنه كان دائماً صديقاً وحليفاً لنا ، ولم يبد منه ما يدعو إلى الشك فيه . » ولم يكن هذا الدفاع عن ملك قبرص خالصاً لوجه الحق ، وإنما هو تعبير عن عداء حزبى وشخصى بين شيشرون وكلوديوس بعد أن استطاع هذا الأخير نفى شيشرون من روما.

الرومانى[١] . ولكن ملك قبرص فضل الانتحار على أن يقضى بقية أيام حياته فى مسوح الرهبان[٢] . وعندما وصلت هذه الأنباء السارة إلى « كاتو » أسرع إلى الجزيرة ، وقام بالعمل الذى أنيط به خير قيام ، فباع كنوز الملك بطلميوس بما يقرب من سبعة آلاف تالنتا عاد بها إلى روما مع ما احتفظ به من الطرف.[٣]

وهكذا وضعت روما يدها على جزيرة قبرص ، وانتزعت من التاج البطلمى آخر ما بقى له من الممتلكات الخارجية ، ولم يكن ذلك الإجراء الذى اتخذه الرومان إلا عملا من أعمال العسف والظلم والاستهانة بحقوق الضعفاء ، عملا دفعت إليه ضرورات الصراع الحزبى العنيف الذى احتدم أواره فى العاصمة الرومانية بين الديموقراطيين والأرستقراطيين .

الزمار يغادر الإسكندرية :

وماذا حدث لبطلميوس الزمار بعد ذلك ؟ يقول بلوتارك[٤] إنه كان فى روما عندما عرضت كنوز أخيه المنتحر فى شوارعها ، وإنه كان بين المتفرجين على هذه الكنوز ! فكيف حدث ذلك ؟ حدثنا ديوكاسيوس[٥] بأن الإسكندريين وقد استبد بهم الغضب لضياع قبرص ، طلبوا إلى ملكهم الاختيار بين أمرين : فإما أن يطالب الرومان برد الجزيرة التى اغتصبوها اغتصاباً ، وإما أن ينفض يده من صداقة هؤلاء الجشعين . ولما لم يكن فى وسع الملك الاستجابة لأى المطلبين ، ولم تكن لديه القوات الكافية التى يحمى بها نفسه من ثورتهم ، فقد آثر الذهاب إلى روما ينشد مساعدتها متهماً رعاياه بطرده من عاصمة ملكه . ولم يتجه الزمار إلى روما مباشرة ، وإنما عرج فى طريقه على رودس ليستمد المشورة والنصح من « كاتو » . فلما وصلها وأحيط « كاتو » علماً بذلك ، دعا ملك مصر لمقابلته ولم يذهب إليه هو ؛ ودخل الزمار على هذا

(١) Plut., Cato minor, 34.

(٢) Val. Max., II, 38, 45.

(٣) Plut., op. cit., 36.

(٤) Ibid., loc. cit.

(٥) Dio Cass., XXXIX, 12.

الرومانى المتعجرف فوجده جالساً على كرسيه يزيل ضروره ! ! وبدأ كاتو يتحدث إلى ملك مصر ، فنصحه بألا يذهب إلى روما حتى لا يضع نفسه هناك تحت رحمة الصراع الحزبى الداخلى ، وأفهمه أنه باستعدائه الرومان على شعبه يرتكب خطأ جسيماً لا يغتفر . فلسوف يصبح فى العاصمة الرومانية أداة فى يد رجال الأحزاب الذين لا يخلصون إلا لأنفسهم ، والذين لا يمكن أن تشبع مصر نهمهم إلى المال ولو تحولت كلها ذهباً ، ثم هو آخر الأمر لن يظفر منهم بطائل . وأشار عليه بوجوب العودة إلى مصر واسترضاء شعبه الغاضب ، وعرض عليه أن يصحبه إليها ليكون رسول سلام بينه وبين أفراد رعيته[١] .

ونحن لا نشك فى أن النصيحة التى أدلى بها « كاتو » إلى بطلميوس الزمار لم تكن خالصة فى ذاتها ، إنما هى المصالح الحزبية التى دفعته إلى توجيه هذه النصيحة ، فهو حاقد على الحزب الديموقراطى الذى قبض على مقاليد الأمور فى روما ، وهو يعرف تماماً أن القصد الحقيقى من إرساله إلى قبرص كان إبعاده عن العاصمة الرومانية بعد أن أبعد عنها شيشرون ، ولهذا كان حريصاً على ألا يقع ملك مصر فى أيدى رجال هذا الحزب وعلى رأسهم نقيب العامة « كلوديوس » . وقد كان حرياً ببطلميوس الزمار أن يستجيب لداعى العقل والمنطق فيعمل بهذه النصيحة الغالية والواقع أنه تأثر بها كثيراً وكان على وشك العمل بها لولا هذه الحفنة من الرجال الذين كانوا فى صحبته ، فقد أقنعوه بوجوب الذهاب إلى روما واتهام شعبه بأنه طرده من الإسكندرية طرداً .

ووصل بطلميوس الزمار إلى روما واتهم شعبه بهذه التهمة كما يحدثنا المؤرخون القدامى ، ولكننا نعتقد مع « بوشيه لكلرك » أنها تهمة باطلة[٣] ، فذلك هو ما يمكن أن نستنتجه من نصيحة « كاتو » له ، ومن رغبته فى الاستجابة لهذه النصيحة ؛ فكيف نتصور استعداده للعودة إلى الإسكندرية قبل أن يصل إلى روما إذا كان الإسكندريون قد طردوه حقاً منها ؛ ثم إننا نعتقد أيضاً أن مجرد

---

(١) Plut., op. cit., 35.

(٢) Cic., Pro Rabir., 2; Liv. Epit.; Str. XII, p. 558; XVII, p. 796.

(٣) B. - Leclercq, op. cit. II, pp. 143-144.

ذهابه إلى قبرص يدل على أنه غادر الإسكندرية مختاراً ، فأغلب الظن أنه كان يتجه إلى روما مباشرة لو أنه خرج من عاصمته مطروداً ، إذ ما الذى يدعوه لزيارة كاتو أولا واستشارته فى الأمر ، وهو يعلم أن كاتو على غير وفاق مع الحزب الديموقراطى صاحب السلطة فى روما ؟ هذا ويضيف بوشيه لكلرك[١] حجة أخرى يرجح بها رأيه ، وهى أن الزمار لم يصحب معه أفراد أسرته إلى روما مما يدل على أنه كان على ثقة من أنه يستطيع العودة فى أى وقت يشاء ، وإلا فكيف تثور عليه الإسكندرية ، ويطرده شعبها ثم يترك أفراد أسرته تحت رحمة هؤلاء الثائرين ؟ وهى حجة لا بأس بها ، ولكن قد ينقضها أن الزمار لم يجد لديه متسعاً من الوقت أمام ثورة الإسكندرية ، فنجا بحياته أولا ، وهو يعرف من سوابق مثل هذه الثورات أن شعب الإسكندرية برغم ثورته على الملك الجالس على العرش لم يكن يضمر شراً للأسرة البطلمية ذاتها ، وإنما كان يبحث بين أفرادها عمن يستطيع إجلاسه على العرش

برنيكى الرابعة تعتلى العرش :

ويبدو أن الإسكندريين قد استولت عليهم الدهشة لرحيل ملكهم المفاجىء ، ويبدو أيضاً أن ذهابه إلى قبرص قد ضللهم فلم يستطيعوا اقتفاء أثره . ويحدثنا « كاسيوس » بأنهم لم يعرفوا أنه لجأ إلى إيطاليا ، بل إنهم اعتقدوا أنه قضى نحبه ، فأجلسوا على العرش ابنته برنيكى (الرابعة)[٢] . أما « بورفيريوس » فيقول إن شعب الإسكندرية لم يقدم على ملء العرش إلا بعد أن طالت غيبة الزمار فى إيطاليا فاعتقدوا أنه لا يزمع العودة[٣] . واشتركت كليوبتره تريفاينا[٤] فى الحكم

(١) Ibid., loc. cit., p. 144.

(٢) Dio. Cass., XXXIX, 13.

(٣) Porphyr., I, p. 168.

(٤) يحدثنا المؤرخون القدامى بأن بطلميوس الزمار أنجب خمسة أبناء : ثلاث بنات هن برنيكى وكليوبترة وارسينوى ، وولدين هما بطلميوس (الرابع عشر) . و بطلميوس (الخامس عشر) ولكن بورفيريوس (Loc. Cit.) ، يذهب منفرداً إلا أن الزمار قد أنجب قبل هؤلاء جميعاً ابنته الكبرى كليوبترة تريفاينا التى كانت تحمل نفس اسم والدتها ، وهو يقول إن هذه الابنة هى التى اشتركت فى حكم مصر مع أختها

مع برنيكى الرابعة فى الحكم ، ولكن تريفاينا توفيت سريعاً فى خلال العام الثانى لخروج الزمار من مصر ، فانفردت برنيكى بالحكم ، وتولى الوصاية عليها بعض كبار موظفى الدولة

الزمار فى روما :

وعندما وصل بطلميوس الزمار إلى روما كان قيصر فى بلاد الغال ،

برنيكى فى عام ٥٧ ق . م . بعد أن غدرها والدهما ، وأنها توفيت سريعاً بعد ذلك ، فانفردت برنيكى بالحكم . أما سترابو (XVII, p. 796) فيقول إن الاسكندريين توجوا الابنة الكبرى للزمار بعد أن طردوا والدها ، وإن هذه كانت ابنته الشرعية الوحيدة . وأما ديوكاسيوس فلا يعرف غير برنيكى ملكة لمصر فى خلال الفترة التى ظل فيها الزمار بعيداً عن مصر (٥٨ — ٥٥ ق . م .) . ولم يتحدث واحد من هؤلاء المؤرخين القدامى عن الملكة الأم زوجة الزمار ؛ ومعنى هذا أنها توفيت قبل رحيل الزمار عن الإسكندرية بزمن طويل كان كافياً لأن ينجب فى خلاله أربعة أبناء غير شرعيين كما يصفهم سترابو . وقد وافق المؤرخون الألمان (ابتداء من لبسيوس وفلكن إلى شتراك) على أن كليوبتره تريفاينا الأم قد توفيت قبل عام ٥٨ ق . م . بل إن شتراك ليذهب إلى أنها توفيت فى نهاية عام ٦٩ ق . م . مستنداً إلى أن اسمها م يظهر بعد هذا التاريخ فى الوثائق أو على الآثار مما يثبت أنها لم تكن على قيد الحياة (Cf. B. - Leclercq, II, p. 145, No. 1) . ولهذا يقول هؤلاء المؤرخون أن تريفاينا سميت باسم والدتها ، وأن الأبناء الأربعة الذين أنجبهم الزمار بعد هاتين البنتين كانوا جميعاً غير شرعيين . ولكن لكلرك (Loc. Cit.) لا يوافق على هذا الزعم ، ويعتقد أنه لو صح لكان سلاحاً ماضياً فى يد روما وهى تحاول جاهدة (بين عام ٤٧ وعام ٣٠ ق . م .) ضم مصر نهائياً إلى أملاكها . ولكنها فى خلال محاولاتها لم تتذرع مرة واحدة بأن كليوبتره تريفاينا وأخويها كانوا غير شرعيين ، ومن ثم تستطيع اقصائهم عن العرش . ولهذا يرى لكلرك أن هؤلاء الأبناء كانوا شرعيين ، وأن كليوبتره الأم لم تكن قد توفيت عند رحيل زوجها إلى روما ، وأنها هى التى شاركت ابنتها الملك فى عام ٥٨ ق . م . ومما يؤيد هذا الرأى النقش الذى وجد فى معبد أدفو (وهو مؤرخ باليوم الأول من شهر كيهك فى العام الخامس والعشرين من حكم الزمار — ١٥ ديسمبر عام ٥٧ ق . م .) مشيراً إلى انتهاء العمل فى هذا المعبد ، وقد ورد فيه اسم الزمار مع أخته الملكة كليوبتره تريفاينا . وكان الملك عندئذ خارج مصر ، ولكن يبدو أن الكهنة كانوا لا يزالون يعتبرونه ملكاً ولا يعترفون بما جرى فى الاسكندرية . والنقش يدل على أن الملكة الأخت كانت على قيد الحياة . ومن المستبعد أن تكون وفاتها قد حدثت قبل هذا التاريخ بأحد عشر عاماً ولا يدرى الكهنة فى أدفو هذه الحقيقة . أما اختفاء اسم هذه الملكة من الوثائق منذ عام ٦٩ ق . م . فلعله راجع إلى خلاف شخصى بينها وبين الملك جعله يأمر باغفال اسمها فى الوثائق ، وربما تجود الاكتشافات المقبلة بوثيقة تحمل اسمها بعد ذلك التاريخ .

فاستقبله بومبى استقبالا كريماً ، وأنزله فى قصر من قصوره على تلال « ألبانى » ، وهيأ له فرصة تدبير أموره فى هدوء وروية . وقد تحول هذا القصر إلى شبه مصرف مالى وملتقى لأصحاب الجاه والنفوذ من الرومان[١] . وسرعان ما نفذت الأموال التى حملها الزمار معه إلى روما ، ويبدو أنها كانت قليلة لأنه لم يكن يتوقع لنفسه إقامة طويلة بين الرومان ، فاضطر إلى الاستدانة من المدولين الرومان واعداً بالسداد عندما يعود إلى بلادة . ثم أخذ يوزع رشاويه وهباته على أعضاء مجلس الشيوخ حتى لنستطيع أن نقول إنه اشترى بأمواله هؤلاء الأعضاء جميعاً كما جاء فى دفاع شيشرون عن رابيريوس بوستوموس أحد الذين استدان منهم الزمار مبالغ طائلة[٢] . والواقع أن بعض الذين كانوا يترددون فى بيع ضمائرهم للزمار ، كانوا سرعان ما يوافقون على الصفقة بمجرد أن ترتفع قيمة المبالغ المعروضة عليهم . فلم يكن الأمر إذاً أمر خلق ومبادئ ، وإنما هى عمليات تجارية وصفقات مالية ، الرابح فيها هم الرومان والخاسر دائماً بطلميوس الزمار الذى باع نفسه لهؤلاء الجشعين الأقوياء ، وأهمل نصيحة غالية بذلها له كاتو فى قبرص .

ولم يتورع الزمار عن ارتكاب جريمة القتل فى سبيل إسكات كل لسان يحاول معارضة قضيته : فقد أرسل شعب الإسكندرية إلى روما سفارة تتألف من مائة شخص يرأسهم الفيلسوف « ديون » ليردوا على اتهامات الزمار ، ويثبتوا المظالم القاسية التى أنزلها بهم[٣] . ولما علم بطلميوس بأنباء هذه السفارة من وكلائه وعيونه ، عول على أن يمنع أفرادها من مجرد الوصول إلى روما ، فأرسل إلى الميناء الذى نزلوا به من استقبلهم بالخناجر[٤] ، وتمخضت المجزرة عن مقتل معظمهم ، أما الباقون فقتلوا فى روما نفسها ، وأفلح عدد ضئيل

---

(١) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXIX, 14; Cic., Pro Rabir., 3.

(٢) Cic., loc. cit.

(٣) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXXIX, 13-14.

ويبدو هذا عدداً ضخماً جداً ، ولكن الإسكندريين فيما يظهر كانوا يهدفون إلى التأثير فى الرومان بهذه المظاهرة الكبيرة .

(٤) Cic., Pro Caelio. 10.

فى الفرار من الموت ، ولكن الزمار أفلح فى شراء هذا النفر بالمال ، ولعلهم آثروا الصمت العميق من تقاء أنفسهم حتى لا يصيبهم ما أصاب زملاءهم الآخرين [١] .

وأخيراً عرضت قضية بطلميوس الزمار على مجلس الشيوخ الرومانى ، فقرر أعضاؤه (عام ٥٧ ق م) إرسال المدعو لنتولوس سبنتر L. Spinther إلى الإسكندرية كى يعيد ملك مصر إلى عرشه [٢] . ولما كان شيشرون قد أعيد من منفاه بناء على اقتراح لينتولوس ، فإنه رد إليه الجميل بخطاب ألقاه عن ملك مصر (De Rege Alexandrino) ، حياً فيه محرره ، وبارك المهمة التى أنيطت به فى مصر ؛ ولكن المعارضة أتت من ناحية نقيب العامة فافونيوس « M. Favonius » الذى وقف عندئذ يناوئ الحكومة الثلاثية ، ويحمل راية الأرستقراطيين ! ! فقد فضح هذا التربيون مأساة سفراء الإسكندرية الذين لقوا حتفهم ، وتحدث فى لهجة لا تنقصها الصراحة عن القتلة الآثمين الذين أفلتوا من العقاب . ويبدو أن حديثه الصريح هذا كان له أثره فى رجال مجلس الشيوخ ، فقرروا استدعاء ديون رئيس سفارة الإسكندرية ليدلى لهم بالحقيقة ، لكن ديون لم يكن من السذاجة بحيث يستجيب لهذا النداء طالما كان الزمار فى روما [٣] ، وأغلب الظن أنه كان ينوى عدم الإشارة إلى زملائه أعضاء البعثة الذين قتلوا بتدبير ملكهم . وأيا كان الأمر ، فقد تخلص منه الزمار ، فبعث إليه بمن قتله فى منزل مضيفه « لوكايوس » L. Lucceius ، [٤] وهكذا لحق رئيس سفارة الإسكندرية بمرءوسيه ولقى حتفه فى روما ، وأفلت مرتكب الجريمة من العقاب كما أفلت الذين قتلوا أعضاء السفارة جميعاً . لقد كانت أموال هذا الملك كفيلة بتكميم الأفواه . واتجهت التهمة إلى عبيد « لوكايوس »

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 12-14.

(٢) Dio Cass., XXXIX, 12.

وكان لنتولوس مرشحاً لتولى حكم كيليكيا فى عام ٥٦ ق . م .

(٣) Dio Cass., XXXIX, 14.

(٤) Cic., Pro Rabir., 10 & 22.

أنفسهم ، وقيل إن الذى أوحى إليهم بارتكابها كان كايليوس روفوس M C. Rufus فقدم للمحاكمة ، لكن دفاع شيشرون وكراسوس عنه كان كفيلا بتبرئته .

الزمار يغادر روما :

وخشى بطلميوس الزمار — بعد كل ما اقترفه فى روما وما أثير حوله من ضجة — أن تتغير الظروف فى عاصمة الجمهورية ، فآثر أن يغادرها ، وانتقل إلى الشرق فى عام ٥٧ ق.م. حيث أقام ينتظر وصول « لنتولوس »[١] . وترك الزمار فى روما صديقه الحميم « أمونيوس » للإشراف على مصالحه ، أو بمعنى أدق ، لإكمال مساعيه لدى ذوى النفوذ من الرومان.[٢] وبدا كأن كل شىء قد هيئ لعودة الزمار إلى عرشه : فقرار السناتو بإعادته لا زال نافذاً ، ولنتولوس نفسه لم يكن أقل رغبة من بطلميوس فى السفر إلى الإسكندرية ، فتلك مهمة ستعود عليه بالخير الوفير . . . ولكن جواً كهذا الذى كان يسود العاصمة الرومانية لم تكن تؤمن له عواقب . وسرعان ما أتت الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد كان بين نقباء العامة الذين اعتلوا مناصبهم فى ديسمبر من عام ٥٧ ق م شاب يتقد حماسة يدعى « كاتون » ، استطاع أن يثير الشعب الرومانى ضد بطلميوس الزمار ولنتولوس على السواء ، وكان يهدف إلى عرقلة إعادة ملك مصر إلى عرشه[٣] . وليس من شك فى أن ثورة « كاتون » هذه لم تكن تلقائية ، وإنما دفعه إليها أصدقاء بومبى الذى كان يريد إسناد مهمة إعادة الزمار إليه هو دون غيره حتى تتاح له فرصة قيادة جيش رومانى .

---

(١) يقول « كاسيوس » إن ملك مصر أقام فى إفسوس منذ يناير عام ٥٦ ق . م . (XXXIX, 16) ، ولهذا يحتمل أنه قضى فترة من الوقت فى أثينا قبل وصوله إلى أفسوس .

(٢) Cic., Ad Fam., I, 1, 1

(٣) Cic., Ad Quint. fratr., II, 3. 4.

الصراع الحزبى يؤخر عودة الزمار :

وكان قنصلا عام ٥٧ ق.م. قد اقترحا تكليف بومبى الإشراف على تموين روما بالغلال ، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح الذى ظفر بومبى بموجبه بسلطات واعتمادات مالية لا حد لها[١]. ولكن بومبى لم يقنع بهذا ، وأحس بأن المهمة ضئيلة لا تتناسب ومكانته العسكرية ، وهو القائد المظفر الذى قهر ميثريداتيس. وكان بومبى يعتقد أن حقد الشيوخ عليه هو السر الوحيد فى إقصائه عن مهمة إرجاع بطلميوس الزمار إلى عرشه ؛ وإلا فكيف يستساغ إسناد هذه المهمة الخطيرة إلى رجل مثل لنتولوس يقل عنه خبرة وكفاية ، بل إنه لم يسبق له أن اشترك فى معركة واحدة ؟ والواقع أن بطلميوس الزمار كان يفضل أن تكون عودته إلى عرشه على يد بومبى قبل سواه ، ولكنه لم يكن يستطيع الاختيار ، وكان عليه أن يقبل ما يقرره مجلس الشيوخ فى هذا الصدد ؛ وله بعد ذلك أن يعمل سراً مع أصدقاء بومبى على إقصاء لنتولوس من الميدان . ونجحت الخطة التى دبرت ، وأفلح أصدقاء بومبى وأعوانه فى تحويل أنظار العامة نحوه هو ، بعد أن أدت حركة « كاتون » إلى وضع لنتولوس موضع الشك ، وأسهم أمونيوس — وكيل الزمار فى روما — فى هذه المحاولات كلها بنصيب وافر تنفيذاً لرغبات ملك مصر .

على أن هذه المناورات المكشوفة لم تفت فى عضد النبلاء وأصدقاء لنتولوس سبنثر ، وإنما زادتهم إصراراً على مقاومة بومبى وأطماعه التى لا تقف عند حد . وبينما كان الصراع الحزبى مشتداً على هذا النحو فى العاصمة الرومانية ، إذا بالشائعات تتواتر فى بداية شهر يناير من عام ٥٦ ق.م. بأن صاعقة نزلت بتمثال الإله جوبيتر لا تياريس Jupiter Latiaris[٢] . ولما كان نزول

---

(١) كانت مدة هذه المهمة خمسة أعوام ، انظر : (Cic., Ad Att., IV, 1, 7.)

(٢) « جوبيتر » إله الرومان الأعظم ، شأنه فى ذلك شأن « زيوس » عند الإغريق و « آمون رع » عند المصريين القدماء . وكان جوبيتر يعبد تحت أسماء مختلفة من بينها جوبيتر كابيتولينوس (Capitolinus) الذى يشرف على الألعاب الرومانية الكبرى ويرعاها ، وجوبيتر لا تياريس أو لاتياليس (Latialis or Latiaris) ، الذى يرعى الأعياد اللاتينية ، وهو

صاعقة كهذه فى موسم الشتاء يعتبر نذير شر مستطير ، فقد لجأ الرومان إلى كتب « سيبيلى »[١] المقدسة يستلهمونها الرحى ، وفيها وجدت لجنة الخمسة عشر النبوءة التالية : « إذا جاءكم ملك مصر يطلب العون فلا تبخلوا عليه بصداقتكم ، ولكن إياكم ومساعدته بالقوة ، وإلا فإنكم تعرضون أنفسكم للآلام والأخطار » . وكانت النبوءة واضحة لا تحتمل تأويل المفسرين ، فانتهز « كاتون » الفرصة وأرغم لجنة الخمسة عشر على قراءة النبوءة أمام الشعب فى السوق العامة برغم ما فى ذلك من مخالفة صريحة للقواعد المتبعة فى مثل هذه المسائل الدينية التى ينبغى أن تظل سراً بالنسبة للعامة ، إلا إذا وافق السناتو على إذاعتها .[٢]

تلك كانت المناورة الدينية التى لجأ إليها « كاتون » ، وكان لابد إذاً من مراعاة الشعور الدينى لعامة الرومان ، فلا التجاء للقوة المسلحة لإعادة الزمار إلى عرشه . على أن النبوءة لم تحرم معاونة ملك مصر تحريماً مطلقاً ، بل إنها لتحتم معاونته تحتيماً ، ولا بأس على الرومان ما التزموا فى هذه المعاونة الطرق السلمية . . . وهكذا قال أصحاب المصلحة فى إعادة الزمار إلى عرشه ، وكان منطقهم سليماً لا يداخله شك ، واستمع لهم أعضاء مجلس الشيوخ فى هدوء ، وبدت منهم الموافقة على ما يسمعون . . . ولكن لمن توكل هذه المهمة ؟ إنها سفارة سلمية ، فينبغى إذاً أن يرأسها رجل له مكانته وهيبته فى الشرق ، وليس أفضل من بومبى لملء هذا المكان . والزمار نفسه لا يثق فى سواه كما جاء فى

الذى نتحدث عنه هنا . ومن صفات جوبيتر أنه يقرر المصائر ، وينبئ بالغيب ، وينذر بالشرور بعلامات تظهر فى السماء كتلك الصاعقة التى نزلت بتمثاله ؛ انظر :

(Smith's Classical Dictionary, art. Jupiter.)

(١) تطلق كلمة سيبيلى (Sibyllae » على عدد من النساء اللائى يدلين بالنبوءات ، وقد اختلف فى عددهن ، فقيل إنهن كن أربعاً ، وقيل عشراً . وأشهرهن تلك التى قدمت من الشرق إلى إيطاليا ، وأهدت إلى الملك تاركوينوس الكتب التى عرفت باسمهن ، وبها مجموعة من النبوءات التى أدلين بها ، وقد حفظت هذه الكتب فى الكابيتول حتى عام ٤٠٥ م . (Cf. Smith, op. cit., art. Sibyllae)

(٢) Dio Cass., XXXIX, 15-16.

رسالة بعث بها إلى نقيب العامة بلاوتيوس A. Plautius [١] . على أن المهمة أضحت — فى هذه الصورة — غير جديرة بالتطاحن عليها ، فهى لا تعدو أن تكون سفارة عادية لا تضفى شيئاً من المجد على القائم بها ، ولا تتيح له الفرصة التى يتطلع إليها كل ذى أطماع ، فرصة قيادة الفرق المسلحة .

واحتدمت المناقشات فى مجلس الشيوخ الرومانى حول هذه السفارة السلمية ومن تناط به ، وقد بدأت فى الثانى عشر من شهر يناير عام ٥٦ ق.م. واستمرت حتى الخامس عشر من نفس الشهر دون الاتفاق على رأى نهائى : فقد نادى فريق بوجوب إرسال بومبى ، ورأى فريق ثان إرسال لنتولوس الذى ندبه المجلس لهذه المهمة من قبل ، وكان هناك فريق ثالث يدعو إلى تأليف سفارة من ثلاثة أفراد ، ولم يخل المجلس ممن كانوا ينادون بعدم معاونة الزمار إطلاقاً . وأمام هذا التضارب الشديد اضطر السناتو إلى تأجيل المسألة كلها إذ لم يبق لديه متسع من الوقت للاستمرار فى مناقشة المسألة المصرية بعد انتهاء النصف الأول من شهر يناير ، لأن النصف الثانى منه كان مخصصاً لانعقاد (المجلس الدستورى) ومن ثم يتعذر عقد مجلس الشيوخ ، هذا إلى أن السناتو كان يخصص جميع جلسات شهر فبراير لاستقبال السفارات التى تصل إلى روما من الخارج [٢] .

وكان التأجيل فى ذاته نصراً أحرزه الحزب الارستقراطى ، فهو يستهدف من ورائه عدم عرض المسألة المصرية على الكوميتيا ، لأنه يدرك تماماً أن العامة لا يحسنون فهم المناورات السياسية البرلمانية ، ويخشى أن تعرض المسألة عليهم فى المجلس الدستورى فيقعون فريسة لمناورات بومبى ولنتولوس وأنصارهما . وقد أصدر مجلس الشيوخ قراراً بهذا المعنى ، ولكنه قوبل بالاعتراض الشديد من نقيبى العامة « كاتون » و « كانينيوس »[٣] . وفى أواخر شهر يناير تقدما بمشروع يقضى بإسناد مهمة إعادة الزمار إلى بومبى بدلا من لنتولوس[٤] .

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 16.

(٢) Cic., Ad Fam., I, 4.

(٣) Cic., Ad Fam., I, 2, 4.

(٤) Cic., Ad Quint. fratr., II, 2-3; Ad Fam., I, 5.

وكان طبيعياً أن تؤدى هذه المناورة الجديدة إلى إثارة الشغب والتنافس من جديد حول المسألة المصرية .

وكان بومبى يرقب هذا الذى يجرى دون أن تبدو منه أية حركة أو خطوة عملية ، ولكن أنصاره ووكلاء الزمار لم يدخروا جهداً فى الظفر بقرار لصالحه ، فنثروا حول السوق العامة نسخاً لرسالة — لا نعرف إذا كانت حقيقية أم مزيفة — بعث بها الزمار مطالباً بإحلال بومبى محل لنتولوس فى مهمة إرجاعه إلى عرشه(١) . لكن أسهم بومبى كانت حينئذ آخذة فى الهبوط ، فإذا بمحبة الشعب له تتضاءل ، فضلا عن عدم ارتياح النبلاء لأطماعه . أما رجل الساعة فكان « كلوديوس » ، ذلك الزعيم الديماجوجى الذى وقف يؤيد « كراسوس » ، وينادى بإرساله إلى الإسكندرية . واشتد عداء « كلوديوس » لبومبى بعد أن وقف هذا الأخير يؤيد « ميلون Milon » قائد العصابات التى جندها النبلاء لمواجهة « كلوديوس » . واجتمع المجلس الدستورى فى السادس من فبراير ، ووقف بومبى يؤيد ميلون فاشتدت معارضة العامة له ، وارتفع ضجيجهم حتى طغى على صوته . ثم وقف « كلوديوس » بعده وصاح فى أعوانه : « من الذى يريد أن يذهب إلى الإسكندرية ؟ » فأجابوه « بومبى » فسألهم مرة أخرى : « ومن الذى يريد إهلاك العامة جوعاً ؟ » فأجابوه « بومبى » وأخيراً سألهم : « ومن الذى تريدون إرساله أنتم إلى الإسكندرية ؟ » فأجابوه « كراسوس » .(٢) وهكذا نرى أن الوفاق لم يكن قائماً بين أعضاء التحالف الثلاثى ، فها هو ذا « كراسوس » ينافس صديقه وزميله « بومبى » ، ويعمل على أن يظفر من دونه بمهمة إعادة ملك مصر إلى عرشه . وقد كان لما حدث فى المجلس الدستورى أثره الشديد على بومبى فآثر الانزواء قليلا والابتعاد عن الميدان ، ولم يعد أحد يراه فى السوق العامة .

وحاول النبلاء إحباط مناورات « كراسوس » فأفلحوا ، وظلت المسألة المصرية تشغل بال السياسيين فى العاصمة الرومانية شهوراً عدة دون أن ينتهوا

---

(١) Plut., Pomp., 49.

(٢) Cic. Ad Quint. fratr., II, 3, 2. Plut., Pomp., 48.

فيها إلى قرار حاسم ، حتى إذا كان شهر يوليو من عام ٥٦ ق.م. ، عول بطلميوس الزمار — الذى نفذ صبره — على الإقامة فى معبد الآلهة « أرتميس » بمدينة إفسوس ، وهناك وجد ما كان حينئذ فى مسيس الحاجة إليه من المال .[١]

ولم تعد المسألة المصرية فى مقدمة مشاكل السياسة الرومانية الحزبية ، وإنما قل الحديث عنها ، وأصبح الرومان لا يتناولونها إلا نادراً وهم يبدون أسفهم على هذا الوقت الطويل الذى أضاعوه فيها . أما المقاومة العنيفة التى واجه بها النبلاء محاولات بومبى وكراسوس ، فلم تكن لها نتيجة سوى توطيد أواصر الصداقة من جديد بين الرجلين ، وكان ذلك دعماً للرابطة بين أعضاء التحالف الثلاثى الذين وقفوا مرة أخرى صفاً واحداً ضد النبلاء .

الموقف فى الإسكندرية :

وكيف كانت الأمور تجرى بالإسكندرية فى خلال هذه الفترة الطويلة ؟ ليس من شك فى أن الإسكندريين كانوا لا يرغبون فى عودة الزمار إليهم ، وليس من شك أيضاً فى أنهم كانوا ينظرون بعين الرضا إلى هذا التطاحن الحزبى الذى شغل ساسة روما وحال دون اتخاذ أية خطوة عملية لإعادة الزمار إلى عرشه . على أنهم لم يكتفوا بهذا الموقف السلبى من ناحيتهم ، وإنما بذلوا جهوداً إيجابية أخرى ، فماذا فعلوا ؟ كانت لديهم ملكة ، هى برنيكى الرابعة ابنة ملكهم السابق ، لكن التقاليد الموروثة كانت تحتم وجود زوج لها يعتلى العرش معها ، وكان ينبغى — طبقاً لهذه التقاليد — أن تتزوج برنيكى من أحد أخويها ، لكن أكبرهما لم يكن يتعدى الثالثة من عمره فى سنة ٥٨ ق .م. ، فهو إذاً غير صالح . ومن ثم فقد فكر الإسكندريون فى البحث بين أمراء البيت السلوكى عمن يصلح زوجاً لملكتهم ، وهو البيت الذى ارتبط مع البطالمة برباط المصاهرة منذ أيام بطلميوس الخامس (ابيفانس) . وقد هداهم التفكير إلى أحد ابنى كليوبتره سيلينى اللذين أوفدتهما أمهما إلى روما فى عام ٧٥ ق.م. ، وأرسلوا

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 16.

له ثلاثة سفراء لعرض الأمر عليه بصورة رسمية، ولكنه توفى قبل إتمام المفاوضات.[١] عندئذ اتجهت أنظارهم نحو أمير سليوكى آخر، هو فيليب حفيد انطيوخوس جريبوس. وقبل فيليب العرض مسروراً، لكنه لم يستطع التنفيذ أمام تدخل جابينيوس فى الأمر. وكان جابينيوس يشغل منصب البروقنصل فى سوريا (٥٧ — ٥٥ ق.م.). وأغلب الظن أنه كان يتصرف بوحى من بومبى عندما طلب إلى فيليب ألا يغادر سوريا، ولما كان الأمير السليوكى فقيراً لا يملك من الأموال ما يستطيع به إقناع جابينيوس بعدم الوقوف فى وجهه، فقد نفض يده من المسألة آسفاً[٢].

وكان تدخل جابينيوس على هذا النحو نذيراً لشعب الإسكندرية بأن بومبى يعمل من وراء الستار لتحقيق مآربه فى مصر، فزاد هذا من إصرارهم على البحث عن زوج لملكتهم يملأ المكان الشاغر، ويضع الزمار والمدافعين عنه أمام الأمر الواقع. ولما عز عليهم العثور على هذا الزوج بين أفراد البيت السليوكى الشرعيين، فقد بحثوا عنه بين المدعين، وما أكثرهم، ووجدوه آخر الأمر فى شخص يدعى سليوكوس، قيل إنه من سلالة ملوك سوريا[٣]. وأمكن إحضار سليوكوس هذا إلى الإسكندرية حيث تزوج من برنيكى الرابعة واشترك معها فى الملك[٤]. لكن هذا الملك كان فظاً غليظ القلب خس الطباع حتى أسماه الإسكندريون لأول وهلة «السماك»[٥]. وكان طبيعياً ألا تحتمله الملكة برنيكى طويلا، فعملت على التخلص منه بقتله خنقاً. وسرعان ما بحث الإسكندريون عن زوج وشريك لملكتهم، واهتدوا أخيراً إلى «أرخيلاوس» الذى ادعى أن الدم الملكى يجرى فى عروقه، وأنه ابن ميثريداتيس إيوباتور.

---

(١) B. - Leclercq, op. cit., II, p. 160.

(٢) Prophyr., FHG., p. 716.

(٣) يرى بعض المؤرخين أن سليوكوس هذا كان أخاً لأنطيوخوس الثامن.
(Cf. B. - Leclercq, op. cit., II, p. 161, No. 1)

(٤) Strab., XVII, p. 796; Dio Cass., XXXIX, 57.

(٥) ويحدثنا سويتونيوس بأن هذا اللقب نفسه أطلق فيما بعد على فاسباسيان.
(Cf. Suet., Vesp., 19)

والواقع كما يقول « سترابو » إنه كان ابن « أرخيلاوس » أحد الذين اشتهروا بمعارضة « صلا » [١]. وقد وصل هذا الشاب إلى الإسكندرية فى شتاء عام ٥٦ — ٥٥ ق. م. واعتلى عرش مصر مع برنيكى الرابعة بعد أن تم زواجه منها .

تدخل جابينيوس فى المسألة المصرية :

عندئذ كان الوقت قد حان لتدخل جابينيوس فى المشكلة المصرية . وإذا كان هـــذا الحاكم الرومانى قد منع فيليب من الذهاب إلى الإسكندرية لارتقاء عرش مصر مع برنيكى الرابعة بناء على تعليمات صدرت إليه من بومبى كما يرجح ، فإنه كان يفكر فى الأمر بما يتفق ومصلحته الخاصة . وليس ثمة شك فى أن جابينيوس قد اتصل بالزمار بطريقة ما ، وأن هذا الأخير طلب إليه أن يعينه على تحقيق أمنيته فى العودة إلى عرشه بعد أن فشل بومبى فى تحقيقها برغم الجهود الضخمة التى بذلها فى روما . واستطاع الزمار أن يغرى جابينيوس بالأموال ، فوعده بمبلغ باهظ [٢].

ولا ريب أن موافقة جابينيوس على غزو مصر استجابة لرغبة الزمار كانت تعنى إقدامه على عملية غير مشروعة ، فهو كحاكم لإحدى الولايات الرومانية لا يجوز له مغادرة ولايته دون إذن من السناتو ؛ ثم إنه سوف يشن حرباً ضد مصر برغم صدور قرار من السناتو بعدم استخدام القوة فى إرجاع الزمار إلى عرشه . لكن المخاطرة كانت هينة بالنسبة لما ينتظره جابينيوس من ورائها . هذا إلى أن بومبى وكراسوس كانا قد ظفرا بالقنصلية عندئذ (عام ٥٥ ق . م.) ، وأصبح بومبى بعد تجديد التحالف الثلاثى أقوى شخصية فى روما على الإطلاق . وإذاً فإن جابينيوس يستطيع أن يعتمد عليه كصديق ، وأن يتوقع حمايته له إذا ما ارتفعت أصوات المعارضة ضده فى عاصمة الجمهورية . ولم يكن عسيراً

---

(١) Strab., loc. cit.

وكان بومبى قد عين هذا الشاب كاهنا بمعبد « كومانا » فى بونتس ، ولكنه انتقل إلى سوريا واتصل بأنطونيوس (أحد رجال الحكومة الثلاثية الثانية فيما بعد) الذى كان يعمل عندئذ بسلاح الفرسان فى جيش جابينيوس (Cf. Plut., Anton., 3.)

(٢) Cic., Pro Rabir., 8 & 11; Plut., Anton. 3.

على حاكم سوريا أن يجد سبباً مباشراً لحملته العسكرية على مصر ، فادعى أنه يخشى قيام ملك مصر « أرخيلاوس » بحملة على سوريا[١] ، وأنه أمام هذا الاحتمال لا يستطيع إلا أن يسرع فيسبق عدوه ويغزو مصر ، وذلك هو المنطق السليم !

وتقدم جابينيوس نحو مصر فى ربيع عام ٥٥ ق.م. ، وفى ركابه بطلميوس الزمار ، وكان يقود فرسانه الشاب القدير ماركس أنطونيوس ، ووصلت الحملة بلوزيوم ، فوجدت بها حامية يهودية لم تبد أية مقاومة ، وإنما فتحت أبواب البلاد للغزاة[٢] . ومن بلوزيوم تقدمت القوات الرومانية نحو الإسكندرية ، وحاول « أرخيلاوس » المقاومة ، لكنه هزم وخر صريعاً فى ميدان القتال .

الزمار فى الإسكندرية :

هكذا استرد الزمار عرشه الذى غاب عنه عدة أعوام ، وأحس شعب الإسكندرية أن ساعة انتقام الملك العائد قد حانت ؛ ولكن ظمأ الزمار للمال كان أقوى وأشد من ظمئه للدماء . فهو قد استرد عرشه على أسنة رماح قوات أجنبية ، وهو قد استدان أموالا طائلة إبان إقامته فى روما ، وهو قد وعد دائنيه بالسداد عندما يعود إلى الإسكندرية ، ولقد عاد . . .

وبدأ بطلميوس العدل ، فتخلص أولا من ابنته برنيكى الرابعة التى سمحت لنفسها بارتقاء العرش استجابة لرغبة الإسكندريين ، فقتلها . ولم ينج من نفس المصير كل أعوانها ومؤيديها ، ثم أخذ فى تشريد الأثرياء ومصادرة أموالهم دون شفقة أو رحمة[٣] .

صدى عودة الزمار فى روما :

وما كاد جابينيوس يستقر فى مصر حتى سمع بالإضطرابات التى شملت

ويقال إن المبلغ الذى عرضه بطلميوس الزمار على جابينيوس نظير قيامه بغزو مصر وإعادته إلى عرشه ، كان عشرة آلاف تالنتا .

(١) Cic., op. cit. 8.

(٢) Joseph., Ant. J., XIV, 6, 2.

(٣) Dio Cass., XXXIX, 58.

ويبدو أن الملك أشرك معه فى الملك ابنه الأكبر (Cf. B. - Leclercq, II, p. 164, No. 1) .

ولايته أثناء غيابه عنها ، فأسرع بالعودة إليها تاركاً فى مصر قوة من جيشه لحماية الزمار[١] . ويبدو أن أنباء غزوة جابينيوس لمصر لم تكن قد وصلت إلى روما بصفة مؤكدة كما نفهم من كتاب أرسله شيشرون إلى أتيكوس يحدثه فيه عن الشائعات المتواترة بهذا الصدد ، ويطلب إليه مزيداً من المعلومات[٢] . على أن الأخبار سرعان ما تأكدت ، وبدأت حملة المحافظين على جابينيوس الذى ترك ولايته دون إذن من السناتو ، وعرّض سكانها لبطش عصابات اللصوص وقطاع الطرق . وحاول بومبى وكراسوس القضاء على هذه الحملة دون جدوى . ولم ينس شيشرون لجابينيوس أنه كان أحد قنصلى عام ٥٨ ق.م. ، وأنه هو الذى عمل على نفيه خارج روما كما ذكرنا[٣] ، فبدأ يعبىء كل فصاحته لمهاجمة جابينيوس ، وطالب بإعادته إلى روما لمحاكمته ، معدداً المتاعب والمصائب التى تسبب فيها ، ومتهماً إياه بالسرقة والرشوة والخيانة والقتل[٤] . ولكن العجيب حقاً أن شيشرون لم يذكر كلمة واحدة عن غزوة مصر ، وتلك أقوى حجة يستطيع أن يهاجم بها جابينيوس ! ! إن شيشرون لم يكن قد نسى بعد أن بومبى هو الذى أعاده من منفاه ، وهو الذى يريد الآن حماية جابينيوس . لقد كان كل شىء ممكناً فى حلبة السياسة الرومانية الداخلية ، وفى ميدان الصراع الحزبى ، إلا التمسك بالمبادئ والدفاع عن الحق لوجه الحق وحده ؛ وليس أدل على ذلك من أن شيشرون نفسه وقف بعد ذلك بشهرين اثنين يهاجم جابينيوس مرة أخرى فى مجلس الشيوخ الرومانى ، فلم ينس فى هذه المرة غزوته على مصر ، ووصفه بالرجل الذى باع نفسه لملكها ، وسخر له جيش الشعب الرومانى ، غير عابئ بأوامر الآلهة الخالدة ، أو بسيادة مجالس الشيوخ ورغبات الشعب كله[٥] .

وطال الانتظار بالرومان دون أن يعود إليهم جابينيوس ، فاشتد القلق

---

(١) Dio Cass., XLII, 5.

(٢) Cic., Ad Att., IV, 10.

(٣) كان القنصل الثانى عندئذ كالبورنيوس بيزو .

(٤) Cic., Prov. Consul., 2-7.

(٥) Cic., In Pison, 21.

بكراسوس الذى كان ينتظر وصول جابينيوس ليحصل منه على نصيبه من الغنيمة كما وعده الزمار[١] . لهذا ترك كراسوس روما ، وسافر فى أواسط شهر نوفمبر من عام ٥٥ إلى سوريا يتولى حكمها بدلا من جابينيوس ، وليقتضيه هناك نصيبه الموعود من الغنيمة . . . لكن جابينيوس رفض أن يسلم ولايته للحاكم الجديد ، ووصلت هذه الأنباء إلى روما ، فوقف شيشرون فى مجلس الشيوخ وألقى خطاباً حماسياً ضد جابينيوس « الذى لطخ سمعة روما وهوى بكرامة الإمبراطورية إلى الحضيض » وطالب باستشارة كتب سيبيلى مرة أخرى[٢] . وفى هذه الأثناء فاض نهر التيبر ، فاعتبر فيضانه نذير سوء من السماء ، وأصبح لا مفر من توقيع العقاب الصارم على جابينيوس . وقد صدر الحكم عليه بالإعدام بعد أن ثبتت عليه تهمة المروق من القانون[٣] .

وما كاد نبأ هذا الحكم الصادر يبلغ سمع جابينيوس حتى عول على الذهاب إلى روما مطمئناً إلى حماية صديقه بومبى ، فوصلها فى التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ٥٤ ق.م. وفى روما أعيدت محاكمة جابينيوس ، وانتهت المحاكمة بتخفيف العقوبة الأولى (الإعدام) ، واكتفى بتوقيع غرامة باهظة عليه (عشرة آلاف تالنتا) بعد أن استطاع حماته نفى تهمة « دخول مصر بقوة عسكرية دون إذن من السناتو » . أما التهمة التى عجزوا عن تبريرها فكانت قبول الرشوة من الزمار ، والواقع أن الجهود التى بذلت للقضاء على هذه التهمة أيضاً كانت كبيرة ، فقد قدم قيصر وبومبى وملك مصر شهادات مكتوبة بأن جابينيوس لم يحصل على أية رشوة ، بل إن الزمار أوفد سفارة إلى روما لتدفع التهمة ، وبرغم ذلك كله أدين جابينيوس ، ولما لم يستطع دفع الغرامة المقررة فقد تقرر نفيه[٤] .

ولم تكن هذه هى المحاكمة الوحيدة التى شهدتها روما نتيجة للمسألة المصرية .

---

(١) Dio Cass., XXXIX, 60.

(٢) Dio Cass., XXXIX, 59-61.

(٣) Dio Cass., XXXIX, 61.

(٤) وقد وقف شيشرون موقفاً طيباً من جابينيوس حتى لا يغضب عليه بومبى

Cf. Cic., Pro Rabir., 8, 11-13.

فقد حوكم أيضاً رابيريوس بوستوموس الذى استدان منه الزمار مبالغ باهظة ، وكانت هذه المحاكمة — بما ألقى فيها من خطب دفاعية — سبيلا لوقوفنا على معلومات لا بأس بها عما كان يجرى فى الإسكندرية حينئذ .

فما أن وطأت قدما الزمار أرض مصر حتى زحفت على الإسكندرية عصابة الجشعين الذين أمدوه بالمال وهو فى روما ، وفى مقدمتهم رابيريوس أحد كبار رجال المال فى عصره . وكان الزمار قد استدان من هذا الرومانى المبالغ التى دفعها ثمناً لحصوله على لقب « حليف وصديق الرومان » من قيصر فى عام ٥٩ ق.م. وأغلب الظن أن ملك مصر لم يرد هذا الدين إذ اضطر إلى ترك بلاده فى العام التالى . ولكى يضمن رابيريوس أمواله ، لم يضن على بطلميوس بما كان يطلبه طوال إقامته فى روما . فلما استرد المدين عرشه ، لحق به الدائن ليحصل على أمواله وفوائدها ، وليدبر للزمار المبالغ التى وعد بها جابينيوس .

وتفتق ذهن ملك مصر عن حيلة بارعة يسد بها جشع رابيريوس ، ويكفى نفسه بها مئونة المتاعب ، فعينه وزيراً لماليته[1] . واعتمد رابيريوس على القوات التى تركها جابينيوس فى مصر ، فأطلق يده فى أفراد الشعب يمتص دماءهم ليحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه من أموال . وكانت النتيجة أن جأر المصريون بالشكوى وبدت فى الأفق نذر ثورة عاتية ، فما كان من الزمار إلا أن زج برابيريوس فى السجن حتى يرضى شعب الإسكندرية ويخفف من حدة غضبه . لكن الأسكندريين كانوا أفطن من أن تجوز عليهم هذه الحيلة ، فقد أدركوا ببديهتهم أن الملك إنما يريد أن يحمى وزيره الرومانى ، لهذا حاولوا اقتحام السجن الذى أودع فيه ، ولكنه لاذ بالفرار[2] ، وأغلب الظن أن الزمار نفسه هو الذى مهد له طريقه .

وما كاد رابيريوس يصل إلى روما حتى بدأت محاكمته . ولما كان قيصر قد بسط عليه حمايته ، فقد وقف شيشرون يدافع عنه إرضاء لقيصر كما دافع عن جابينيوس فى محاكمته الثانية إرضاء لبومبى . ولم يسلم من ألفاظ شيشرون القاسية

---

(١) Ibid., loc. cit., 8 & 10.

(٢) Ibid., loc. cit.

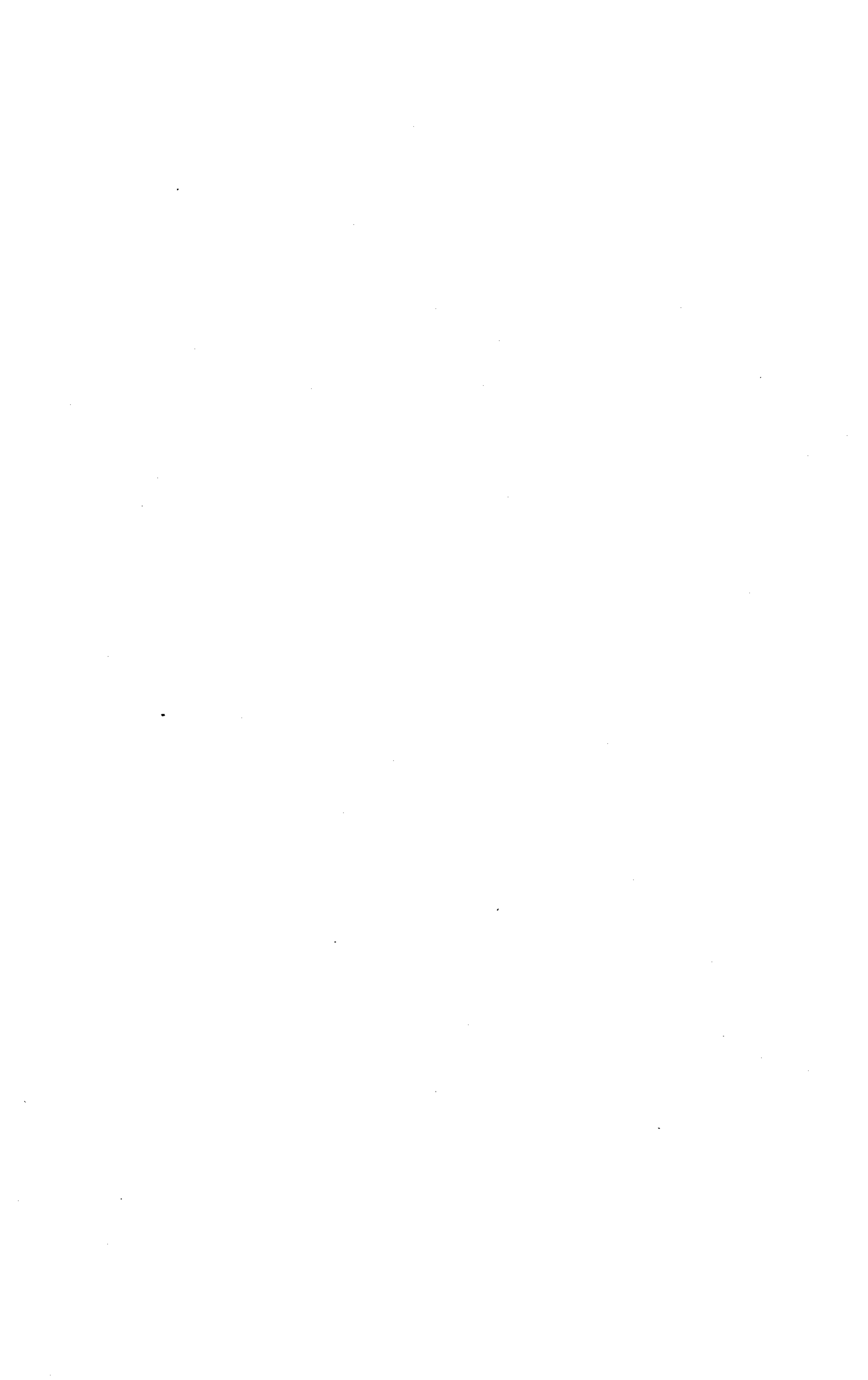
أعضاء سفارة الإسكندرية الذين أتوا إلى روما لتوجيه الاتهامات ضد رابيريوس... وانتهت محاكمة رابيريوس بتوقيع عقوبة النفى عليه فيما يرجح .

وفاة الزمار :

وبانتهاء هذه المحاكمة اختفت المسألة المصرية من حلبة الصراع الحزبى فى روما اختفاء مؤقتاً ؛ فلم يعد أحد يسمع عن بطلميوس الزمار فى عاصمة الجمهورية . ولم يعش هذا الملك طويلا بعد ذلك ، فقد جاء فى خطاب أرسله « جايليوس» من روما إلى « شيشرون » فى كيليكيا ما يلى : « لقد بلغنا أن ملك الإسكندرية توفى ، ويبدو أن النبأ صحيح ، فاكتب إلى تفصيلا بما لديك من معلومات ، وما الذى تنصحنى به ؟ وما حال هذه المملكة الآن ؟ ومن الذى يتولى الأمر فيها ؟ »[1] ومما يؤسف له أن رد شيشرون على هذا الخطاب قد فقد . لكن الذى لا نشك فيه أن رجال الإسكندرية حاولوا إخفاء نبأ وفاة ملكهم بعض الوقت حتى يرتبوا أمورهم ويضعوا روما أمام الأمر الواقع فلا تجد فرصة للتدخل فى شئونهم . وإذا كان خطاب « جايليوس » قد كتب فى أول يوم من شهر أغسطس عام ٥١ ق.م. ، فأغلب الظن أن تكون وفاة الزمار قد حدثت قبل ذلك التاريخ بحوالى شهرين على وجه التقريب . . . ولقد ذهب بطلميوس الزمار إلى قبره مشيعاً — دون ريب — بلعنات المصريين الذين ذاقوا منه الأمرين ، ولا نظن أنه ظفر من سادته الرومان بغير الاحتقار والازدراء الجديرين برجل مثله .

محمد عواد حسين

(١) Cic., Ad Fam., VIII, 4, 5.



أثر ظهور الإسلام
فى الأوضاع السياسية والاقتصاديه والاجتماعية
فى البحر الأبيض المتوسط

١

البحر الأبيض قبيل ظهور الإسلام :

عند ما ظهر الإسلام وأخذ يفسح لنفسه مكاناً فى عالم القرن السابع الميلادى ، كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة داخلة فى النطاق السياسى والحضارى للعالم الرومانى ؛ ولا يقلل من قيمة هذه الحقيقة أن ذلك العالم الرومانى كان إذ ذاك منقسما بالفعل إلى قسمين : شرقى يغلب عليه الطابع الإغريقى ، وهو المعروف بالبيزنطى ، وغربى تقاسمه الغزاة الجرمان فيما بينهم ، وأقاموا فيه دولا تحاول جهدها أن تجمع فى كيانها بين تقاليدها الجرمانية الأولى ، وما وجدته فى النواحى التى قامت فيها من عناصر الحضارة الرومانية وتنظيماتها ، ويحرص ملوكها على أن يظهروا بمظهر المواصلين لحضارة روما ونظمها وتقاليدها . فلم يفقد البحر الأبيض طابعه الرومانى على الرغم من هذا التفرق ، وإذا كانت الوحدة السياسية التى كانت تجمع أطراف هذا البحر إلى لواء واحد وتسيرها فى إتجاه واحد قد زالت ، فقد حل محلها رباط لا يقل قوة : هو المسيحية التى سادت شواطئ هذا البحر جميعاً وسيرت أهلها أجمعين فى اتجاه عقلى روحى متقارب تقارباً شديداً .

ا ــ مظاهر بقاء وحدة حوض البحر الأبيض بعد الغزوات الجرمانية :

ولقد كان من مفارقات التاريخ أن المسيحية التى عاداها العالم الرومانى وتجرد للقضاء عليها زمناً طويلا ، كانت من أسباب تثبيت معالم الحضارة

الرومانية فيما انتشرت فيه من البلاد ، لأن رجال الكنيسة فى الشرق والغرب نشطوا — بعد صدور مرسوم ميلان فى فبراير ٣١٣ — فى تنظيم دولة الكنيسة متخذين النظام الإدارى الرومانى القديم أساساً للتنظيم الكنسى ، فأقاموا الكنائس الجامعة — الكاتدرائيات — بين أطلال المدن الرومانية الدارسة ، وأقاموا فى كل كنيسة جامعة أسقفاً يشمل سلطانه زمام « السيڤيتاس الرومانية » القديمة Civitas Romana ، ومن هنا ظهرت مكان الخريطة الإدارية الرومانية خريطةٌ كنسية تنطبق حدودها وخطوط تقسيمها على الخريطة الرومانية الإدارية القديمة ، وورثت الأسقفيات الناشئة الأهمية السياسية التى كانت للمدن الرومانية أو الهيلينية التى قامت فيها . ومن هنا أصبحت المدائن الرئيسية فى العالم الرومانى الذاهب مراكزَ أساسيةً فى العالم المسيحى الناشىء واحتفظت روما والقسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية وتريف وميلان وغيرها فى ذلك العالم الرومانى المتنصر بأهمية دينية روحية تعدل ما كان لها من أهمية إقتصادية وإدارية فى العالم الرومانى الوثنى الذاهب ، واحتفظت المدن الرومانية الثانوية بأهميتها النسبية فى العالم الجديد كذلك .

واجتهدت الكنائس فى نشر المسيحية ومد حدودها فى نواح لم تكن الحضارة الرومانية قد وصلتها ، وأنشأت فيها الأسقفيات على النظام الكنسى الرومانى ، وقام فيها الأساقفة والقسوس يقرأون الكتاب المقدس والكتب الدينية اللغة اللاتينية ، ويعلمون الناس هذه اللغة ؛ ونشأت الأديرة وغنيت بالرهبان والديارين ممن يقرأ اللاتينية ويكتبها ويعلمها فى نواح لم تدخل فى نطاق الحضارة اللاتينية أيام أوج الدولة الرومانية نفسها . . . أى أن نطاق الحضارة الرومانية زاد فى العمق والعرض وزاد الطابع الرومانى غلبة على حوض البحر الأبيض من جميع نواحيه .

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على الدولة الرومانية الشرقية التى عُرفت بالبزنطية حقيقة أن اللغة اللاتينية لم تكن تُستعمل هناك إلا فى شؤون الدولة ، وأن اليونانية غَلبت هناك كلغة للتخاطب والثقافة والكنائس ورجال الدين ، ولكن الدولة كانت تعتبر نفسها رومانية ، بل « الدولة الرومانية » الجديرة بهذا الاسم ، ولم يتنازل أباطرتها — إلى أيام شارلمان — عن حقهم فى سيادة الدولة الرومانية

كلها بحدودها القديمة .

ولم تكن الكنيسة هى العامل الوحيد على بقاء هذه الوحدة بين بلاد البحر الأبيض ، بل إن عناصر الحضارة والتنظيم الرومانية كانت من القوة والثبات بحيث لم تُغير الغزوات الجرمانية وتغير الأوضاع السياسية منها إلا قليلا ، فقد ظلت الأراضى تزرع وتستثمر على الأسس التى جرى بها العمل على أيام الرومان : ظل الزراع الأصليون فى أماكنهم يزرعون أرضهم كما كانوا يفعلون قبلا ، وإن كانوا قد أصبحوا يؤدون الضريبة إلى سيد جرمانى ، وظلت « الضياع » Villae الواسعة على حالها كما كانت أيامَ الرومان دون تغير فى الوضع أو النظام ، بل ظل مالكوها القدماء على حيازتها يعهدون فى استثمارها إلى ملتزمين conductores يؤدون إليهم أموالها ثم يجمعونها من الزراع ، وفى ذلك يقول هنرى بيرين : « . . ومن ناحية أخرى ، ظل نظام حيازة الأرض الرومانية دون تغيير حقيقى ، وإن سمى فى بعض الأحيان « إقطاع ارتفاق precarium » وفى بعضها الآخر « إقطاعاً فى مقابل خدمة beneficium » . وصور حيازة الأرض التى تصادفنا إذ ذاك تدلنا بوضوح على بقاء النظم القديمة ، فهى فى مجموعها تكوّن نظاماً عاماً لحيازة الأرض لا يختلف فى شىء عن النظام الرومانى . وظل نظام الملكيات العقارية الواسعة كاملا ، وقد أخذ الجرمان بهذا النظام ، حتى ليحدثنا جريجوريوس التورى Grégoire de Tours عن رجل (جرمانى) يسمى Chrodinus ، — ينشىء ضياعاً villae ويغرس كروماً ويبتنى دوراً وينظم زراعات ليقدمها إلى الأساقفة »[١] . . .

وخلاصة هذا الكلام : أن الإسلام عند ما بدأ يتوسع ويمتد خارج الجزيرة العربية ، وعند ما وصلت طلائع جيوشه إلى حدود الدولة البيزنطية جنوبى الشام ، وجدت نفسها أمام عالم رومانى لاتينى زادته المسيحية سعة وعمقاً وإيغالا فى الطابع اللاتينى وحضارته .

غلب الطابع اللاتينى — إذن — على البلاد المحيطة بالبحر الأبيض جميعاً والجزر الواقعة فى حوضيه الشرقى والغربى ، وساد الموانى الواقعة عليه طابع واحد

(١) Henri Pirenne : Mahomet et Charlemagne (2e. éd. Paris - Bruxelles, 1937), pp. 58-61.

متشابه، نجده فى القسطنطينية وسالونيك وإيفيسوس وأنطاكية وصور والإسكندرية وراڤنا وبيزا وجنوا ومرسيليا وَطرَكونة وسبتة وبونة وقرطاجنة وسرقوسة وغيرها، حتى كان المسافر يتنقل بين موانى هذا البحر — فى الشرق والغرب، أو فى الشمال والجنوب — دون أن يشعر بتغرب أو إبتعاد عن الجو العام الذى عاش فيه وألفه. واستمر نشاط التجارة بين ثغور ذلك البحر، على رغم سيطرة الجرمان على الكثير من شواطئه وانتشار القراصنة فى الكثير من أحواضه.

وهذا الإحساس بالطابع اللاتينى عند رجال الكنيسة هو الذى حرك فى نفوسهم الطموحَ إلى السلطان، على اعتبار أنهم الوارثون الروحيون للعالم الرومانى الذى انتقل إلى رحاب المسيحية، وهو الذى حفز البابوات والكرادلة واحداً بعد واحد إلى الاجتهاد فى بناء دولة الكنيسة ومد أطرافها وتأثيل سلطانها حتى تحل محل الدولة الرومانية الذاهبة، وحتى يصبح البابا رأسها السيد الفعلى للعالم كله، ومن ثم بدأ البابوات والأساقفة وشتى رجال الكنيسة يتعاطون السياسة ويسهمون فى شؤونها(١)، وهدفهم الأخير تجديد الوحدة الرومانية تحت طيلسان البابوية.

ب— الناحية الاقتصادية :

ولم تكن الدولة الرومانية ذات عناية خاصة بالبحرية التجارية : لم تكن روما ميناء، فكانت السفن التى تقصدها ترسو فى ميناء صغير قبالتها على البحر هو «أوستيا»، ولم يكن اللاتين أهل بحار، ولم تكن الأجزاء الغربية تنتج محصولات أو مصنوعات تصدر إلى الخارج فى كميات تستدعى العناية والتنظيم، بل كانت إيطاليا الرومانية تعتمد على ما يرد إليها من الخارج من المحصولات والمصنوعات اعتماداً عظيما، ومن ثم كان معظم اهتمام أهل موانيها بإعداد ما يستطيعون المبادلة عليه من الأشياء — كالأخشاب والحديد والقصدير والفراء — ليحمله التجار المقبلون من بعيد، مقابل ما يأتون به من قمح وزيت

---

(١) H. St. L.B. Moss : The birth of the Middle Ages 394-814, (Oxford, 1935), p. 33.

ونسيج وعطور وبخور وبردى ؛ وكلها منتجات شرقية أو إفريقية ، كان تجار المشارقة يحملونها إلى ثغور الغرب .

وقد قام بعبء هذه الملاحة البحرية أهل سواحل الشام ، وهم المعروفون فى نصوص ذلك العصر بالسوريين Syrie ، فقد كانوا على طول الأعصر الرومانية ، وحتى منتصف القرن السابع الميلادى ، حملة النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانى هذا البحر وفى الكثير من البلاد الهامة فى الداخل ، وقامت هذه الجاليات حتى فى ثغور بريطانيا وغالة وإسبانيا ، بل فى الثغور النهرية على الدانوب . وكانت هذه الجاليات السورية كثيرة العدد عظيمة الثروة ، فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة (نربون) مثلا كانوا يتكونون من الرومان واليهود والإغريق والسوريين [١] ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غالة وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصور ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم « المشارقة » إلى جانب اليهود والإغريق ، وبين أيدينا نص يرجع تاريخه إلى حوالى ٥٧٠ ميلادية ، يذكر وفود عدد عظيم من تجار الإغريق والمشارقة على ماردة Emerita فى البرتغال الحالية [٢] .

وشارك السوريين فى القيام بعبء التجارة البحرية الإغريق واليهود ، فأما الأولون فنجدهم دائماً مذكورين إلى جوار السوريين ، أى أن جالياتهم الكبيرة كانت فى الثغور البحرية لغرب البحر الأبيض ، وأما اليهود فقد توغلوا فى الأرض وكثرت أعدادهم فى مدن الداخل أيضاً ، وكان لهم مركز كبير رئيسى فى مرسيليا ، ومنه كانوا ينتشرون فى حوض الرون وبلاد وسط غالة وشمالها مثل باريس

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 63.

(٢) H. Pirenne, op. cit. pp. 62-63.

P. Charlesworth : Trade-routes and Commerce of the Roman Empire, (Cambridge, 2d. ed., 1926).

P. Scheffer - Boichorst : Zur Geschichte der Syrer im Abendlande ds. Mitteilungen des Oesterreichischen Institut fur Geschichtforschung. Band VI, 1885, S. 521 ff.

L. Brehier : Les colonies d'Orientaux en Occident au commencement du Moyen - Age dans Byzant. Zeitschr. t. XII, 1933, pp. 1399.

وأورليان وكليرمون وتوروبورج وآرل . وقام اليهود بمهمة أخرى فى هذا الميدان : هى المتاجرة بين بلاد الداخل والانتقال بالمتاجر من مكان لمكان ، فكانوا — لهذا يوجدون فى كل المدن والمواضع الواقعة على الطرق البرية ، وكانت لهم لهذا السبب علاقات موصولة مع أهل البلاد ، وخاصة الملوك والأشراف والنبلاء ، وكانوا يحاولون الإقامة فى البلاد والاختلاط بأهلها ويجتهدون فى حصر أمور المال بين أيديهم ، وكان الناس ينفرون منهم ومن أساليبهم ، وكانت الكنيسة تجتهد فى تحويلهم إلى المسيحية ، وقد تحول إليها الكثيرون منهم بالفعل [١] ، ولكن بقيت منهم دائماً جماعات ظلت محتفظة بعقيدتها وطابعها ، مسيطرة على شؤون التجارة والمال فى عالم كان الطابع الزراعى يغلب عليه شيئاً فشيئاً .

وإلى جانب السوريين واليهود والإغريق ، يذكر « پيرين » أنه كانت هناك من غير شك جماعات من الأفارقة (يريد المغاربة) يعملون فى نقل البضائع من إفريقية إلى ثغور غالة ، تسميهم المراجع « تجار من وراء البحر transmarini Negociatores » ورد ذكرهم عند كاسيود وروس وفى قانون القوط الغربيين Liber Judiciorum Wisigoticorum ؛ وكانت قرطاجنة مدينة كبيرة ومرحلة يريح فيها التجار القاصدون إلى المشرق . ومن المحتمل أن تكون الجمال التى كانت تستعمل كدواب حمل فى غالة إذ ذاك قد أتت منها [٢] .

وبفضل هذه الأجناس الأربعة المتاجرة : السوريين واليهود والإغريق والمغاربة ، ظل النشاط التجارى قائماً فى البحر الأبيض إلى نهاية القرن السابع الميلادى . كانت الحركة التجارية مستمرة بين ثغور البحر الأبيض فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكانت البضائع التى تحمل إلى موانى هذا البحر شرقية ؛ وقد أورد « هنرى پيرين » قائمة بأصناف من البضائع نص عليها مرسوم ملكى أصدره شيلبيريك Chilpéric الثانى من ملوك الميروفنچيين إلى كنيسة كوربى Corbie فى ٢٩ أبريل ٧١٦ يعفيها من دفع الرسوم المقررة عليها ،

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 16.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 68.

وهذه الأصناف هى :

١٠٠٠٠ » » رطل من الزيت

٣٠ » » الجاروم (صنف من الطعام)

٣٠ » » الفلفل

١٥٠ » » الكمون

٢ » » القرنفل

١ » » القرفة

٢ » » nard

٣٠ » » الكوستوم ، نبات عطرى

٥٠ » » البلح

١٠٠ » » التين

١٠٠ » » اللوز

٣٠ » » الفستق

١٠٠ » » الزيتون

٣٠ » » الهيدريو ، نوع من العطور

١٥٠ » » الحمص الشامى

٢٠ » » الأرز

١٠ » » الفلفل الأحمر

١٠ » » معالجة بالزيت

٥٠ ذراعا من البردى [١]

والغالبية العظمى من هذه الأصناف واردة من الشرق أو إفريقية ، مما يعطينا فكرة واضحة بعض الشيء عن أصناف المتاجر التى كانت السفن تنتقل بها بين موانى البحر الأبيض وبلاد الدولة الرومانية فى غرب أوربا .

والنصوص كلها تنطق بأن نشاط هذه التجارة كان عظيما ، وأنها كانت

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 71-72.

وراجع تعليقات بيرين على هذه الأصناف ومغزاها ، ص ٧٠ — ٧١ من كتابه الآنف الذكر .

تصل حتى مدائن حوض الرين الأدنى وبلچيكا وحوض الموزيل ، وأن سفن المشارقة كانت تحملها إلى موانى البحر الأبيض ، حيث تقوم الجاليات الشرقية بحملها والانتقال بها من مكان لمكان . ولدينا ما يدل على أن أرباح التجار منها كانت عظيمة تغريهم باحتمال ما عسى أن يتعرضوا له من المخاطر فى سبيل نقلها .

وقد تبين هنرى بيرين من أبحاثه فى هذا الموضوع ، أن أهم ما كان التجار يحرصون على نقله من البضائع الشرقية كان ثلاثة أشياء : أولها التوابل ، وخاصة الفلفل ، فقد كان الناس لا يستغنون عنه فى تهيئة طعامهم ، وكان المتطببون فى تلك الأيام يستعملونه دواء أو يدخلونه فى مركباتهم الطبية ، والشىء الثانى كان ورق البردى ، وكانت مصر مصدره الوحيد ، وكان البردى فى ذلك الحين هو المستعمل للكتابة عامة ، أما الرق (البرشمان) فكان لا يستعمل إلا فى كتابات الترف ، وكانت إدارات الدول فى حاجة إلى مقادير كبيرة من البردى وكذلك كان عامة الناس ، وإذا ذكرنا أن ديراً واحداً هو دير « كوربى » الذى ذكرناه كان يستهلك فى العام خمسين ذراعاً من البردى ، تصورنا مقادير البردى التى كانت تستنفذها بلاد غربى أوروبا فى ذلك الحين . وكان البردى يستعمل فى أغراض أخرى غير الكتابة : كانوا يدخلونه فى تركيب ذبالات مصابيح الزيت ، وكانت مقاديره فى كل بلاد غربى أوروبا من الكثرة بحيث كان الناس يلتمسون ما يحتاجون إليه منه فى الدكاكين دون مشقة . أى أن البردى كان يصدر من الإسكندرية فى مقادير كبيرة وبطريقة منتظمة ، وكانت مرسيليا ميناءه الكبرى فى أوروبا ، فكان تجار هذا الثغر يودعونه مخازنهم ليحمله التجار بعد ذلك إلى إيطاليا وغالة وإسبانيا وغيرها من بلاد غربى أوروبا ، والصنف الثالث هو الزيت ، وكان الناس فى غربى أوروبا كله يطهون به طعامهم ويستعملونه للمصابيح فى البيوت والكنائس . ولم تكن مقادير الزيت فى أوروبا بكافية ، فكانت تستورد منه مقادير ضخمة من بلاد المغرب خاصة ، وكان ينقل فى دنان كبيرة على ظهور المراكب . وقد لاحظ هنرى بيرين بهذه المناسبة أن النصوص تذكر أن بعض هذا الزيت وبضائع أخرى كانت تنتقل فى بعض نواحى إسبانيا وغالة الجنوبية على ظهور الجمال ، واستنتج أن هذه الجمال هى

الأخرى كانت تستورد من المغرب .

ويوجز پيرين كلامه عن نشاط حركة التجارة البحرية بين البلاد الشرقية ونواحي غربي أوروپا بقوله : « . . من ذلك كله يتبين بصورة واضحة أنه كانت هناك حركة تجارية بحرية واسعة النشاط بين شواطىء البحر التيرانى وبين المشرق وسواحل المغرب . ويبدو أن قرطاچنة كانت همزة الوصل للتجارة مع المشرق . وكانت هناك ملاحة فرعية لنقل المتاجر بين موانى إيطاليا وپروڤانس وإسبانيا ، وكان أهل الشمال الذاهبون إلى روما يركبون السفن فى مرسيليا فتنقلهم إلى پورتو Porto على مصب التيبر . وكان الذاهبون إلى القسطنطينية يذهبون إليها بحراً ، لأن طريق البركان مهدداً بجماعات المتبربرين ، ولهذا انصرف الناس عنه . وكانت هناك سفن منتظمة بين راڤنا وبارى ، وربما كانت هناك ملاحة منتظمة بين مرسيليا وإسبانيا شبيهة بملاحة نقل البضائع ، وذلك يمكن استنتاجه من قول جريجوريوس التورى : negatio solito فى بعض كتاباته . وأظن أننا نستطيع القول إن الملاحة ظلت فى هذه النواحى على مثل ما كان من نشاطها أيام « الإمبراطورية » على أقل تقدير .

« وكانت البحار آمنة ، إذ أننا لم نعد نسمع عن القرصنة بعد أيام جايسريك الوندالى ، ومن البين الواضح أن تلك التجارة التى انصرف الناس إلى العناية بأمرها كانت تجارة جملة ، ومن المستحيل أن نشك فى ذلك إذا ذكرنا نوع تلك البضائع المستوردة وانتظامها والمكاسب الوافرة التى كان التجار يجمعونها منها . والميناء الوحيد الذى لدينا عنه معلومات وافرة هو مرسيليا ، وينجلى من النصوص أنه كان ميناء كبيراً . ومن دلائل أهميته ما نرى من رغبة الملوك فى الاستحواز عليه فى مناسبات تقسيم المملكة (الفرنجية) . كانت بلداً عالمياً يضم أعداداً كبيرة من اليهود السوريين ، إلى من كان فيه من الإغريق والقوط دون شك ... ولا بد أن البلد كان وافر السكان ، ولا بد كذلك أنه احتفظ بمنازله الكبيرة ذات الطبقات التى تشبه تلك التى لا زالت أطلالها باقية إلى الآن فى أوستيا . . » [١] .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 72-78.

وطبيعى أننا لا نستطيع القول بأن أولئك التجار المشارقة — يهوداً وغير يهود — (المقيمين فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى) قد اقتصر عملهم على الاستيراد دون التصدير ، إذ من الواضح أن سفنهم كانت تحمل بضائع أخرى لدى عودتها ، وأهم ما كانت تحمله الرقيق ، ومن المعروف أى رقيق الخدمة فى البيوت والمزارع كانوا كثيرين جداً بعد القرن الخامس ، ويغلب على ظنى أن الغزوات الجرمانية زادت تجارة الرقيق نشاطاً وتجارها غنما ، فقد عرف الجرمان الرق كما عرفه الرومان ، ولا بد أنهم أتوا معهم بأعداد كثيرة من الرقيق ، وأعانت الحروب مع المتبربرين فيما وراء الرين ومع اللومبارد على اتساع مدى الرق ؛ وإذا كانت الكنيسة قد رفعت من منزلة الرقيق بالسماح لهم بحضور القداس ، واعترفت لهم بالحق فى الزواج ، أو بعبارة أدق : بإلزامهم به ، فإنها — من حيث المبدأ لم تستنكر ولم تعترض على مبدأ الاسترقاق . ولهذا كان الرقيق يوجدون فى كل مكان ، لا فى الضياع الكبيرة وحدها بل لدى جميع الأفراد الميسورين . نعم إن الناس كانوا يعتقون الكثيرين منهم ، ولكن بقيت أعداد وفيرة دائماً ، وكانت هذه الأعداد تزيد بواردات جديدة منهم » [١] .

وقد أورد بيرين تفاصيل كثيرة عن تجارة الرقيق هذه ، وأثبت أن تجار المسيحيين الغربيين كانوا يقومون بغارات على بلاد الروس والوند ليحصلوا على الرقيق والفراء ويتاجرون فيه دون حرج ، لأن الكنيسة لم تكن تحرم بيع الرقيق لتجار من خارج العالم المسيحى إلا إذا كان الرقيق مسيحياً . وأثبت كذلك أن جريجورى الكبير اشترى سنة ٥٩٥ عدداً من الرقيق الإنجليز من مرسيليا وبعث بهم إلى روما لينصرهم فيها ، وأتى بنصوص أخرى من كتابات جريجوريوس التورى وفريجيداريوس ، ومن ذلك أن بيليشيلديس Bilichildis التى تزوجها الملك تيودبرت — كانت أول الأمر جارية اشترتها برونهاوت بسبب جمالها الظاهر ، أى أن ملوك العالم النصرانى كانوا إذ ذاك يفعلون ما كان ملوك المسلمين يفعلونه . وأثبت كذلك أنه كانت فى بلاد المسيحية أسواق يباع فيها الرقيق ،

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 79.

وأن أكبر هذه الأسواق كان فى أربونة Narbona ونابلى ، وأن معظم المشتغلين بهذه التجارة كانوا من اليهود ؛ وهو هنا يلتقى بالمؤرخ المعروف راينهارت دوزى فيما ذهب إليه من أن أكبر موردى الرقيق لمسلمى إسبانيا كانوا من اليهود ، وأنه كانت لهم فى أربونة هذه مواضع يقومون فيها بخصاء أعداد من هؤلاء المساكين لبيعهم للمسلمين خصياناً بعد ذلك [١] .

وبعد الاستشهاد بأمثلة كثيرة ، خرج بيرين بأن التجارة كانت على نشاط وافر فى غربى أوروبا حتى نهاية العصر الميروفنجى ، وأن التجار كانوا يعتمدون فى هذا النشاط على ما يرد إليهم من بضائع المشرق والشمال الإفريقى إلى جانب ما كانوا يتجرون فيه من محصولات بلادهم ومنتجاتهم كالنبيذ والغراء ، وأن التجار كانوا كثيرين استطاع بعضهم أن يجمع ثروات عريضة ، بل كان بعضهم يقرض الملوك المال فى بعض الأحيان[٢] ، وأنهم كانوا تجاراً أحراراً أى لا تقيدهم نظم نقابات أو أثقال من الدولة ، وأنهم كانوا يوجدون فى كل البلاد الهامة فى إيطاليا وغالة وبلاد الرين ، وأنهم كانوا يسكنون داخل المدن وفى قصباتها oppidum livitatis بالذات ، ويتخذون الدكاكين الصغيرة والكبيرة فى شوارع طويلة ذات بواك فى كثير من الأحيان ، كما فى مدينتى Meaux فى شمالى غالة وفى باريس [٣] .

ومن الطبيعى أن التجارة فى غربى أوروبا لا تنشط هذا النشاط دون عملة معدنية يعرفها التجار ويتبادلون البضائع على أساسها ، وقد كانت هذه العملة

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 79-81.

ويفهم من بعض النصوص التى أوردها نقلا أن الرقيق الذين وجدوا فى غربى أوروبا فى ذلك الحين لم يكونوا من الصقالبة والوند فقط ، بل كان فيهم غاليون وبريطانيون وسكسون ومغاربة . انظر ص ٨١ وهوامشها والمراجع المذكورة فيها . وكان الرقيق يذكرون عادة فى النصوص تحت بند البهائم de bestus تارة والأشياء تارة أخرى ، فيقال مثلا فى بعض اللوائح الجمركية

Si servus vel ancilla vel auri uncia vendantur

انظر هامش ٧ من ص ٨٠ من كتاب بيرين المذكور .

(٢) انظر النص اللاتينى الذى يورده بيرين فى ص ٨٢ من كتابه المشار إليه .

(٣) بيرين ، ص ٨٥ . وانظر النصوص التى ينقلها عن جريجوريوس التورى على هذه الصفحة وهوامشها .

على أيام الغزوات الجرمانية هى الصولدى الرومانى Solidus كما حدد وزنه وثبته قسطنطين الكبير ، وقد ظل هذا الصولدى أساس التعامل حتى منتصف القرن السابع الميلادى دون أن يغير ملوك الجرمان من وزنه أو قيمته أو رسمه شيئاً ، بل مضى هؤلاء الملوك يسكونه بنفس الطرة التى وجدوها عليه عند ما أقاموا دولهم ، ولم تتغير هذه الطرة إلا على أيام الملك الميروفنجى كلوتير الثانى (٥٨٤ ٥٢٩ أو ٥٣٠) ، ولم يكن التغيير إلا جزئياً فاستبدلت عبارة Victoria Augustorum بعبارة Victoria Chlotarii .

ولقد كانت عملة الدولة الرومانية من معدن واحد ، هو الذهب ، فلم تسك فيها عملة الفضة أو البرونز ، وقد حافظ ملوك الجرمان على هذه القاعدة ، فلم يسكوا عملة الفضة إلا فى بعض الممالك الأنجلوسكسونية فى الجزر البريطانية ، فقد سك ملوك مرسيا مثلا عملة فضية ، أما عند الفرنجة والقرط الغربيين والقوط الشرقيين والوندال فلم يكن هناك إلا ذلك الصلدى الرومانى بوزنه المعروف . بيد أن بعض الميروفنجيين أنقص وزنه من ٢٤ جراماً إلى ٢١ ، وذلك هو الصلدى الغالى Solidi Gallicani ؛ وقد كان هذا الصلدى يسك تحت إشراف الدولة ، ولهذا كان عياره يوصف بأنه « عيار الخزانة » ratio fisci أو عيار الحاكم[١] ratio domini . وقد سك الأساقفة الصولدى تحت إشرافهم ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بإذن من الملوك أو بدون إذن ، ولكن الثابت أن وزنه كان صحيحاً[٢] .

وهذه الحقيقة تدل على أمرين : أولهما أن الوحدة الاقتصادية لحوض البحر الأبيض ظلت قائمة بعد غزوات المتبربرين كما كانت عليه قبل دخولهم ، « وحتى حلول الكارثة التى ألمت بغربى أوروبا من أول العصر الكارولنچى ، ظل الجزء الشرقى — أى الإغريقى — من الدولة والجزء الغربى — الذى أغار عليه الجرمان — يتعاملان بالعملة الواحدة التى كانت أساس التعامل على أيام الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر إيجه . بل إن ملوك المتبربرين أدخلوا على

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ — ٩٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون ، فقد أدخل هؤلاء الأخيرون مثلا رسم الصليب على الصولدى ابتداء من القرن السادس ، فحذت دار السكة فى مرسيليا حذوهم فى ذلك ، وتبعها فى ذلك دور السكة فى شتى نواحى غربى أوروبا » (١) .

أى أن وحدة البحر الأبيض ظلت قائمة فى الناحية الاقتصادية كما ظلت فى النواحى الأخرى التى بيناها .

وقد لخص هنرى پيرين هذا الكلام كله — عن بناء وحدة البحر الأبيض حتى دخول الإسلام — فى كتاب آخر من كتبه بقوله : « ومن الزاوية التى يتعين علينا النظر منها هنا ، يبدو لنا لأول وهلة أن ممالك المتبربرين التى قامت فى أوروپا فى القرن الخامس قد احتفظت بذلك الطابع البحرى المتوسطى الذى يعتبر أوضح وأهم أسس الحضارة القديمة . فإن ذلك البحر الأبيض ، ذلك البحر الداخلى الذى ولدت على ضفافه حضارات العالم القديم جميعاً ، واتصلت بعضها ببعض عن طريقه ، والذى كان الوسيلة التى انتقلت عن طريقها الأفكار والمتاجر فيما بين أرجائه ، والذى كانت الإمبراطورية الرومانية قد ضمت أطرافه جميعاً ، والذى اتجه نحوه نشاط ولاياتها جميعاً من بريطانيا إلى الفرات ، لم يتوقف بعد الغزوات الجرمانية عن القيام بدوره التقليدى ، وظل — عند المتبربرين الذين استقروا فى إيطاليا وإفريقية وإسبانيا وغالة — طريق الاتصال الرئيسى مع الإمبراطورية البيزنطية . وسمحت العلاقات التى ظلت قائمة بينهم وبين هذه الإمبراطورية باستمرار الحياة الاقتصادية التى لم تكن إلا استمراراً مباشراً لما كان الحال عليه فى العصور القديمة . ويكفى أن نذكر هنا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائماً فيما بين القرنين الخامس والثامن بين ثغور حوض البحر الأبيض الغربى وثغور مصر وآسيا الصغرى ، واحتفاظ ملوك الجرمان بالصولدى الرومانى وهو يعتبر أداة الوحدة الاقتصادية لهذا البحر ورمزها القائم ، ويكفى كذلك أن نذكر اتجاه التجارة العام نحو شواطىء هذا البحر الذى ظل الناس يتحدثون عنه

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

بقولهم : « بحرنا Mare nostrum » وحقهم فى ذلك القول لا يقل عن حق الرومان فيه »(١).

جـ — الناحية الثقافية للبحر الأبيض قبل الإسلام :

وهذا الكلام يصدق عن الثقافة التى سادت شواطئ هذا البحر بعد استقرار الجرمان فى مواطنهم فى وسط أوروبا وغربيها واقتصار الدولة البيزنطية على الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية القديمة . هنا أيضاً نجد أنفسنا فى جو فكرى لاتينى متجانس ؛ إنه ليس الجو السامق الذى عرفه الفكر اللاتينى على أيام شيسيرون وأوفيد وفرجيل ، ولكنه حطام ذلك الفكر بقيت بعد طوفان الانحلال السياسى والفوضى الاقتصادية واختلال الأمور الذى شمل العالم الرومانى ابتداء من القرن الثالث الميلادى .

حقيقة أنه جد على الفكر والفن عامل جديد غير اتجاهه وروحه تغييراً حاسماً وهو المسيحية ، ولكن المفكرين وأهل الفن الذين حاولوا أن ينتجوا شيئاً فى ذلك المحيط اللاتينى الجرمانى المسيحى الجديد نظروا إلى الأصول اللاتينية القديمة وحاولوا أن يصوغوا إنتاجهم فى قوالبها ، لقد تحقق فشل الفكر اللاتينى الوثنى فى القضاء على الفكر المسيحى الوليد عند ما فشلت محاولة « يليان المرتد » فى إعادة الوثنية إلى الحياة ، ولكن هزيمة الوثنية لم يكن معناها هزيمة اللاتينية ، وإنما كان معناها اضطرار اللاتينية إلى أخذ الطابع المسيحى ووضع نفسها فى خدمته ، ومن هنا أخذت اللغة اللاتينية والفكر اللاتينى يتحولان إلى لغة مسيحية وفكر مسيحى ، بالضبط كما تحولت الدولة الرومانية بعد تجارب طويلة إلى دولة رومانية مسيحية أو مقدسة . بل إننا نلاحظ أن الكثيرين من رجال الفكر الأوروبى — فيما بين القرنين الثالث والخامس — يحاولون أن يطوعوا تفكيرهم الوثنى

(١) Henri Pirenne, Gustave Cohen et Henri Focillon: Histoire du Moyen-Age, t. VIII : La Civilisation Occidentale au Moyen-Age du XIe. au Milieu du XVe. Siécle, (Histoire Générale). Paris, 1933. pp. 7-8.

وسأكتفى فى الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة Civilisation Occidentale فيما يلى من هذا البحث .

وبلاغتهم القديمة للدين الجديد ، فيوفقون أحياناً ويخطئهم التوفيق أحياناً أخرى ؛ ويكفى أن نذكر أسماء كلوديوس وسيدونيوس أبوليناريوس وفلافيوس ميروباودوس Merobaudus وغيرهم [1] .

وعند ما نتأمل قصور ملوك جرمان — من أمثال ثيودوريك وكلوفيس — نجدها محاكاة لقصور أباطرة الرومان وحواشيهم ، ونجد كتابهم ومؤدبيهم ورجال دولتهم لاتيناً أو ناسجين على المنوال اللاتينى ، لأن الجرمان لم يأتوا معهم بفكر أو فن ، فلم يكن لهم مفر من أن يتزودوا فى ذلك الميدان بما بقى من عناصر الفكر والفن اللاتينيين الذاهبين ، لا يكاد يشذ عن ذلك إلا الأنجلو سكسون ، ولفترة قصيرة من الزمن مع ذلك [2] . وأظهر مثال لهذا بلاط ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، حيث نجد رجالا ذوى فكر لاتينى خالص — من أمثال بويثيوس Boethius وكاسيودوروس Cassiodorus — يضعون للدولة الجرمانية الناشئة أصولا فى الإنشاء والتفكير مستقاة من البلاغة اللاتينية فى عصرها الفضى ، ونجد شعراء من أمثال إلبيديوس Elpidius الذى كتب مدحة للمسيح عنوانها Carmen de Christi Jesu Beneficii على غرار الشعر اللاتينى من كل ناحية . هذا وقد كانت مدارس البلاغة اللاتينية زاهرة إذ ذاك ، يتعلم فيها المسيحيون من أهل الدين وغيرهم أساليب الترسيل والإنشاء والتفكير على الأسس اللاتينية .

وهذا الكلام ينطبق على الممالك الجرمانية كلها ، يسود ميادين الفكر فيها الطابع اللاتينى ، بل إن من قصد إلى شىء من الكتابة من ملوك الجرمان مثل وامبا وسيسيبوت Sisibut وتشنداسفنت Chindaswinth وشنتيلا Chintila كتبوا باللاتينية ؛ وفى الطرف الأقصى الغربى لأوروبا نجد إيزودور الإشبيلى Isidiro de Sevilla يكتب بروح مسيحية فى لغة

---

(١) يذكر إيبرت أن هؤلاء الأدباء لم يكونوا مسيحيين إلا اسما :
Cf. : Ebert : Hist. de la litterature latine du Moyen-Age. t. 1, p. 445.

(٢) H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, p. 102.

لاتينية بليغة [١] .

فإذا انتقلنا إلى الجزء الشرقي للعالم الروماني — العالم البيزنطي أقصد — وجدنا الفكر المسيحي الوليد يطسير أيضاً في آثار الفكر الوثني القديم ، مع اختلاف في القالب لا في الطبيعة ؛ فقد كان الفكر قد ظل في ذلك القسم الشرقي وثيق الصلة بالأصول الإغريقية القديمة ، وكانت الإغريقية هي اللغة التي كتب بها كتاب الدولة البيزنطية ، إذا استثنينا الفترة الجستنيانية التي أطلعت كتاباً من أهل ذلك العالم الإغريقي يكتبون باللاتينية ، من أمثال بروكوبيوس مؤرخ عصر جستنيان . وفيما خلا ذلك نجد الفكر البيزنطي — حتى عصر هرقل — يدرج على منهاج الإغريق القدماء .

ولقد حاول نفر من أوائل الكتاب البيزنطيين خلال القرن الرابع أن يبغض إلى الناس الفكر الوثني وأساليبه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، وانتهى الأمر إلى تطويع ذلك الفكر الإغريقي للروح المسيحي الجديد كما حدث في الغرب من تطويع التقاليد الفكرية اللاتينية للروح المسيحي الجديد . وفي نفس المدارس الوثنية التي تخرج فيها أعلام الفكر الوثني قبل القرن الرابع المسيحي تعلم كتاب الكنيسة الشرقية فنون القول والمنطق والتفكير — بل اختلط الفكران الوثني والمسيحي إلى درجة جعلت الكنيسة الشرقية تنظر إلى مفكر لاهوتي مثل أوريجانس المصري نظرتها إلى وثني أو منحرف عن الطريق السليم ، وذلك لغلبة الثقافة الإغريقية الوثنية على تفكيره .

وقد بدأت المصالحة بين الفكر الوثني والروح المسيحي في أيام قسطنطين الكبير ، ومن هنا « لم تختف طلاوة الفكر الإغريقي ونفاذه ، بل فتحا لنشاطهما ميداناً جديداً ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليوناني من ميدان الفلسفة الوثنية إلى ميدان اللاهوت المسيحي ، وإلى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركه القديمة » [٢] . وفي كل ناحية من نواحي الإنتاج الفكري البيزنطي ،

---

(١) يذهب مانيتيوس إلى أن القوط الغربيين كانوا أوفر من غيرهم نصيباً من الثقافة اللاتينية :
Cf. Manitius : Geschichte der Christlichlateinische Poesie, p. 402.

(٢) F.H. Marshall : Byzantine Literature apud Norman H. Baynes and H. St. L.B. Moss, Byzantium (Oxford, 1948) p. 222.

نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحي ، والمسافة قريبة جداً بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس الكاتب المسيحي الذي تغنى بمدائح جستنيان حيناً وأسرف في ذكر مساوئه حيناً آخر . .

« وفي مصر المسيحية نشأت « فلسفة » مسيحية تضرب على منهاج الوثنية القديمة هي فلسفة الرهبان المسيحيين ، وأعظم الآثار الأدبية لهؤلاء الرهبان المصريين — وهو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي ألفه الأنبا أثناسيوس المصري — كان معتبراً أصلا من الأصول الثابتة التي تقرأ في العالم المسيحي كله : في لغته اليونانية في الشرق وفي ترجمته اللاتينية في الغرب . . . وكانت « الأفلاطونية الحديثة » ذات أثر عظيم ظاهر في كتابات جريجوريوس النازنيزي وجريجوريوس النيسي أكبر كتاب الآباء القبدوكيين . . بل أصبح الفكر الأفلاطوني الحديث جزءاً من اللاهوت الأرثوذكسي في الكنيسة الشرقية . . وهذا الطور ملحوظ لا يخفى في كل فروع الأدب البيزنطي . . وإذا كانت المقطعات الشعرية الوثنية قد اختفت ، فقد حرص أصحاب المقطعات الشعرية المسيحية على النسخ على منوالها » ، كما نرى في التشابه العظيم بين شعر الشاعر الوثني نونوس Nonnus الذي عاش في القرن الخامس وشعر جورج البيزيدي شاعر بلاط هرقل الكبير الذي تغنى بانتصاره على الفرس (١) .

بل إن الفكر السرياني الذي بلغ أوجه في القرن السادس كان يحمل بوضوح طابع الفكر الإغريقي القديم ، ففي ذلك العصر نجم أعلام كتاب السريان من أمثال يعقوب السروجي وفيلوكسين المنبجي ويوحنا الإفيسوسي ويعقوب البردعي ، وكلهم كتاب سريان مسيحيون نهجوا في تفكيرهم وإنشائهم على نهج قدماء الإغريق وفلاسفتهم (٢) . ولقد أطلعت سوريا إلى جانب هؤلاء نفراً من أعلام الفكر اليوناني المسيحي من أمثال بروكوبيوس الذي ذكرناه —

---

(١) F.H. Marshall, op. cit. pp. 224-225.

(٢) A.A. Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin, (Paris, 1932), Vol. 1, p. 234-235

وهو من قيصرية الشام — ويوحنا مالالاس — وهو أنطاكى — وبروكوبيوس الغزى ودوروتيوس وأناتوليوس القانونيين ، وهما من تلاميذ مدرسة بيروت (Beryta) ، هذا إلى ما نعرفه من أن مدارس الطب فى الرها وحران وأنطاكية كانت تقوم على ترجمات سريانية لمؤلفات أطباء الإغريق [١] .

وقد أجمل هنرى پيرين ما قلناه عن الثقافة فى غربى أوروبا بعد الغزوات الجرمانية بقوله : « . . وعلى الجملة فإن الغزوات (الجرمانية) لم تغير طابع الحياة الثقافية فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، فمضى الأدب فى طريقه ، وإذا كنا لا نملك أن نقول إنه كان زاهراً فإننا نستطيع أن نقول إنه ظل فى قيد الوجود فى روما ونابلى وقرطاجنة وطليطلة وغالة ، دون أن يجد عليه جديد ، حتى جاء ذلك الحين الذى بدأت تظهر آثار الأنجلو سكسون فيه . وليس هناك شك فى أن اضمحلاله كان ظاهراً ، ولكن تقاليده ظلت قائمة . وإذا كان هناك كتاب لاتينى وجدوا فإن هذا ليدل على أنه كان هناك أيضاً جمهور يقرأ ما كانوا يكتبون ، أى جمهور متعلم نسبياً (يقرأ اللاتينية) . وقد مضى الشعراء يخلعون على ملوك الجرمان نفس الأوصاف المبالغ فيها التى كانوا يضفونها على الأباطرة ؛ نعم إنهم كانوا أقل مستوى ، إلا أنهم كانوا يكررون نفس المعانى . ولقد استمرت هذه الحياة الفكرية القديمة قائمة حتى القرن السابع الميلادى ، بدليل أننا نجد البابا جريجورى الكبير يلوم ديدييه Didier على انصرافه إلى النحو دون سواه ، وأننا نلتقى فى إسبانيا مؤرخين لا بأس بهم حتى الفتح العربى . وفى ذلك الميدان كله لم يأت الجرمان بأى جديد » [٢] .

وهذا الذى يقوله پيرين عن الحياة الثقافية فى غرب البحر الأبيض ينطبق — مع خلاف طفيف — على حوضه الشرقى كما رأينا : استمرت الحياة الفكرية فى القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب فى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه قبل انتشار المسيحية ، بحيث نستطيع أن نقول إن حوض البحر

---

(١) Ch. Diehl et George Marçais : Le Monde Orientale de 395 à 1081, (Paris, 1944) p. 115.

(٢) H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, p. 106.

الأبيض كله كانت تسوده قبيل الفتح الإسلامى ثقافة إغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحى دون أن يتغير روحها العام كثيراً .

٢

الإسلام فى حوض البحر الأبيض

ا ــ المسلمون يدخلون حوض البحر الأبيض :

فى السنة الثامنة للهجرة ، وبينما كان الرسول (صلعم) يتأهب لفتح مكة ، رأى أن يبعث بعثاً من المسلمين إلى بلاد الغساسنة الذين قتلوا رسوله الذى بعثه إليهم قبل ذلك بقليل ، وليضع يده على مؤتة ، وكان أهلها يصنعون صنفاً ممتازاً من السيوف يعرف فى النصوص العربية بالسيوف المشرفية . ولم توفق هذه الحملة فيما قصدت إليه ، لأن الحامية البيزنطية المعسكرة وراء الأردن ، يؤيدها عدد من قبائل عرب الشام الموالية للروم ، ففرت للقاء المسلمين ــ وكان عددهم ثلاثة آلاف يقودهم زيد بن حارثة ــ وأنزلت برجالها هزيمة شديدة ، وقتل قائدها زيد وخلفه جعفر بن أبى طالب فعبد الله بن رواحة فقتلا ، ولم تنج بقية البعث الإسلامى إلا بفضل مهارة خالد بن الوليد ، فقد عرف كيف ينسحب ببقية المسلمين عائداً إلى المدينة [١] . وكان هذا أول لقاء بين الإسلام وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وهو لقاء لا ينبئ بما كان بعد ذلك من غلبة المسلمين على شواطئ ذلك البحر ، ولكنه يدل على أى حال على اتجاه نظر الرسول إلى الشمال ، وإلى أن الامتداد خارج الجزيرة العربية كان فى حسابه قبل فتح مكة.

وقد ختم الرسول أعماله العسكرية بغزوة « تبوك » عام ٩ للهجرة ، وهى غزوة يسيرة لم يحدث فيها قتال خلا ما كان من سير خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وأسره صاحبها [٢] ، ولكنها عظيمة الدلالة ، فهى آخر خطوات التوسع الإسلامى

---

(١) ابن الأثير : الكامل (المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٩) ج ٢ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩١ .

فى حياة الرسول ، وهى كالإشارة إلى الطريق الذى تعين على خلفائه اتباعه فى السير براية الإسلام ، ومصداق ذلك أن الرسول لم يقنع بالنتيجة التى وصل إليها من مسيره إلى تبوك ، ورأى معاودة الكرة وأعد حملة جديدة قرر تسييرها إلى الشام وجعل عليها أسامة بن زيد بن حارثة الذى قتل فى غزوة مؤتة ، ولكن الوفاة أعجلته عن إنفاذها . وتولى أبو بكر فرأى أن يكمل ما بدأ به الرسول من تسيير بعث أسامة بن زيد ، ولكن حروب الردة شغلته عن ذلك [١] ، فلم يستطع توجيه الجند المسلمين نحو الشام إلا بعد الفراغ من أمر المرتدين .

ففى أوائل صفر سنة ١٣ للهجرة سارت نحو الشمال ثلاثة جيوش إسلامية لا يزيد مجموع رجالها عن ٢٤ ألف مقاتل ، يقودها ثلاثة من شباب قادة المسلمين هم : عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ابن حسنة ، وأمدهم أبو بكر بنفر بعد نفر من المسلمين . وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح على بعض هذه الإمدادات ، واستطاع أولئك القادة — بمعاونة خالد بن الوليد الذى خف لعونهم من العراق — أن يتموا فتح الشام فى سنتين (٦٣٤ — ٦٣٦) ، واستقر عامل المسلمين فى دمشق مكان عامل البيزنطيين ، واستولى المسلمون على ساحل البحر الأبيض وكبار موانيه حتى أنطاكية فى الشمال ، وكانت أكبر بلاد ساحل الشام وموانيه ، وكان فيها كذلك أعظم بطريركياته مقاماً وأبعدها أثراً فى تاريخ المسيحية فى هذه العصور .

بهذا الفتح دخلت الدولة الإسلامية نطاق البحر الأبيض المتوسط ، ووضعت قدماً ثابتة فى سوريا ، وسيطرت على موانيها ، وكانت أحفل ثغور البحر الأبيض بالتجارة والسفن وأكثرها حيوية ونشاطاً على ما ذكرناه ؛ ودخل فى

---

(١) كان أبو بكر يدرك استحالة إنفاذ بعث أسامة إلى الشام ، ولكنه أصر على تسييره رغم معارضة شديدة من المسلمين ومن عمر بن الخطاب نفسه . وكان غرض أبى بكر أن يشعر العرب أن لديه من القوة ما يسمح له بإنفاذ بعث كبير إلى الشام ، وكان لذلك أثره فى رد الكثيرين منهم عن الارتداد كما قال ابن الأثير نفسه . وقد اختصر أسامة بعثه ، فلم تزد مدته عن أربعين يوماً ، ولم يفعل أكثر من الإغارة على بعض قبائل قضاعة ، والغالب أن ذلك كله كان بالاتفاق مع أبى بكر . انظر : ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

خدمة المسلمين هذا الشعب الذى كان يجمع بين يديه زمام جانب عظيم من النشاط التجارى فى البحر الأبيض .

ب — المسلمون يسيطرون على شواطىء البحر الأبيض فى الشرق والغرب :

وقد رأينا كيف أن الدولة الإسلامية اتجهت نحو البحر الأبيض غداة قيامها ، ولسنا نستطيع تعليل هذا الاندفاع نحو حوض هذا البحر بمجرد الرغبة فى التوسع ونشر الإسلام ، أو أنه كان نتيجة طبيعية لدخول « روم العرب » فى طاعة الإسلام ، لأن العرب اتجهوا لغزو بلاد الدولة الفارسية قبل أن يشرعوا فى فتوح الشام ، ولكنهم لم يبدأوا فى فتوح فارس إلا بعد أن فرغوا من أمر الشام ، وفى نفس الوقت الذى بدأت جيوشهم تلتحم مع جيوش الفرس كان عمرو بن العاص يستأذن عمر بن الخطاب فى المسير لفتح بلد بحرى متوسطى آخر ، هو مصر . أى أن شواطىء البحر الأبيض اجتذبت العرب بنفس القوة التى اجتذبت بها الإغريق القدامى والرومان والجرمان من بعدهم .

وقد استمر الاندفاع الإسلامى نحو شواطىء البحر الأبيض على صورة متصلة النشاط والقوة ، لم تتوقف إلا أمام العقبات المانعة التى استحال عليهم تخطيها بالفعل ، مما يدل على أن دافعاً قوياً كان يدفع المسلمين إلى السيطرة على شواطىء هذا البحر والقبض على نواصيه من الشرق والغرب ، لا يكاد يصرفهم عن إتمام هذه السيطرة شىء . فقد أتم العرب فتح مصر عام ٢٢ هـ ٦٤٢ م باستيلائهم على الإسكندرية ، وكانوا مستطيعين بعد ذلك التصعيد مع مجرى النيل إلى النوبة والسودان ، وكانوا واجدين فى الاتجاه نحو الجنوب بلاداً واسعة وفتوحاً عظيمة القيمة لهم خاصة ، ولكننا نجدهم بدلا من ذلك يستطردون مع ساحل البحر نحو برقة ، عابرين صحراء واسعة ، مستهدفين لكثير من المخاطر ؛ ونجدهم بعد استيلائهم على برقة يسيرون بحذاء سواحل طرابلس الطويلة حتى يصلوا إلى إفريقية ، وهى ما يعرف اليوم بتونس ، حيث يخوضون معارك حامية تنتهى بسيادتهم على هذا القطر الصغير ؛ ثم يمضون يشقون طريقهم على سواحل المغرب فى عنف وصبر واحتمال مدى سبعين سنة حتى نجدهم عند سبتة عام ٩١هـ.

٧٠٩ م . وبعد هدنة قصيرة يعود البحر الأبيض فيجذبهم من جديد فيعبرون إلى الأندلس ، وفى أقل من عامين نجدهم عند جبال البرتات ، وهى المعروفة خطأ بالبرانس ؛ ثم يسترسلون مرة أخرى فى حماس وحمية ، فيحتلون شواطئ پروڤانس حتى مصب الرون ، ويتخذون بلدة أربونة Narbona مركزاً لهم ، وينتقل مركز النشاط الإسلامى كله إلى هذه الناحية خلال عصر الولاة الأندلسيين ، حتى إن بعضهم كان يقيم فيها دون قرطبة ، ولم يتوقف هذا التدفق العنيف إلا بعد هزيمة بلاط الشهداء فيما بين تور وبواتييه عام ١١٤–٧٣٢ . ويصر المسلمون رغم ذلك على الاستمساك بما بقى فى أيديهم من نواحى غالة الجنوبية ، فلا تسقط أربونه من أيديهم إلا بعد عشرين سنة كلها كفاح وصراع ، ويتشبث المسلمون بعد ذلك بشعاب جبال البرت وما يلاصقها من بلاد الحدود الشمالية الغربية الإيبيرية ، فلا ينتهى أمرهم منها إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى[١] .

وليس بغريب والحالة هذه أن نقرأ فى بعض المراجع أن موسى ابن نصير — عند ما أوغل فى الأندلس — قرر أن يخترق أوروپا مساحلا البحر الأبيض حتى يصل إلى القسطنطينية ، وأن تفكيره هذا روع الخليفة الوليد بن عبد الملك فكتب إليه يستقدمه وينهاه عن « التغرير بالمسلمين » ، ولم ينته المسلمون رغم ذلك ، بل ظلوا يضربون فى طريقهم حتى وجدوا — كما يقول الرازى — حجراً قد نقش عليه : « يا بنى إسماعيل ، انتهيتم فارجعوا » ، وهى رواية أسطورية الطابع ولكنها ذات دلالة نفسية ومعنى لا يخلو من عمق ، وإذا نحن جمعناها إلى الرواية السابقة ؛ وحاولنا تفسيرهما على ضوء الاتجاه العام للفتوح العربية ناحية الغرب ، استطعنا أن نقول إن أمثال هذا الكلام ليست مجرد حديث أساطير ، بل هى تصوير لما كان المسلمون يسعون نحوه عن إحساس واع أو عن نزوع ساذج متأثر بذلك الدافع التاريخى البعيد الذى كان يحرك العرب فى هذا الاتجاه ، دون أن نجد فيما بين أيدينا من المعلومات من خطط الفتوح العربية ما يفسره ويشرحه .

---

(١) المقرى : نفح ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

ج ــ العرب فى جنوبى غالة وبروڤانس :

تعتبر أعمال المسلمين العسكرية شمالى جبال البرت وفى منطقة بروڤانس حلقة متممة لنشاطهم فى حوض البحر الأبيض الغربى ، ولما كانت معلوماتنا قليلة فى هذه الناحية ، فقد رأيت أن أورد موجزاً لنشاط المسلمين فى هذا الميدان

بدأ العرب الامتداد فيما يلى جبال البرت فى ولاية عبد العزيز بن موسى ، فقد استولى المسلمون فى عهده على جرونة Girona وأربونة Narbona سنة ٩٦ــ٧١٥ ثم ارتد المسلمون عنهما ، وعاد السمح بن مالك الخولانى فاستولى عليهما واتجه نحو طولوشة Tolosa ١٠٠ــ٧١٨ ، وعلى مقربة من هذا البلد الأخير التقى بجيش فرنجى يقوده أودون Eude دوق أقطانية Aquitania وانهزم الجيش الإسلامى وقتل السمح نفسه ٨ ذى الحجة ١٠٢ــ٩ يونيو ٧٢١ ، وعاد المسلمون إلى أربونة فتحصنوا بها . ثم نهضوا من جديد يقودهم عنبسة بن سحيم الكلبى خليفة السمح فاستولوا على قرقشونة Carcasona ونيمة Nœmasum ، ثم وصل عنبسة إلى وادى الرون وصعد معه حتى وصل إلى نهر الساءون ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتان Autun ١٠٦ــ٧٢٥ ونهب الإقليم كله دون أن يلقى مقاومة تذكر .

وبعد ذلك بسبع سنوات قام العرب بأقوى حملاتهم فى غالة يقودها عبد الرحمن الغافقى ، وقد بدأ يحشد قواه فى بنبلونة Pampelona فى صيف ١١٣ /٧٣٢ وسار فاستولى على تورو تقدم نحو الشمال ، وعجل بالمسير نحوه شارل مارتل (قارله) فى جيش حافل ، وكان اللقاء الحاسم على ١٧ كيلو متراً شمالى تور عند موضع يغلب على الظن أنه مواسيه لاباتاى Moissais la Bataille الحالى فى منطقة يقع وسطها قصر قديم هو المعروف ببلاط الشهداء فى رمضان ١١٤ــ أكتوبر ٧٣٢ حيث لقيت الجيوش الإسلامية هزيمة كبيرة ، واستشهد الغافقى . ولم تنته جهود المسلمين فيما وراء البرت بعد « بلاط الشهداء » ، إذ ظلت أربونة فى أيديهم واستمر نشاطهم فى الجهاد ، فبعد سنتين من « بلاط الشهداء » ١١٦ــ ٧٣٤ قام يوسف الفهرى عامل الأندلس بغارة كبيرة فى وادى الرون ، وعبر هذا النهر واستولى على آرل وسان ريمى دپروڤانس

Saint Rémyde Provence وصخرة ابنيون Avignon ؛ غير أن شارل مارتل استرد منهم هذا البلد الأخير بمعاونة قوات برغندية ، ثم أقبل يحاصر أربونة ، فسار عامل الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى لنجدة البلد ، ولكنه انهزم سنة ١١٧—٧٣٧ ، وحاصر شارل مارتل أربونة دون توفيق كبير . واستمرت أربونة فى يد العرب حتى سنة ١٣٣—٧٥١ حينما استولى عليها بيبين القصير أول ملوك البيت الفرنچى الكارولنچى . وقد بقيت شمال البرت بعد ذلك جماعات كثيرة من المسلمين متفرقة بين پروڤانس والأوڤرنى ، ووصل بعضها إلى وديان سويسرا الجنوبية ، ولا زالت آثار هذه الجماعات الإسلامية باقية فى تلك النواحى إلى اليوم [١] .

هذا ولا حاجة بنا هنا إلى الأسباب فيما هو معروف من اجتهاد المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية محتملين فى ذلك من العناء والخسائر ما لم يكن لهم به عهد فى ميدان آخر ، وهم لم يكونوا — كما نعلم — أهل بحار ولا عهد لهم بمعاناة الملاحة وأخطارها ، ولكن اندفاعهم نحو البحر الأبيض ورغبتهم فى السيطرة على شواطئه هون عليهم ما صادفوا من الأهوال بين أمواجه ، فنجد رجالا منهم لم

---

(١) راجع :

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعه دوزى) ج ٢ ، ص ٢٢ — ٣٣ .

الأخبار المجموعة (طبعة لافرينتى ألكانترا) ص ٢٢ — ٤٧.

ابن القوطية : افتتاح الأندلس (مدريد ١٩٠٦) ، ص ١٤ — ٤٠ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (طبعة تورى) ، ص ٢٠٤ — ٢٢٠ .

المقرى : نفح الطيب (طبعة دوزى ورايت وكريل ودوجا) ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ١٧٥ .

M. Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Piémokt et dans la Suisse pendant les 8, 9, et 10 siecles de notre ère. Paris, 1836.

H. Zottenberg : Invasions des Sarrazins dans le Languedoc d'après les historiens, musulmans do Devic et Vaisssette : Hist. général du Languedoc. Toulouse, 1875 II pp. 549-558

F. Codera : Estudios Arabes, vol.

G. Lokys : Die Kamfe der Arabern mit der Karolingern bis zum Tode Ludwig, II. Heidelberg, 1906

Lévi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. 1 (Le Caire 1944) pp. 37-42.

يسبق لهم أن ساروا بفلك فى ماء يقودون المعارك البحرية على ظهور السفن ويكسبون بعضها ، كما فعل عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى غزوة ذات الصوارى .

وفيما بين سنتى ٤٨—٦٦٨ و ٦٦—٦٨٥ نجد سفن المسلمين تخترق بحر إيجه والدردنيل ، ورجالهم يحتلون جزيرة سيزيكا فى بحر مرمرة ويواترون الحملات على القسطنطينية المرة تلو المرة فى إصرار بالغ ، فلا يرتدون إلا بعد أن تبلغ بهم الخسائر مبلغاً يستحيل عليهم الاستمرار معه ، وبعد أن تفعل النار اليونانية بسفنهم الأفاعيل .

سبع سنوات متوالية : يقضون الشتاء فى البحر — أى فى الجزائر — كما تقول النصوص ، ثم يهبون لمهاجمة القسطنطينية من جديد فى الربيع والصيف ، ثم يمنى أسطولهم بكارثة كبرى عند مروره فيما بين قبرص والشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى سنة ٥٨—٦٧٧ . وفى أثناء هذا الكفاح الطويل سيطر العرب تماماً على شواطئ الجزر الكبرى والصغرى فى هذا الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، وأخرجوه عن سيطرة البيزنطيين وغيروا الوضع السياسى فيه تماماً . ولم تكن هذه هى أخرى محاولات العرب للاستيلاء على القسطنطينية ، فقد تجدد الجهد فيما بين ٩٦—٧١٥ و ٩٨—٧١٧ فى عهد سليمان بن عبد الملك ، واستنفد المسلمون جهدهم براً وبحراً دون توفيق .

ولم يحاول المسلمون بعد ذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن شواطئ البحر الأبيض ظلت فى أيديهم . أى أن الدولة الإسلامية اتجهت اتجاهاً بحرياً من زمن مبكر ، وقد انتهى بها هذا الاتجاه إلى شواطئ البحر الأبيض إلى التحول إلى دولة بحرية متوسطية طوال العصر الأموى . وهنا يحسن أن نقف عند هذه الحقيقة ملياً ، لأنها تكشف عن ناحية هامة ذات أصداء بعيدة فى تاريخ الدولة الإسلامية .

د — بنو عبد شمس والشام :

عند ما ندرس أوليات اتجاه الحركة الإسلامية نحو الشمال ، يبدو لنا أن

الهدف الأول كان السيطرة على « روم العرب » [١] أو العرب المتنصرة [٢] ، وهى مجموعة من القبائل كانت تسكن المنطقة الواقعة بين حدود الحجاز الشمالية المتعارف عليها عند كتاب العرب [٣] : جذام وبلى وعذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة ومجموعة القبائل القضاعية التى تسمى عادة ببنى غسان [٤] . ونتبين أيضاً أن اتجاه الرسول نحو إخضاع هذه القبائل من زمن مبكر جداً من السنة الخامسة للهجرة — هو الذى أفضى بالعرب إلى الاشتباك بالروم بعد ذلك ، ومن ثم يبدو أن ذلك الاشتباك مع الروم قد جاء مصادفة أو استرسالا طبيعياً غير مقصود [٥]

بيد أن الدارس المحقق لا يسعه إلا أن يتبين أن للموضوع أصولا أبعد من ذلك ، أصول تتصل بعلاقات بعيدة بين فريق من العرب وبلاد الشام ، فريق كانت له بهذه البلاد خبرة ومعرفة قديمتان قبل الإسلام ، فلم تكد دولة الإسلام تستقر وتتجه أنظارها إلى التوسع ، حتى اجتهدوا فى توجيهه نحو هذه الوجهة ، ويسروا لجند الإسلام فتح الشام ، وقاموا بعد ذلك بتثبيت أقدامه فيه ، بل عملوا على نقل الدولة الإسلامية كلها إليه ، ذلك هو فريق بنى أمية ، بنى عبد الدار .

ذلك أن جل اهتمام بنى عبد الدار قبل الإسلام كان بشؤون التجارة والمال ، تاركين لبنى عبد المطلب ما كانوا يطمحون إليه دائماً من جاه روحى على العرب يأتيهم من القيام بشؤون الكعبة والحجاج . ولقد كانت قريش كلها تسهم فى

---

(١) انظر مثلا : الطبرى ، طبعة دى خويه ، ج ١ ، ص ٢١٠١ ، وأبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٧ .

(٢) ابن الأثير : (ط . نورنبرج) ج ٢ ، ص ٧٩ أو ٢١١ .

والمسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٣) كان جغرافيو العرب يرون أن أقصى مدن الحجاز إلى الشمال هى خيبر وتيماء وفدك ، وأن الشام يبدأ بعد خيبر بقليل ، وكانوا يرون أن وادى القرى لا يدخل فى حدود الحجاز .

Cf : M.A. Cheira : La Lutte entre arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 20.

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع :

De Goeje : Mémoire sur la conquète de la Syrie. 2e. éd. Leiden, 1900. ds Mémoires de l'histoire et la géographie orientales. No. 2. p. 10 sqq.

Caetani : Annali dell Islam. Milan, 1905-1926. anno 5, No. 4.

تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجية بالمتاجر ، وإذا أخذنا قافلة أبى سفيان — التى تعرض لها المسلمون سنة ٢ هجرية فكان من ذلك غزوة بدر — أساساً ، لرأينا أن معظم أموال غيرها كانت للأمويين وكان رؤساء القافلة كلهم أمويين [١] ، مما يدل على أن تجارة قريش مع الشام كانت فى الواقع أموية [٢] ، وأن بنى عبد الدار كانوا على صلات وثيقة بالشام ونواحيه ، وكان فيهم ميل نحو الاتجاه نحو هذه البلاد ؛ ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكونوا أشد العرب اجتهاداً فى اجتذاب الإسلام إليه عندما أتيحت الفرصة فى ظل الإسلام .

وإن المتأمل لأحوال قريش قبل الإسلام ليرى بوضوح أن بنى عبد شمس كانوا دائماً أهل السياسة والتوجيه العام ، فى حين كان هم بنى هاشم أمور الكعبة والحجاج وما إليها من المسائل الروحية . وإن الإنسان ليدهش ، عند ما يدرس فريقى قريش عند ما وقع « حلف الفضول » فيجد أن معظم قادة العرب بعد الإسلام كانوا من فريق الأحلاف الموالين للعبسميين دون الهاشميين [٣] ، وربما جاء ذلك من اهتمام بنى عبد شمس بالتجارة والسفر ، وهو اهتمام ربما فسر لنا دوافعه ابن هشام بقوله : « إن عبد شمس كان رجلا سفاراً قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسراً » .

وكانت معظم تجارة عبد شمس ومن معه مع الشام ، وكان لهم عند ولاة البيزنطيين مكان مرموق ، ودليل ذلك ما يقال من أن عثمان بن عفان سفر لقريش

---

(١) انظر التفصيل فى « مغازى الواقدى » ، ط . فون كريمر (كلكتا ، ١٨٥٥ — ١٨٥٦) ، ص ١٩٨ .

(٢) لم يأتنا ابن إسحاق بشىء يثبت ما ذهب إليه من أن هاشم بن عبد مناف هو الذى استن للعرب رحلة الشتاء والصيف (ابن هشام : سيرة الرسول ، ج ١ ، ص ١٤٧) لأن ما يذكره هنا لا يتفق مع سياق حديثه .

(٣) « أحلاف » بنى عبد الدار . — عند الخلاف الذى وقع بينهم وبين بنى عبد المطلب على الرياسة بمكة — هم : بنو مخزوم وبنوسهم وبنوجمح وبنوعدى بن كعب (ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١٤٣) .

عند عامل الروم على بصرى ، فمنحه لقب « فيلارخوس » [١] ، ودليله أيضاً ما حدث بعد الإسلام من سؤال قيصر لأبي سفيان عن حال النبي ، مما يدل على أنه كان محل ثقته ، أو أن الروم كانوا يشعرون أنه قريب منهم على أي حال [٢] . ولنضف إلى ذلك أن الرسول الكريم كان يطمئن إلى بنى عبد الدار وأحلافهم ويعهد إليهم فى الوظائف الإدارية وشؤون الدولة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعده ، فضلا عن عثمان الذى أسرف فى ذلك إسرافاً أدى إلى اتهامه بالميل الصريح لأهل بيته ، وهم بنو أمية وبنو الحكم . وهذه الكفاية فى ذاتها نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال ، فإن ذلك يحتاج إلى عقلية عملية دافعية كالإدارة تماماً ، ولا شك كذلك فى أن كفاية بنى أمية فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم .

فإذا بدأت فتوح الشام رأينا بنى أبى سفيان وأحلافهم — بنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وبنى عدى بن كعب — فى القيادات والعمالات من أول الأمر ، وخاصة فيما يتصل بالشام منها ، وقد كان الرسول أول من بدأ ذلك ، لأنه كان يعلم بما بين بنى أمية والكثير من قبائل عرب الروم — مثل بلى — من القرابة والرحم ، فهو الذى ولى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك [٣] ، بل إنه أرسل عمرو بن العاص قائداً على حملة قصدت أرض بلى وعذرة ، وهما من روم العرب ، لأن أم عمرو كانت من بلى ، وعند ما طلب عمرو المدد أرسل الرسول إليه بعثاً على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وفيه أبو بكر وعمرو ، وأصر عمرو بن العاص على قيادة الحملة كلها — رغم ذلك ، فرضخ له أبو عبيدة ، وصلى عمرو به وبعمر وبأبى بكر ولم يستنكر الرسول ذلك ، علماً منه بما كان لهذا السهمى الشاب من صلات ورحم بأهل

---

(١) انظر : إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣) ، ص ٣٤ . وقد استند إلى عبارة لكمر ر ، وهذا الأخير لم يأتنا بمراجعه .

(٢) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ٣٢ .

الناحية التى يدور حولها الصراع [١] .

فإذا استطردنا مع فتوح الشام وجدنا رجالا من بنى أمية وأحلافهم فى القيادات من أول الأمر ، بل يبين أبو بكر أن غيرهم لا يصلح لقيادة الحروب فى الشام لجهلهم بنواحيه [٢] ، وأن بنى أمية به أعرف ، فبعث يزيد بن أبى سفيان وأردفه بأخيه معاوية فكان هذا أول الفتح [٣] . ثم إن المتتبع لسير القتال فى الشام واتجاهات العرب والمراكز التى وجهوا إليها هممهم ، والمواقع التى اختاروها للقاء ، كل ذلك يدل على أن قادتهم كانوا يعرفون الشام جيداً ، وأنهم كانوا يسيرون عن معرفة وخبرة . فإذا ذكرنا أن معظم التوجيه — فيما خلا مسير خالد بن الوليد إلى بصرى — كان بيد يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية وعمرو بن العاص تبينا صدق الحقيقة التى ذكرناها عن أن بنى أمية وأحلافهم هم الذين قادوا جيوش العرب فى الشام ويسروا لهم فتحه ، لسابق خبرتهم به ومعرفتهم بأموره . ويتجلى ذلك بوضوح عند ما نجد يزيد بن أبى سفيان عاملا لعمر على معظم الشام بعد وفاة أبى عبيدة ثم يخلفه على عمالته أخوه الأصغر معاوية ، ثم يجمع عمر الشام كله لهذا الأخير ، فى نفس الوقت الذى يتجه فيه عمرو بن العاص السهمى — وسهم من أحلاف بنى عبد شمس — لفتح مصر ، أى لاجتذاب المسلمين خطوة أخرى إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط [٤] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) راجع ما يذكره الطبرى عما حدث لخالد بن سعد بن العاص فى أول محاولة للعرب لغزو الشام . (الطبرى : تاريخ ، ط . الحسينية بالقاهرة ، ج ٤ ، ص ٦) .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) وصلة بنى أمية وأحلافهم بعمالات الشمال والشام منذ كان الإسلام تستوقف النظر ، ففى حركة الردة مثلا بعث أبو بكر خالد بن سعيد العاص بن أمية إلى مشارف الشام ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قضاعة . وعندما بدأت حركة الفتوح بعث أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام وأردفه بذى الكلاع وعكرمة ابن أبى جهل وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، « وعقد ليزيد بن أبى سفيان ابن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه وجهزه عوضاً عن خالد ابن الوليد ، وعقد لأبى عبيدة بن الجراح و بعثه إلى حمص ، وأن يزيد بن أبى سفيان بأخيه معاوية بن أبى سفيان ومعه جيش ، فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل يزيد البلقاء ، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن ، وقيل بصرى ، ونزل عمرو بن العاص الغزيات » . ولم يتغير الأمر كثيراً فى أيام عمرو ، فولى الشام أبا عبيدة فيزيد بن أبى سفيان فمعاوية ، ومصر عمرو بن العاص » .

وليس إلى الشك سبيل فى أن علائق بنى عبد شمس بالشام جعلتهم من أصلح العرب لقيادة البعوث الحربية وولاية العمالات ، ونتبين ذلك من أن معظم عمال رسول الله على النواحى كانوا منهم ، وكذلك كان الحال أيام أبى بكر وعمر . وقد علق على ذلك المقريزى بقوله : « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم »[1]. ويؤكد ذلك مرة أخرى ثم يقول : « فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الرلاية أملهم ؟ »[2] .

أما فيما يتصل بالشام خاصة فللمقريزى رواية تؤيد هذا المعنى الذى قلناه بصورة تستوقف النظر ، قال فى سياق حديثه عن حروب الردة إن أبان بن سعيد بن العاص بن أمية كان على البحرين ، وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، « فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالاتهم ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « ما لكم رجعتم عن عمالاتكم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ارجعوا إلى أعمالكم » ، فقالوا : « نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً » ، ثم مضوا إلى الشام ، وقاتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتاً »[3] .

هـ ــ أثر علاقات بنى أمية بالشام فى توجيه الدولة الإسلامية نحو البحر :

وخلاصة هذا الكلام أن فرع عبد شمس من قريش اتجه بسبب المنافسة

انظر : المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ٥٥ ــ ٥٦

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦

(٢) نفس المصدر ص ٤٧ ــ ٤٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦ . ولابن الأثير رواية غريبة تدل على أن أبا سفيان وشيعته

مع بنى عبد المطلب – إلى شؤون التجارة والأسفار وأنفق همه فيها ، وأنه صرف جهوده نحو الشمال ، فاتصل بروم العرب – أو العرب الضاحية – وارتبط بهم بعلاقات مختلفة ما بين تجارة وصداقة وحلف ، ثم اتصل هذا الفرع بالشام وعربه ورومه ، وارتبط مع هؤلاء الأخيرين بعلاقات بعيدة المدى ، جعلته فى موضع الحليف منهم ، وأن أفراد هذا البيت اتخذوا هذه الصداقة مع الروم وسيلة لتيسير شؤون تجارتهم المكية التى كانوا يقومون عليها ، وأثروا من وراء ذلك واقتنوا الضياع لا فى الحجاز فقط بل فى الشام أيضاً ، إذ كانت لأبى سفيان ضيعة فى البلقاء فى موضع يسمى بقبش ، وأن هذه الخبرة التجارية ولدت فى أفراد هذا البيت خبرة سياسية جعلتهم أصلح العرب للحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وتجلى ذلك بوضوح على أيام أبى سفيان بن حرب عمدة هذا البيت وقائده فى الكفاح أيام الإسلام الأولى .

وكان سر عدائه وعداء أفراد بيته للإسلام هو الخوف على المصالح التجارية وتلك الرياسة التى صارت لهم على قريش وعلى العرب تبعاً لذلك ، وقد نظروا للإسلام من أول الأمر نظرة مادية موضوعية ، فلم يتنبهوا للنواحى الروحية العاطفية فيه ، وظلوا على ذلك حتى وجدوا الإسلام يقتطع منهم أحلافهم من روم العرب ، ثم فتحت عليهم مكة وانهزموا جملة ، فرأوا أن الإسلام قوة لا قبل لهم بها فسلموا له ودخلوا فيه عن إيمان قليل أو منعدم . فلما صاروا فى رحاب الإسلام نفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية ، وتنبه إليها الرسول عليه الصلاة والسلام فعهد إليهم فى العمالات وقيادة البعوث ، ووجد فى ذلك وسيلة لإيلاف قلوبهم ، حتى أبو سفيان – على لدده وعداوته وقلة إيمانه – ولاه عمالة كبيرة استئلافاً له من ناحية وانتفاعاً من خبرته من ناحية أخرى .

وتبينت كفاياتهم مع الزمن ، فثبتت أقدامهم فى الوظائف وشؤون الدولة .

كانوا حتى بعد إسلامهم أميل إلى الروم منهم إلى العرب ، فقد كانوا أثناء وقعة اليرموك يفرحون إذا مال الروم على العرب . والرواية – ولو أنها عن عبد الله بن الزبير ، وهو مشكوك فى رواياته دائماً – إلا أنها ذات معنى خاص .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨٤

وعندما تولى أبو بكر استمر على ثقته فيهم ، جرياً على عادته من المحافظة على سنن الرسول من ناحية ، وانتفاعاً بخبرتهم من ناحية أخرى ، ثم غناء بهم عن بنى عبد المطلب وكانوا مزورين عنه . ثم جاء عمر ، رجل الدولة الإسلامية ، ففطن إلى مزايا أفراد هذا البيت فى الإدارة والحرب ، فأولاهم ثقته ومضى معهم على ما كان عليه أبو بكر ، وحرصوا هم منذ أيام أبى بكر على توجيه نظر الدولة نحو الشام ، وكانوا به أعرف ولهم بأهله علاقات قديمة موصولة ، ومن ثم نجد أبا بكر يضع شبابهم فى قيادات بعوثه ، وأحسن عمر أنهم قادرون على أداء خدمة كبيرة للدولة الإسلامية فى هذه الناحية ، فأولاهم ثقته وولى الكثيرين منهم قيادات فتوح الشام . وزادت فرصتهم اتساعاً عند ما عزل خالد بن الوليد وتوفى أبو عبيدة بن عامر الجراح ، فلم يبق فى الميدان غيرهم .

وبفضل خبرتهم بالشام وملكاتهم الحربية والسياسية تم فتح هذا القطر فى سرعة لم يكن يتوقعها أحد ، وكان واحد منهم — يزيد بن أبى سفيان — أول حاكم مسلم للشام ، ثم خلفه أخوه الأصغر معاوية ، وبه يصل الاتجاه الشامى للبيت الأموى ذروته ، وفى أعماله تتجلى كل الخصائص السياسية العملية التجارية التى امتاز بها رجال هذا البيت ، فعمل من أول الأمر على أن يصبح الشام قطراً أموياً ، ثم اجتهد فى أن يجعل الدولة الإسلامية كلها دولة أموية ، ولم يكن ذلك ميسوراً إلا بنقلها إلى الشام وجعلها دولة شامية بحرية ، وسنفصل هذا الكلام فى الأسطر التالية .

و — الاتجاه البحرى للأمويين :

وعند ما يتتبع الإنسان أعمال معاوية منذ أصبح واليا على الشام ، يدهش من اهتمامه بأمر السواحل والثغور البحرية ، فهو الذى فتح قيسارية سنة ١٩ هـ — بعد أن عجز عمرو بن العاص ويزيد بن معاوية عن فتحها [١] ثم فتح عسقلان [٢] بل تجشم عناء الخروج بنفسه وزوجه معه لفتح قبرص ، بعد أن رفض عثمان

---

(١) البلاذرى : فتوح (القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

الإذن له فى فتحها إلا على هذا الشرط [١] . وإصرار معاوية على فتح هذه الجزيرة وإلحاحه فى ذلك حتى وفق إليه لا يخلو من الدلالة على اهتمامه بالبحر وشؤونه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين « لم يركبوا بحر الروم قبلها » [٢] تبينا ناحية أخرى من جوانب فضل بنى أمية فى تمكين المسلمين من أمر البحر الأبيض ، فقد كانت هذه الحادثة فاتحة لسيادة المسلمين على مياه ذلك البحر.

والمعنى الذى يستنتجه الإنسان من حملة قبرص هو أن المسلمين أصبح لهم أسطول فى البحر ، أسطول وصل فى بعض حملات قبرص إلى ٥٠٠ سفينة ، وليس من المعقول أن يكون المسلمون قد بنوا هذه السفن أو أنشأوا « دار صناعة » لعمارتها فى موانى الشام ، فهى لا شك سفن أهل السواحل مما كانوا يستعملونه أو كان الروم يستعملونه . ولا شك أن المسلمين عند ما استولوا على موانئ مثل أنطاكية وقيسارية وعسقلان قد استولوا كذلك على ما خلفه الروم فى مرافئها من سفن ، فأجروها بمن كان يجرى بها من أهل تلك البلاد قبلا .

ومن أسف أن المراجع لم تزودنا بشىء من المعلومات فى هذه الناحية ، ولهذا فنحن لا نستطيع القول بنشأة دور الصناعة الإسلامية فى ذلك التاريخ المبكر ، ولم يبق إلا أن نسلم بما ذهب إليه هويد وپيرين من أن المسلمين استعملوا سفن أهل البلاد أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا إلى أهل السواحل فى ابتناء سفن لهم ، وعلى أى الأحوال لم تكن أساطيل المسلمين الأولى إسلامية إلا من حيث المقاتلة الذين دخلوا فيها للحرب والفتح . وكلمة أسطول نفسها يونانية Stolos ، وكان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب حربهم فى البر ، أى بالرمى بالسهام والحراب والحجارة فى بعض الأحيان ، فإذا أعياهم الأمر رموا خطاطيف تتشبث بسفن العدو ثم جذبوها إليهم ، حتى إذا تلاصقت السفن تحولت المعركة إلى معركة برية [٣] .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن معظم استعمال الأسطول الإسلامى — أول

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٣) انظر تفاصيل موقعة ذات الصوارى ٣٤ هـ - ٦٥٥ م : الطبرى ، ج٥ ، ص٦٩ وما يليها.

الأمر – كان لنقل الجند لا للاشتباك فى القتال فى عرض البحر ، ودليلنا على ذلك قلة ما لدينا من أخبار الوقائع البحرية بين المسلمين والروم : كانت خطة المسلمين فى السيطرة على البحر تتفق مع طبيعتهم ، وهى الاستيلاء على الشواطىء والموانى ، وإلى تلك الخطة ترجع محاولاتهم العديدة للاستيلاء على القسطنطينية ، لأنها كانت فى نظرهم مركز الأساطيل الرومية التى تعترض سفنهم فى البحر وتهدد شواطئهم ، وكانوا يرون أنهم إذا وضعوا أيديهم عليها كفوا أنفسهم هذا الشر .

وعلى طول أيام معاوية نلاحظ اهتمامه العظيم بالشواطىء والموانىء كأنما كانت تسيره فى نشاطه هذا فكرة معينة ؛ فبينما نجد ثغور الشام البرية – أى المفضية إلى آسيا الصغرى – من فتوح رجال كأبى عبيدة بن الجراح وميسرة بن مسروق العبسى وعياض بن غنم وغيرهم من الفاتحين ، نجد سواحل الشام كلها – عدا أنطاكية – من فتوح معاوية . بل يبلغ اهتمامه بأمر البحر مبلغ المخاطرة بغزو جزره ، فقد رأينا كيف فتح قبرص ، ثم أرسل معاوية بن حديج الكندى فقام بأول محاولة إسلامية لفتح صقلية ، وفى هذا المقام يقول البلاذرى : « وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى براً وبحراً . فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدى إلى رودس – وجنادة أحد من روى عنه الحديث ، ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ ابن جبل ، ومات فى سنة ثمانين – ففتحها عنوة ، وكانت غيضة فى البحر ، وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وخمسين . . . وفتح جنادة بن أبى أمية فى سنة أربع وخمسين أرواد ، وأسكنها معاوية المسلمين ، وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع بن امرأة كعب الأحبار ، وبها أقرأ مجاهد تبيعاً القرآن . . . وفتح جنادة قريطش ، فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق ، وغزاها حميد بن معيون الهمدانى فى خلافة الرشيد ، ففتح بعضها ، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعرف بالإقريطشى ، وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم [١] » .

---

(١) البلاذرى : فتوح ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

وقد مضى بقية خلفاء بنى أمية على سنن معاوية من الاهتمام بالثغور وحمايتها فنجد هشام بن عبد الملك ينشئ دار صناعة فى صور ، ونجد بنى مروان يحولون هذا البلد إلى ميناء بحرى[١] ، وغير ذلك كثير .

وإلى جانب ذلك نجد بنى أمية — على كثرة مشاغلهم وتوالى ثورات العرب عليهم — ملتفتين إلى البحر وشؤونه لا يكاد يصرفهم عن ذلك شىء ، فهذه الحملات الكبرى التى قاموا بها على القسطنطينية وقعت فى فترات كانت الثورات عليهم فيها على أشدها فى العراق والجزيرة العربية . وفى نفس هذه الظروف أيضاً أرسلوا الحملات التى فتحت المغرب والأندلس وما وراء ذلك ، ولو قوم غيرهم لرصدوا هذه القوات كلها على تثبيت أمرهم فى تلك البلاد المشرقية التى جاءهم منها البلاء فيما بعد .

وقد كانت خطتهم فيما يتصل بالجزيرة العربية والعراق أن يعهدوا فى أمرهما إلى رجال أشداء يحكمونهما بالعسف والقهر ، كأنما كان لا يعنيهم من أمر هذه الولايات إلا أن يسكن كل شىء فيها ويقر كما هو ، أما أن يعنوا بأهلها ويصرفوا إليها جانباً من العناية الحقيقية فلا . وولاتهم على العراق كانوا جبابرة يمتازون بالعنف والقسوة دون أى شىء آخر كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، فأما خيرة رجالهم ، أما الولاة الممتازون الذين يفكرون فى إنشاء أو إصلاح فنجدهم فى ولاياتهم الغربية : مصر والمغرب والأندلس . هناك تجد عمرو ابن العاص منشئ الفسطاط ، وعقبة بن نافع منشئ القيروان ، وحسان بن النعمان منشئ تونس ، وعبد الرحمن الغافقى الذى يصور المجاهد المسلم فى أجمل صوره ، والسمح بن مالك الخولانى الذى عالج شغب عرب الأندلس على أسلوب من الرفق والإنسانية والعدالة لا نجده عند أحد من ولاة المشرق .

بل أننا نجد بنى أمية يعهدون فى حكومات ولاياتهم المغربية إلى رجال من بيتهم مبالغة منهم فى إظهار اهتمامهم بهذه الناحية ، فتولى مصر اثنان من رجال البيت الأموى ؛ بينما لم يتول العراق إلا واحد فقط هو مسلمة بن عبد الملك . بل إننا نجد خلفاء بنى أمية يرسلون أولادهم للاشتراك فى فتوح المغرب ، فنجد

(١) Hitti : Origins of the Islamic State (New-York, 1916) pp. 180-181.

عبد الملك بن مروان مثلا يشترك — وهو بعد أمير صغير — فى فتح جلولاء (فى إقليم تونس) . وهذا كله يدل على عناية خاصة بالجزء الغربى من الدولة — وهو الجزء البحرى منها — واهتمام بشؤونه . وليس من قبيل المصادفات البحتة أن يكون الأمويون هم الذين استولوا على شواطىء هذا البحر وما استطاعوا الاستيلاء عليه من جزائره ، بحيث نستطيع القول إن الدولة الإسلامية كانت على أيامهم دولة بحرية متوسطية من حيث الامتداد الجغرافى والاتجاه العام .

ز ـ الدولة الأموية ، دولة بحرية متوسطية :

فإذا نحن تأملنا الروح العام الذى كان يسير الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ، لاحظنا بوضوح أنه أقرب إلى روح دول البحر الأبيض الذى ورثته فيما كان لها من ملك ، وربما استطعنا عند التدقيق أن نجد أوجهاً من الشبه بين أسلوب الحكم وطريقة خلفاء الأمويين فى الإدارة ونظرة رجال الدولة إلى أعمالهم وبين هذه النواحى فى دولة كالدولة الرومانية . ومعاوية نفسه — إذا نظرنا إليه ودرسنا سياساته — تبينا أنه كان بعيداً بعداً ظاهراً عن الروح البدوى الحقيقى ، وأقرب ما يكون إلى ما نعرفه عن أهل السياسة والتدبير من رجال دول البحر الأبيض قبل الإسلام . فهذا الرجل المضرى الأصيل ما زال يسعى حتى كسب بنى كلب اليمنيين إلى جانبه ، بل جعلهم فى المرتبة الثانية بعد أفراد البيت السفيانى ، وفضلهم بذلك على مضر أجمعين وهم أهله ، وتخلى بذلك عن أبسط تقاليد البداوة وهو فى الذؤابة منها .

ولم يكن بنو كلب أكثر قبائل عرب الشام عدداً بل كانوا أقربهم إلى الروم ، وكانوا عماد بنى غسان ، وكانوا أحلاف الرومان والبيزنسيين ، ولهذا كانوا ذوى ملكات اقتصادية عمرانية جعلتهم من أصحاب الأراضى والضياع والمتاجر فى الشام ، ثم هم بعد ذلك يمنيون من عرب الجنوب ، وعرب الجنوب كانوا — على طول التاريخ الإسلامى — أهل حضارة ومال وثقافة ، وإن لم يكونوا دائماً من أهل الحكم ، إذ غلبتهم عليه فى معظم النواحى مضر . والتفات معاوية إلى هذه الناحية من أظهر دلائل كياسته وبعد نظره وتفكيره السياسى ، وكان كذلك له أبعد

الأثر فى توجيه الدولة الأموية كلها توجيهاً بحرياً حضارياً .

ومن هذا القبيل ميل معاوية إلى الثقفيين من أهل الطائف ، وثقيف من قحطان أيضاً ، وقد أمدت البيت الأموى بطائفة من أقدر رجاله وأنصاره منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وعبيد الله بن زياد ومحمد ابن القاسم فاتح السند . نعم إن الخليفة الأموى كان ذا ظاهر بدوى يؤثر العيش فى قصور البادية على المقام فى دمشق ، وينزع إلى ما كان أجداده فى الجاهلية يميلون إليه ، ولكنه كان فى الروح أقرب إلى أباطرة الرومان منه إلى أكاسرة الفرس وعواهل الأسيويين . كان كبار خلفاء الأمويين ينظرون إلى مصالح الدولة وخيرها نظرة رومانية ، رغم ما كان يبدو من استهتار بعضهم وميلهم إلى المتاع ، ومجالسهم — كما يصورها أبو الفرج الأصفهانى — لم تكن مجرد مجالس أبهة ومظاهر دينية سلطانية كما ستكون مجالس العباسيين ، بل مجالس ملوك معنيين بشؤون الدولة وأمور الرعايا كافة .

فإذا تركنا الخلفاء ونظرنا فى أحوال الدولة الإسلامية عامة أيام الأمويين تبينا ملامح «رومانية» أخرى حقيقة بأن تستوقف النظر ، وهى تعيننا على تصوير ما نحن بسبيله من دراسة مدى تأثر الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ببيئة البحر الأبيض التى قامت فيها . ومن أظهر هذه الملامح الدور السياسى الذى كانت تقوم به المساجد فى هذا العصر . فقد وصف فلها وزن « المسجد » فى العصر الأموى بأنه كان « فوروم » Forum الإسلام ، وهو وصف يلفت النظر إلى طبيعة المساجد ودورها فى الحياة السياسية للأمة العربية فى العصر الأموى : لم يكن المسجد إذ ذاك مجرد مكان للصلاة بل كان مجمع المسلمين ومنتداهم وملجأ الفقير منهم ومجمعهم السياسى . كان الناس إذا اختلفوا فى أمر من يلى أمرهم تنادوا للاجتماع بالمسجد ، وهناك يتداولون فى الأمر ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفوروم [1] ، وكان عامل البلد إذا دخلها توجه إلى المسجد وأعلن تعيينه من على المنبر ، وكان هذا الإعلان يعتبر إقراراً من الناس

---

(١) Cf. Wustenfeld : Chroniken der Stadt Mekka, II, p. 168. Lammens, Mo'awia, pp. 204-208

لولايته ، بل كان العمال إذا أرادوا إبلاغ الناس شيئاً دعوا الناس إلى المسجد ليبلغوا إليهم ما يريدون وينصرف الناس بعد ذلك دون صلاة جامعة ، وكان العامل يبدو للناس فى هيأة الحاكم لا الإمام : يحيط به الشرط فى صحن الجامع والسيوف مشرعة بأيديهم ، والعامل يتكلم وسيفه أو قوسه بيده .

ولم تكن للمساجد محاريب إذ ذاك ، بل منابر فقط يتحدث عليها الحكام وقلما يشاءون ويقرأون الخطب فى مناسبات الصلوات الجامعة ؛ بل إن رجالا كالمغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه كانوا يستعملون المسجد مكاناً للحكومة ، فيجلس الواحد منهم على كرسيه فى صدر المسجد ويتحدث إلى الناس ويقضى فى أمورهم كأنه فى مجلس حكم لا فى مسجد . وكل أولئك يميل بنا إلى الظن أن الأمويين عند ما خلفوا أباطرة الرومان فى الشام ، واحتوتهم هذه البيئة المتوسطية بتقاليدها القديمة فى الحكم ، استعملوا المساجد كمجمع للناس وموضع اتصال بهم كما كان الأمر فى الفوروم الرومانى [١] . وسيختفى ذلك تماماً فى العصر العباسى ، سيتحول المسجد إلى موضع صلاة فحسب ، لأن العباسيين أقاموا ملكهم على فكرة أخرى ، فكرة الكسروية الأسيوية ، وهى لا تعترف بالرعية ولا تسعى إليها ولا تحفل بالاتصال بها .

بل إن عمال الأمويين — إذا تأملنا تصرفاتهم — وجدناهم أشبه بقناصل الرومان : رجال فى خدمة الدولة ينفذون أوامرها فى طاعة ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون فى الخروج على الدولة والعمل لحسابهم كما سيكون عمال بنى العباس ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهذا موسى بن نصير معتصم فى الأندلس ثم يستدعيه الخليفة ليحاسبه حساباً عسيراً ، فيسير إليه فى طاعة واستسلام ، ويسأله بعض أصحابه عن السبب فى إلقائه بيد الطاعة ، ولو شق عصاها لما بلغ الخليفة منه شيئاً فيقول : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى طرفاً ، ولكن آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج على الطاعة والجماعة » [٢] . وهذا زياد بن

---

(١) انظر عن ذلك :
Lammens: Etudes sur le siècle des Umayyades (Beyrouth, 1930), pp. 56 sqq.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ج ٢ ، ص ٢٠

أبيه يضع فى العراق نظاماً صارماً هو أقرب ما يكون فى دقته وهزمه إلى نظم الرومان ، ويكفى أن نورد هنا قوله لحاجبه : « وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح ، لا توقفه عنى ولا سلطان لك عليه ؛ وطارق الليل لا تحجبه ، فشر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد »(١) . وهذا الحجاج بن يوسف ، مضرب المثل فى الحزم والقدرة الإدارية ومراعاة شؤون الدولة على أسلوب قناصل الدولة الرومانية لا على أسلوب العواهل الأسيويين . وغير ذلك كثير مما يضيق عنه مجال هذا البحث .

وخلاصة هذا الكلام أن بنى أمية ، إذ نقلوا مركز الدولة الإسلامية من الحجاز إلى الشام ، لم يقتصر الأمر على تغيير موضع المركز ، بل تغيير الاتجاه كله للدولة الإسلامية عامة . نعم إن هذا التحول بدأ من أيام أبى بكر وعمر ، لأن فتوح الشام ومصر بدأت وتمت فى أيامهما ، ولكن أثر بنى أمية وأحلافهم فى تيسير هذه الفتوح بالذات واضح لا يحتاج إلى بيان . وقد حرص معاوية منذ استقر له الأمر فى الشام على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية ، وجرى على هذا السنن من أتى بعده من خلفاء بنى أمية ، أى أن الدولة الإسلامية ، التى نشأت قارية وظلت فى محيط صحراوى على عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، تحولت بعد انتقالها إلى الشام إلى دولة بحرية ذات طابع متوسطى واتجاه نحو البحر وعناية بشؤونه . وعلى أيديهم تمت سيطرة المسلمين على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا البحر وعلى جانب كبير من جزائره ، أى أنهم هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر ، وحولوه من بحيرة داخلة فى نطاق العالم اللاتينى اليونانى إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد ، هو العالم الإسلامى المشرقى(٢) .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . بولاق ١٢٩٣) ج ٢ ، ص ٦ .

(٢) Oscar Halecki : The Limits and Divisions of European History (London and New York, 1950)

لم تعد حدود العالم الغربى هى السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ومشارف الصحراء الليبية وحدود النوبة كما كان الحال قبلا ، وإنما أصبحت حدود هذا العالم الغربى هى الشواطىء الجنوبية لغالة وشواطىء إيطاليا والأطراف الجنوبية لشبه جزيرة البلقان والجزائر الواقعة فى مدخل بحر إيجة ، وما عدا ذلك من أحواض هذا البحر ومياهه أصبح تحت سلطان المسلمين .

لم تعد السفن الرائحة إلى شواطئ أوروبا والغادية منها تنتقل فى حرية من شواطىء الشام ومصر والمغرب إلى ما شاءت من شواطىء أوروپا صادرة بالمتاجر واردة بالخيرات . وخيم على شواطىء غالة الجنوبية وإيطاليا الشرقية سكون ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجىء ، فيما خلا انتقالات محلية من ميناء إلى ميناء مجاور ؛ وأصبحت سفن المسلمين تخرج من الشام إلى مصر والمغرب والأندلس فى أمن تام ، وهذا ما يعبر عنه بأن البحر الأبيض المتوسط تحول إلى بحيرة إسلامية ، وهو تعبير واسع بعض الشىء من ناحيتين : الأولى أن ذهاب أمر الأمويين وانتقال الأمر إلى العباسيين حال بين المسلمين وبين استكمال السيادة على مياه البحر ، والثانية أن الشعوب الإسلامية نفسها لم تحسن استغلال هذا الوضع ، لأسباب يتصل بعضها بنظرة الدول الإسلامية إلى التجار واستهانتها بأموالهم ، مما زهد الناس فى المتاجرة وجمع المال ، ويرجع بعضها الآخر إلى نفور طبيعى من هذه الأمم للبحر وركوبه ؛ وسنفصل هاتين الناحيتين بقدر ما يسمح المقام فى أطواء هذا الكلام .

وقد عبر جود فروا ديمومبين عن ذلك الذى قلناه تعبيراً دقيقاً فى حديثه عن الانتقال من الأمويين إلى العباسيين ، قال : « ولقد كان الشام الأموى مسنداً ظهره إلى البحر الأبيض ، مواجهاً الخصم الوحيد الخطير الذى قام فى وجهه : الإمبراطورية البيزنطية . وكان يبدو أن مصائر هذا الشام فى ذلك العصر الأموى كانت متوسطية ، ولكن موارده كانت قليلة ، وقد كان لا بد له حتى يستطيع إقامة كيان نفسه واستكمال مظاهر الدولة من الاستعانة بموارد وارد النيل » [١] .

---

(١) Gaudeforoy - Demombynes et Platanov : Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades (Paris. 1931), p. 270.

وقال فى موضع آخر : « ولقد ظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة إلى بنى العباس ، وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق إلى العراق . لقد كان للخلافة الأموية ميل للشؤون المتوسطية ، وأتاح فتح صقلية على بنى الأغلب أمام الإسلام سبلا جديدة إلى الغرب ووضع فى أيدى أهله إمكانيات جديدة . أما الخلافة العباسية فكان وجهها إلى المشرق ، وإذا صح ما يقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية وسيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، فإن هذا كان اتجاها سياسياً لم يقدر له من العمر أكثر مما قدر للبرامكة أنفسهم . وابتداء من القرن التاسع الميلادى ، أصبح موقف الخلافة سلبياً دفاعياً فيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية . من ذلك الحين كانت الخلافة العباسية أسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجارى نحو الخليج الفارسى وبحار الهند ، وسيكون اتساع أراضيها فى نواحى آسيا الوسطى . ولكن ، حتى فى هذا الاتجاه لم توفق الإمبراطوريةالإسلامية إلى الاحتفاظ بتوازنها أو بتجانسها »(١)

ح ـ الدولة العباسية وطابعها الأسيوى :

وهذا الذى أشار إليه المستشرق الفرنسى الكبير موجزاً ، ينطوى على حقيقة كبرى من حقائق التطور العام لتاريخ الدولة الإسلامية . فإن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يكن مجرد انتقال السلطان من بيت إلى بيت أو انتقال العاصمة من بلد إلى بلد ، بل كان فى الواقع نقلا للدولة الإسلامية كلها من عالم إلى عالم : من عالم البحر الأبيض إلى عالم أسيوى يختلف عنه من كل ناحية . كان وجه الدولة إلى الغرب ، وكانت همومها هموماً بحرية غربية ؛ وكان بناؤها يعلو ويتكامل فى محيط هيلينى رومانى ، وأهلها يقتطعون كل يوم قطعة من أرض الإغريق والرومان القدامى ويضيفونها إلى أرضهم بما فيها ومن فيها ، وكان الهدف الأخير للدولة هو الحلول محل القسطنطينية وروما فى آن واحد ، أى محل الإمبراطورية والمسيحية ، والسيادة على البحر الأبيض كله .

وقد كان هذا الاتجاه بعيد الأثر فى كيان الدولة كلها على عهد الأمويين.

---

(١) G. Demombynes, op. cit. pp. 271-272.

ثم تغير هذا كله بعد انتقال الدولة إلى العراق ، من العالم البيزنطى إلى العالم الفارسى ، فكان لهذا الانتقال أبعد الأثر على مصائر الدولة الإسلامية الشرقية : لم يعد الخليفة رجل دولة يجتهد فى إثبات كفايته بجهده على طريقة أباطرة الرومان والبيزنطيين ، بل أصبح خليفة كسروياً يلى الملك بحق إلهى على طريقة عواهل فارس ، وظهر نظام الوزارة بمعناه الفارسى القديم ، وأصبح هدف الدولة الأخير هو المال والجباية ، وأهملت الدولة أملاكها الغربية فانفصل عنها الأندلس والمغرب الأقصى ، وتنازلت عن المغرب الأوسط وإفريقية (تونس) لبنى الأغلب لقاء قدر معين من المال ، وعهدت فى أمور مصر والشام إلى ولاة هم أقرب ما يكونون إلى مرازبة الفرس القدماء ، مهمتهم الوحيدة هى الالتزام بأداء المال المستحق على البلدين ، وأهملت شواطئ الشام واقترب البيزنطيون من حدوده الشمالية شيئاً فشيئاً ، وانتهى الأمر باستيلائهم على أنطاكية وطرابلس ، وعاد جانب كبير من تجارة الحوض الشرقى للبحر الأبيض إلى أيدى البيزنطيين شيئاً فشيئاً ، وهكذا : تصفية حقيقية للجناح الغربى من الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا صقلية فى العصر العباسى فإن التى قامت بذلك كانت دولة إسلامية غربية هى دولة بنى الأغلب ، وإذا كان المسلمون قد فتحوا جزيرة كريد فى هذا العصر أيضاً ، فإن الذين قاموا بذلك كانوا جماعة من الأندلسيين كما سنرى . وقد عدلوا باستيلائهم على هذه الجزيرة كفة التوازن بين الإسلام والنصرانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط بعض الشيء ، أى أن الخلافة الإسلامية الشرقية نفضت يدها من شؤون البحر الأبيض وخرجت من ميدانه جملة وأخذت آسيا تبتلعها رويداً رويداً .

وليس أدل على هذه الناحية الأخيرة من أن الدولة الإسلامية نظرت إلى الشواطئ على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها ، لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها إلى ما وراء البحر من بلدان . لقد كان العصر الأموى عصر تعريف الدولة الإسلامية بعالم البحر الأبيض وتمليكها إياه وتحصين هذه الشواطئ لصالحها ووضع نواة الأسطول الإسلامى ، وكان ينبغى أن تنتقل الشعوب الإسلامية بعد ذلك إلى الطور الثانى ، طور السيطرة الفعلية

على مياه ذلك البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية ، ولكن التغير المفاجئ للأحوال فى العالم الإسلامى وانتقال الأمر إلى العباسيين واتجاه الدولة نحو آسيا ، كل هذا أوقف ذلك التطور وحال بين المسلمين و بين الاستفادة الكاملة من تلك السيطرة التى صارت لها على شواطئ هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره .

ط ــ أدوات السيادة البحرية ، تحصين الشواطئ و إنشاء الأساطيل :

والآن وقد ألممنا بالدوافع التى دفعت بالدولة الإسلامية إلى شواطئ البحر الأبيض ، وتتبعنا انتقالها إلى الشام واستقرارها فى بيئة متوسطية وأثر ذلك على طبيعتها ، ندرس العدة التى اعتمدت عليها الدولة فى حماية شواطئها من الغارات وسيادة أحواض هذا البحر .

وضعت الدولة الإسلامية يدها على جزء كبير من شواطئ البحر الأبيض خلال عصر الراشدين : شواطئ الشام ومصر حتى برقة ، ولم يكن للدولة الإسلامية إذ ذاك خبرة بشؤون البحر ولا أدوات الانتفاع به ، فاعتبرته ــ كما قلنا ــ حدوداً ينبغى تحصينها من غارات الأعداء ، وكان الخطر إذ ذاك من ناحية البيزنطيين عظيما ، إذ كانت لهم الأساطيل القادرة على مهاجمة شواطئ المسلمين ولديهم الرجال ذوو الخبرة بالملاحة البحرية ، ولهذا « كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حداً تسهل مهاجمته ، بينما كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر » ، وقد « أتاح خلو يد المسلمين ــ بطبيعة الحال ــ من أسطول عربى ميزة كبرى لعدوهم عليهم . . وبينما اتجه البيزنطيون إلى الانتفاع بما عندهم من المزايا ، اجتهد المسلمون فى تلافى نواحى الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها » [١] .

وكان أول ما فعلته الدولة الإسلامية لإدراك هذه الغاية ، هو تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال ، حتى تكون على الأهبة لرد

---

(١) M.A. Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 85.

كل عدوان يأتى من ناحية الروم ؛ وتلك كانت سياسة الدولة الإسلامية أثناء خلافتى عمر وعثمان ، وقد تولى تنفيذ أعظم جانب منها معاوية بن أبى سفيان فى الشام وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى مصر . فنقرأ فى النصوص كيف أن المسلمين اهتموا برم حصون بلاد الساحل ، كاللاذقية والبلدة وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت وشدها بالحاميات القائمة . ويعبر عن ذلك البلاذرى بقوله : « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها من قد يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد . فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل »[1] . ويزيد ذلك بياناً فى وضع آخر بقوله : « وحدثنى أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب له فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . ولم يأذن له فى غزو البحر ، وأن معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له فى الغزو بحراً ، وأمره أن يعد فى السواحل — إذا غزا أو غزى — جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبنى المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته . قال الوضين : ثم إن الناس — بعد — انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية »[2] .

واتبع المسلمون نفس الخطة فى مصر فى هذا الدور الأول من سياستهم البحرية ، فنجدهم يعنون برم حصون الإسكندرية و « السواحل » ، والمراد بالسواحل هنا المدن البحرية مثل تنيس ودمياط والبرلس ورشيد وثغور بنطابلس

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٨ . وانظر الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب بقلم فيليب حتى :

Ph. Hitti : Origins of the Islamic State (Princeton, 1916) p. 202.

(٢) البلاذرى : فتوح ، ص ١٣٤ و Hitti, op. cit. p. 196 . وقد عنيت بمراجعة ترجمة الأستاذ حتى لما فيها من الفوائد والإيضاحات .

(المدائن الخمس) وهى المعروفة اليوم بإقليم برقة [١] .

وفى خلافتى عمر وعثمان ، وبعد أن أصبح معاوية بن أبى سفيان عاملا على الشام كله ، نجد سياسة المسلمين نحو البحر الأبيض تخطو خطوة إلى الأمام . نعم إن عمر رفض أن يسمح لمعاوية بالغزو بحراً [٢] ، ولكنه عهد إليه فى تحصين السواحل وجعلها على الأهبة لرد أى عادية على عجل ، فنجد المسلمين يضعون نظاماً دقيقاً لحراسة السواحل ، فنقلوا إليها أقواماً من القادرين على الحرب ، وأقاموهم على السواحل وفى كبار مدنها فى معسكرات منظمة معدة ، وقسموا هذه القوات إلى عرافات ، وأقاموا « المناظر » على السواحل ، واقتبسوا من البيزنطيين فكرة اعطاء الإشارات بإيقاد النيران ، فإذا تراءت الإشارات أسرع كل جندى إلى عرافته وسار الجميع إلى موضع الخطر . ونجد هذا النظام فى أكمل صورة فى مصر ، حيث كانت إشارات « المواقيد » تتوالى من الساحل من موقد لموقد حتى تبلغ الفسطاط فيخف المدد على عجل ، وقد بلغ عدد حاميات السواحل فى الشام ستة عشر وفى مصر عشرة [٣] .

فإذا تم تحصين السواحل واطمأن المسلمون إلى أنهم قادرون على إحباط كل محاولة يقوم بها الروم للعودة إلى سواحل الشام ومصر ، أخذوا فى إنشاء أسطول خاص بهم يتولى مقاتلة الروم فى البحر ويعين المسلمين على ما يريدون غزوه من الجزر وغيرها من شواطئ الروم . وكان الهدف الأول من نشأة الأسطول الإسلامى سلمياً ، أى نقل الغلال من مصر إلى الحجاز . وقد اقترن هذا بحفر القناة التى تسمى فى النصوص « بخليج أمير المؤمنين » ، وهى قناة تخرج من النيل شمالى الفسطاط وتصل إلى خليج السويس عند القلزم [٤] ، وعقب ذلك اهتم العرب بإنشاء أسطول نهرى يوصل القمح إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (ط . تورى) ص ١٣٠ و ١٧٥ و ١٩٠ . والكندى : القضاة والولاة (ط . روفن جست) ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح ، ص ١٧٥ . المقريزى : خطط (ط . بولاق) ص ٢٦٦ — ٢٧١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتور ، ص ١٧٥ .

وأنشئت لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت « بجزيرة الصناعة » . وقد أظهر المصريون براعة فائقة فى بناء السفن ، فتكون على أيديهم أسطول نهرى ، بل تمكن المصريون من بناء سفن قوية تستطيع الاشتراك فى المعارك البحرية .

ى — موقعة ذات الصوارى البحرية ومكانها من تاريخ البحر الأبيض :

ويبدو أن هذه الهمة التى أبداها المسلمون فى بناء السفن ، هى التى حفزت الإمبراطور البيزنطى قنسطانز إلى الخروج فى أسطول بيزنطى ضخم للقضاء على ما كان لدى المسلمين إذ ذاك من أدوات للحرب فى البحر ، وكانت نتيجة ذلك واقعة ذات الصوارى ٣٤ —٦٥٥ التى تعتبر حادثاً فاصلا فى تاريخ الملاحة فى البحر الأبيض . ذلك لأن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوى المسلمين البحرية فى مهدها ، ولو وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين [١] .

ولا شك أن السفن التى اعتد بها معاوية فى الشام — والتى أخافت الإمبراطور البيزنطى وجعلته يتوقع خروج حملة بحرية إسلامية ضخمة لمهاجمة القسطنطينية بحراً — كانت من بناء أهل الشام ، أى أن نواة الأسطول الإسلامى كانت شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر ؛ فبينما سار معاوية بسفن الشام إلى قيصرية بآسيا الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح . وقد ألقى الأسطول الإسلامى مراسيه عند فونيكة [٢] على ساحل آسيا الصغرى ، وانتظر مقدم الأسطول البيزنطى .

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) جاء فى كتاب « مصر فى فجر الإسلام » للدكتورة سيدة الكاشف (القاهرة ١٩٤٧) تعليقاً على موقع فونيكة Phoenicus هذا نصه :

« انظر Justus Perthes : Atlas Antiquis. Tab. 18 D 3. ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر phoenix راجع :

M. Canard : Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926).

وقد ذكر الطبرى فى كلامه عن هذه الواقعة عبارة تدل على تردد المسلمين فى ملاقاة البيزنطيين فى معركة بحرية ، وعلى غرور هؤلاء وثقتهم من أنفسهم على ظهر الماء . قال رواية عن أحد من اشتركوا فى المعركة : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا : « الأمن بيننا وبينكم » ، قالوا : « ذلك لكم ولنا منكم » . ثم قلنا : « إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر » . قال : فتنخروا نخرة واحدة وقالوا : « الماء ! » [١] . ثم يلى ذلك وصف اللقاء كما سبق بيانه [٢] .

ويفهم من وصف المعركة أن كثيراً من قبط مصر اشتركوا فى هذه المعركة وهم على دينهم ، فقد اختلف عبد الله بن سعد مع محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر — وكانا فى المعركة — فقال عبد الله بن سعد : « لا تركبا معنا ، فركبا فى مركب ما فيه من المسلمين أحد » ، ووردت هذه العبارة فى موضع آخر هكذا : « فركب فى مركب وحده ما معه إلا القبط » [٣] . وقد كانت هذه المعركة حامية الوطيس حاسمة النتيجة ، إذ لم يعد البيزنطيون يجرؤون بعدها على منازلة المسلمين فى مواقع بحرية ، واكتفوا بمهاجمة سواحل المسلمين ، مما حفز هؤلاء على مضاعفة الهمة فى بناء السفن وإنشاء دور صناعتها ، « فيذكر البلاذرى أنه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم السواحل الإسلامية ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا » [٤] .

ولكن مصر ظلت مركز صناعة السفن الإسلامية ، وظل قبطها مشهوداً

وانظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ » .

انظر الكتاب المشار إليه ، ص ٩٤ هامش ١ .

(١) الطبرى : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) انظر عن هذا الوصف : خطط ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٤) سيدة الكاشف : نفس المرجع ، ص ٩٠ .

لهم بالتفوق فى مسائل إنشاء الثغور البحرية والحرب البحرية ، حتى كان يستعان بهم فى كل ناحية من نواحى المملكة الإسلامية ، وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم إشقاو ، والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة وفى القلزم والإسكندرية ؛ فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كان كثيراً ما يطلب من صاحب كورة إشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى ، كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية (١) » .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسى أيضاً وطوال عصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف الدول الإسلامية المصرية عن الاهتمام بشؤون البحر إلا فى عصر المماليك (٢) ، وكان هذا من سوء حظ العالم الإسلامى ، لأن هذه الفترة كانت فترة النهوض البحرى الأوروبى وقيام الجمهوريات الإيطالية التى انتزعت السيادة على مياه البحر الأبيض من أيدى المسلمين . قال ابن خلدون : « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك

---

(١) سيدة الكاشف : نفس المصدر ، ص ٩١ — ٩٢ والمراجع المعطاة فى الهوامش .

(٢) انظر : المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ١١٠ — ١١١ .

الروم والإفرنج »[١] .

هذا عن نصيب مصر والشام فى الجهاد البحرى للمجموعة الإسلامية ، وهو جهد لم تتهيأ له الظروف ليبلغ مداه ، لأن الدولة كلها اتجهت وجهة أخرى وسقط البحر الأبيض من حسابها ، وخرجت الولايتان البحريتان الكبيرتان مصر والشام من اهتمامها الحقيقى ، بل وقفت من الشام موقف العداء ، مما أضاع على الدولة الإسلامية فرص الاستفادة منه كمركز لسيادة البحر الأبيض ، ومن أهله كأداة لاستكمال فتح شواطئ هذا البحر وجزره وسيادة أحواضه ، وقد كان لهذا أخطر الآثار فى مجرى التاريخ الإسلامى بعد ذلك ، لأن البحر الأبيض على مدى التاريخ مركز القوة العالمية ومحور سياستها ، من ساده ملك زمام القوة فى زمانه .

وكانت أولى نتائج هذا التحول الكبير فى اتجاه الدولة الإسلامية ، أن تنفس البيزنطيون الصعداء وعادوا يحاولون استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، ولم تلبث سفنهم أن ملكت زمامه وهددت شواطئ المسلمين تهديداً خطيراً .

وقد أورد الأستاذ أدولف جروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٤١ هـ . — ٨٥٥ م تعطينا فكرة عن تهديد البيزنطيين لسواحل مصر حتى ذلك التاريخ ، وشدة اهتمام الولاة بدفعهم عن السواحل ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة فى الأسطول وحماية شواطئ الدولة الإسلامية ، وهذا نص الوثيقة :

« يابا حفص لو رأيت (ما) الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة : يوخذ (النو) اتية وغير النواتية وكلمن قدروا عليه أخذوه يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع أسأل الل (ه) الفرج من عند رحمته والأمير أيده الله قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى وأخرج معه جماعة من

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٦٢ . وانظر أيضاً : تاريخ ابن خلدرن ، ج ٦ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

الجند وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين أعزه الله يشدد عليه أن يريح عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك وإذا وردت الخريطة لعله الأمير أبقاه (الله) خرج إلخ »[١] .

وهى وثيقة ذات أهمية كبرى ، لأنها تدل على مقدار تعرض شواطىء المسلمين لغارات البيزنطيين ومدى خوف المسلمين منهم وعجزهم عن ملاقاتهم ، على هذا النحو الرائع الذى رأيناه خلال العصر الأموى والذى تصوره لنا وقعة ذات الصوارى بصورة أوضح من أن تحتاج إلى بيان .

وقد توقف تراجع المسلمين فى ذلك الحوض الشرقى حيناً من الزمن عندما استولى نفر من مسلمى الأندلس على كريت كما سنفصله فى موضعه ، ولكن الدولة العباسية لم تهتم بأمر كريت ومن فيها من المسلمين ، فلم تلبث أن ضاعت من أيدى المسلمين وعاد البيزنطيون يهددون سواحل الإسلام تهديداً خطراً متصلا واستعادوا بعض ما فقدوه . وقد بلغ هذا التقدم البيزنطى ذروته عند ما استولوا على أنطاكية وطرابلس وتعرضت سواحل المسلمين فى الشام ومصر لخطر شديد . نعم إن دول الطولونيون والإخشيديين والفاطميين كانت لها عناية بالشام وبعض المرافئ ، ولكن هدفها من تلك العناية كان برياً لا بحرياً ، كانت تريد أرض الشام لا سواحل الشام ، بل مالت الدولة الفاطمية إلى مهادنة البيزنطيين ومصالحتهم والاعتراف الضمنى بسيادتهم على الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وقد ظهر هذا بوضوح ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، وهو قرن النهوض البحرى لإيطاليا وغربى أوروبا . وعند ما بدأت سفن البنادقة تجوس خلال أمواه الحوض الشرقى للبحر الأبيض وجدت المجال أمامها متسعاً فسيحاً : المسلمون منصرفون عن البحر والبيزنطيون فى ضعف ، فاستغلوا الوضع أحسن استغلال لصالحهم ، انتزعوا سيادة الحوض الشرقى من البيزنطيين وأخذوا من أيديهم جزءاً كبيراً من تجارة الشام وهبطت العناية بالبحرية فى مصر إلى درجة لم نعد معها

---

(١) Adolf Grohmann : From the World of Arabic Papyri. Cairo, 1925. p. 122.

نسمع لها ذكراً فى تاريخ هذا البحر ، اللهم إلا فيما يتصل بالنشاط التجارى المحدود بين موانى مصر والشام وبعض نواحى المغرب .

ولو أن الدولة العباسية اهتمت بشؤون الملاحة فى البحار الأسيوية ، لقلنا إنها أفادت من تجارب الأمويين البحرية نحو قرن من الزمان ، ولكنهم لم يوجهوا أى عناية لشؤون البحار . فبينما أفاد الأمويون من أهل الشام ومصر فى تكوين قوة بحرية تؤمن سيادة الإسلام على جزء كبير من البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يلقون إلى ذلك بالا ؛ وبينما أهتم الأمويون بالاستيلاء على ما أمكنهم من شواطئ البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يفيدون من الملكات البحرية لشعوب الخليج الفارسى ولا يحفلون بإنشاء أسطول .

وقد ظلت البصرة — أكبر موانيهم — ميناء خطراً لا تأمن السفن الدخول فيه ، ولم تحاول الدولة إقامة منارة أو ناظور يعينان السفن على الدخول إليها أو الخروج منها ، وظل عماد الملاحين على مهارة أهل عبدان ، وهى فرضة البصرة على الخليج الفارسى ، وقد ظلت السفن تتحطم عند « الخشبات » فى مدخل عبادان دون أن تحاول الدولة إنشاء مرفأ صالح للسفن التى كانت تحمل خيرات آسيا إلى العراق. وظلت سفن المسلمين فى البحر الأبيض أضخم وأعظم من سفنهم فى المحيط الهندى ، واحتفظ أهل الشام بتفوقهم فى أمور البحار ، حتى فاقت أساطيلهم أساطيل الفاطميين وحالت بين البيزنطيين وبين استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وبخروج الخلافة الشرقية من ميدان البحر الأبيض ، انتقل واجب الدفاع عن مركز المسلمين فيه إلى الدول المغربية والأندلسية ، وقام بنو الأغلب فالفاطميون فبنو زيرى والأمويون الأندلسيون بحماية الشواطئ الإسلامية فى حوض البحر الأوسط والغربى ، وهم الذين حولوا هذين الحوضين إلى بحيرتين إسلاميتين ، بل احتلوا كريت وعدلوا جبهة الإسلام فى الحوض الشرقى ، واحتلوا جنوبى إيطاليا واشتبكوا مع الجنويين والبيزيين فى صراع بحرى عنيف ، امتد حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما سنرى . وسنعرض الآن لما قام به كل من المغرب والأندلس فى هذا الميدان على وجه الإجمال .

ك ـ المغرب الإسلامى والبحر الأبيض :

رأينا كيف كان أهل المغرب يساهمون بنصيب كبير فى النشاط التجارى فى البحر الأبيض قبل الإسلام ، وكيف كانت موانى الشمال الإفريقى مثل قرطاجنة وبونة وسلداى Salade وسبتة Septem وطنجة Tingis محطات هامة فى تجارة هذا البحر ، ترسو بها السفن بالمتاجر وتقلع عنها إلى موانى غالة وإيطاليا وإسبانيا أو تلم بها أثناء رحلاتها لتمتاز فيها ، وهذه الحركة التجارية البحرية النشيطة إنما هى مظهر لما امتاز به أهل سواحل المغرب من ملكات بحرية تجارية تظهر وتتجلى كلما أتيحت الفرص ، وهى مرتبطة أشد الارتباط بالحالة العامة داخل بلاد المغرب ، فإذا ساد السلام وجدنا أهل المغرب فى البحر ، وإذا اجتاحت البلاد موجات الفوضى أو الحرب القبلية أو الغزو الأجنبى سكنت الحركة فى موانى المغرب وانكمش المغاربة عن البحر حتى يعود الهدوء . وربما كان الأصل فى هذا النشاط المغربى هو نزول الفينيقيين شواطئه وإنشاؤهم المحطات التجارية البحرية على طول هذه الشواطىء ؛ وأهم هذه المحطات كانت قرطاجنة التى تحولت بعد ذلك إلى مستعمرة فينيقية فدولة قائمة بذاتها كان لها فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل .

ويختلف المغرب عن غيره مما دخل فى حوزة الإسلام من بلاد البحر الأبيض بأن النشاط البحرى يكون جزءاً لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى تبعاً لذلك ، لأن أخصب أراضى المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس إلى المحيط الأطلسى ، ومن دون هذا الشريط يقوم «سياج الجبال المتهيلة» — كما يقول ابن خلدون — وهى جبال درن أو الأطلس ، وتليها نواحى الصحراء تتخللها واحات وسهول ضيقة لا تتسع إلا فى أقصى الغرب فيما يعرف الآن بمراكش .

وسكان هذاالشريط الساحلى العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ، ولهذا كان أهله من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين ؛ وقد حاول الفاتحون المسلمون لأول دخولهم المغرب أن يقطعوا صلته بالبحر ، فتعمدوا نقل مركز الحياة فيه من « قرطاجنة » إلى بلدة داخلية اختطوها هى « القيروان » ، ثم أكدوا ذلك

الاتجاه بتخريب قرطاجنة ؛ ولكن طبيعة البلاد غلبت عليهم فأنشأوا عقب تخريبها « ميناء تونس » ، وكان الذى خرب الأولى وبنى الثانية واحداً هو حسان ابن النعمان .

وعلى الرغم من قيام « تونس » وتعمير المسلمين لناحية « العدوة » المغربية التى تعرف الآن « بالريف » واهتمامهم بسبتة وطنجة بسبب فتحهم الأندلس ، فإن حالة الحرب التى استمرت قائمة بين الإسلام والنصرانية أوقفت النشاط البحرى المغربى ، ودام ذلك طالما كان سلطان المشرق على المغرب قوياً مباشراً ، فلما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد إلى البحر الأبيض وعاد أهله إلى نشاطهم السابق فى حوضه الأوسط .

ذلك أن المغرب لم يظل خاضعاً للمشرق إلى ما لا نهاية — كمصر مثلا — بل دأب أهله من أول الأمر على التخلص من سيادة المشارقة ، ودخلوا معهم فى صراع طويل . وقد مر الصراع بين المشارقة وأهل المغرب فى أدوار ثلاثة : الأول من بدء الفتح الإسلامى إلى أوائل عهد الأغالبة ، وفيه كانت سيادة المغرب مداولة بين المشارقة والمغاربة ، لهؤلاء يوم ولأولئك يوم ، وقد فشل الكثير من العرب فى السيطرة على المغرب وسيادة أهله خلال هذه الفترة ، كما نرى فى محاولات آل عبد الرحمن بن حبيب وبنى هزارمزد . وقد كان القلق الذى ساد أمور المغرب ، واجتهاد قبائله البربرية فى التخلص من سيادة العرب ، هو الدافع الأساسى الذى جعل هارون الرشيد يترك إفريقية لمحمد بن الأغلب لقاء جزية سنوية مقررة . وقد خفت يد المشرق على إفريقية بذلك ، وإن سادتها أسرة عربية ذات اتجاه شرقى ، ولكن طبيعة البلاد وأهلها غلبت ، فانفتح باب البحر الأبيض أمام أهل إفريقية من جديد ، واشتد النشاط على سواحل إفريقية ذلك الاشتداد الذى بلغ ذروته فى فتح صقلية ومغازاة جنوبى إيطاليا .

وإذا نظرنا إلى الأمور من هذه الناحية ، تبين لنا أن فتح صقلية لم يكن مصادفة أو مجرد حركة فتح استمراراً لسياسة الفتوح الإسلامية العامة ، بل محاولة من المغرب لاستعادة مركزه فى البحر الأبيض فى نطاق إسلامى . لقد

اكتسب أهل المغرب من الإسلام شعوراً بأنفسهم ونزوعاً نحو السيادة ، وهذا النزوع هو الذى دفعهم إلى محاولة التخلص من سيطرة العرب عليهم أولاثم إلى سيادة حوض البحر الأبيض الأوسط والغربى بعد ذلك . وبينما كان المغرب قبل الإسلام تابعاً لما يقابله من شواطئ البحر الأبيض الشمالية نراه ينزع إلى سيادتها بعد الإسلام ، وقد تم له ذلك على خطوتين : الأولى تمت فى عصر الأغالبه بفتح صقلية والشواطئ الجنوبية لإيطاليا ، مما جعل الحوض الأوسط للبحر الأبيض والبحر التيرانى أيضاً تحت رحمة المغاربة المسلمين — وقد كانت العلاقات بين المغرب وغربى أوروپا إذ ذاك علاقات حرب وعداوة مستمرتين ، واستمر ذلك أيضاً طوال الفترة الفاطمية من تاريخ إفريقية . والثانية تبدأ عند ما استقل المغرب بأمر نفسه وتخلص من سيادة العرب والمشرق نهائياً فى عهد بنى زيرى وما تلاه ، وهنا لا تصبح الحرب هى العلاقة الوحيدة بين أهل المغرب ، وأوروپا النصرانية بل تدخلها علاقات التجارة وتبادل المنافع كذلك ، ويرتبط أهل المغرب مع أهل أوروپا النصرانية بالمعاهدات وتجرى بينهم السفارات ، وتصبح سيادة الحوضين الأوسط والغربى للبحر الأبيض المتوسط مداولة بين المسلمين المغاربة وأمم النصرانية . ولكن المتتبع لتطور الموقف فى هذين الحوضين يجد أن أمر المسلمين فيهما كان فى ضعف مع الزمن ، وانتهى الأمر بانتقال السيادة عليهما إلى أيدى أمم غربى أوروبا وخاصة بعد ضياع الأندلس . والحادث الحاسم الذى أضعف قوى المغرب البحرية هو الغزوة الهلالية التى شلت نشاط المغرب كله وأشاعت فى أنحائه الفوضى والخراب ، فلم ينهض من جديد إلا على أيدى المرابطين والموحدين .

وقد تتبع « ميكيلى أمارى » والبارون « ماس لاترى » تطور الموقف فى وسط البحر الأبيض وغربه بين الإسلام والنصرانية ، فأظهرا كيف أن سيادة المسلمين عليهما كانت تامة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى ، ثم بدأت شعوب غرب أوروپا تنازعهم هذه السيادة ابتداء من عهد ببين الكبير منشئ البيت الكارولنچى ، بل بلغ الأمر أن نزلت قوة نصرانية يقودها الكونت بونيفا تيودى لوكا على سواحل تونس سنة ٨٢٨—٢١٣ . وفى نهاية ذلك القرن نجد السفن

الأوروبية أقوى من سفن المسلمين وأحسن بناء [١] ، وقد توقف تقدم النصارى فترة بسبب نهوض المغرب فى عهد الفاطميين فبنيت المهدية سنة ٣٠٨–٩٢٠م وأصبحت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية ضد أوروبا الغربية ، ودور هذا الثغر فى تاريخ البحرية الإسلامية وتاريخ البحر الأبيض كله عظيم ، وهو جدير بدراسة على حدة .

ولا تحدثنا مراجعنا العربية عن النشاط البحرى العظيم الذى أبداه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادى ، لأن معظم هذا النشاط كان نشاطاً غير رسمى ، أى أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحساب أنفسهم ، ولكن حوليات النواحى التى وجه المغاربة إليها نشاطهم تعطينا فكرة واضحة عنه ، وهى تصف هذا النشاط بأنه كان نشاط قرصان لا هدف له غير السلب والنهب ، ولكننا عندما ندرس القليل من النصوص العربية التى بين أيدينا نتبين أن الدافع الأكبر لهذا النشاط كان الحرب الدينية ومغازاة بلاد النصارى ، لأن حوض البحر الأبيض أصبح منذ دخول الإسلام دار حرب ، والجهاد الدينى كما نعلم لا يتنافى مع اكتساح المغانم وأسر الناس وتخريب المواقع ، والحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر : إسلامية أو نصرانية . ومما هو جدير بالذكر أن العرف الإسلامى كان يستنكر الإسراف فى النهب والسلب ، ومصداق ذلك هذا الخبر الذى يسوقه النويرى عن أول غزوة قام بها المسلمون من المغرب على سردانية ، قال : « ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة ، وهى فى بحر الروم كثيرة الفواكه ، فدخلوها فى سنة اثنتين وتسعين (٧١١ – ٧١٢ م) ، فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع فى الماء ، وجعلوا أموالهم فى سقف البيعة الكبرى التى لهم تحت السقف الأول ، وغنم المسلمون منها ما لا يحد ولا يوصف ، وأكثر الغلول . واتفق أن رجلا من المسلمين اغتسل فى الماء ، فعلق فى رجله شىء فأخرجه ، فإذا هو صحفة من فضة ، فأخرج المسلمون جميع ما فيه . ودخل رجل من المسلمين إلى

---

(١) Michele Amari : Diplomi Arabi.

تلك الكنيسة ، فنظر إلى حمام ، فرماه بسهم فأخطأه ، ووقع فى السقف ، فانكسر لوح ، ونزل شىء من الدنانير ، فأخذوا الجميع ، وزادوا فى الغلول ، فكان بعضهم يذبح الهر ويرمى ما فى جوفه ويملؤه دنانير ، ويخيط عليها ويلقيه فى الطريق ، فإذا خرج أخذه . وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهباً ، فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلا يقول : اللهم غرقهم ! فغرقوا عن آخرهم »[١] .

وهذه الرواية تدل على أن نشاط مسلمى المغرب فى البحر بدأ منذ زمن مبكر وتدل كذلك على أن غزوات المسلمين البحرية لم تكن كسباً كلها .

وسنذكر هنا أهم ما قام به أهل المغرب من أعمال حربية فى حوض البحر الأبيض حتى فتح صقلية ، وينبغى أن ننبه إلى أننا نعتمد هنا على مراجع أوروبية لاتينية لا يفرق معظمها بين ما كان يقوم به أهل المغرب وما كان يقوم به أهل الأندلس من أعمال فى هذا المضمار . والحقيقة أنه من العسير جداً أن نفصل ما قام به كل من الجانبين عن الآخر ، فقد كان الجانبان على نشاط عظيم فى البحر على طول العصور الإسلامية ، حتى فتح صقلية اشتركت فيه جماعات أندلسية . بيد أننا نستطيع أن نقول إن الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر الأبيض الأوسط كان مغربياً ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسياً .

فعقب فتح المسلمين للمغرب ، وقبل نهاية القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادى) ، نجد مسلمى المغرب يهاجمون شواطىء إيطاليا الجنوبية والغربية ، ثم وجه المسلمون جهودهم نحو صقلية ، وقاموا من إفريقية (تونس) بغارات متوالية عليها ابتداء من سنة ٣٢–٦٥٢ م . إذ يذكر ثيوفانيس أن المسلمين هاجموا صقلية فى ذلك التاريخ ، ثم سكن النشاط البحرى حيناً ليتجدد من أوائل القرن الثامن الميلادى ، فنجد المسلمين يهاجمون صقلية فى سنوات ١٠٢–٧٢٠ و ١٠٩–٧٢٧ و ١١٠–٧٢٨ و ١١٢–٧٣٠ و ١١٤–٧٣٢ و ١٣٥–٧٥٢ و ١٣٦–٧٥٣ ولكنها كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى إلى فتح الجزيرة .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ (ط . جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٩) ص ٢٢ . وانظر الترجمة الإسبانية لهذا الجزء ، ص ٣٣ .

وكان من الممكن أن يستمر الأمر على ذلك المنوال ، لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغالبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصاً له من متاعب داخلية كثيرة ، فقد كان اضطهد « جند » العرب لكثرة شغبهم وحاول القضاء عليهم ، وكون لنفسه جيشاً من « السودان » قوامه « ألف أسود » ليستغنى بهم عن جند العرب والبربر . ولكن الأمر لم يتحسن لأن الخصومة اشتدت بين السودان والعرب والبربر وتعرضت الدولة كلها للضياع ، ففكر زيادة الله فى ميدان واسع يلقى فيه بهؤلاء وهؤلاء ليشغلهم به عن نفسه . وتطلع ببصره ناحية صقلية ، وكانت الدولة البيزنطية فى شغل بنفسها عن أمور صقلية ، واستبد بالأمر فيها قائد بيزنطى — هو يوفيميوس Euphemius الذى تسميه المراجع العربية « فيمه » — فحاولت الدولة إخضاعه فاستغاث بزيادة الله ، فعجل بتجهيز حملة لفتح صقلية ووضع على رأسها قاضياً مسناً هو أسد بن الفرات.

وخرجت الحملة الإسلامية سنة ٢١٢–٨٢٧ من سوسة ، ونزلت الجزيرة وحاصرت « سرقوسة » ولم تستطع الاستيلاء عليها أول الأمر ، لأن أسطولا بيزنطياً خف لعونها ، وكادت الحملة تفشل ، لولا مدد ساقه الله من الأندلس ، كان مكوناً من نفر من مجاهدة البحر فيها أسرعوا بتخليص المسلمين الذين كانوا قد تحصنوا فى جبل مينيو Minio ، فتمكن المسلمون من الاستيلاء على « بلرم » فى ٢١٦ / ٨٣١ بعد حصار عام ، وحاول البيزنطيون المقاومة ، ولكن النابليين انضموا إلى المسلمين ، فسقطت مسينا فى أيديهم سنة ٢٢٩–٨٤٣ . ثم تجرد المسلمون لحصار آخر المعاقل البيزنطية الكبرى وهى سرقوسة ، فسقطت سنة ٢٦٥ — ٨٧٨ بعد حصار طويل ، وكانت قصريانه Castrojiovanni قد سقطت قبل ذلك سنة ٢٤٥ / ٨٥٩ ، ولم تسقط طبرمين Tauromenium إلا سنة ٢٩٦–٩٠٨ ، أى أن المسلمين أنفقوا ١٣٨ سنة فى فتح هذه الجزيرة ولم تخلص لهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين .

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الإسلامى ، فإن سيطرتهم عليها جعلت مفتاح حوض البحر الأوسط الأبيض والغربى فى أيديهم ، وإذا كان المسلمون لم يحسنوا الاستفادة من صقلية كبلد عظيم وقع فى أيديهم

وكان فى إمكانهم تحويله إلى بلد إسلامى خالص ، فلم يلبث أن ضاع من أيديهم ، إلا أنهم أفادوا منه كمفتاح بحرى عظيم القيمة ، وعرفوا كيف يهددون منه إيطاليا كلها ، ويسودون البحر التيرانى كله ، ويفتحون أجزاء كثيرة من إيطاليا . ومن أسف أن دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى لم تضع سياسة بحرية رسمية تمكنهم من الإفادة من صقلية مركزها ، ولكن مرابطة المسلمين ومجاهدة البحر قاموا بجانب مما قصرت الدول المغربية الرسمية فى أدائه ، فأظهروا نشاطاً عظيما فى الغزو فى البحر ، وتمكنوا من موالاة الغزوات على جنوبى إيطاليا وغربيها ؛ ولو أن الدول الإسلامية المغربية أيدتهم فى أعمالهم ونظمتهم ، لكان للمسلمين فى حوض البحر الأبيض تاريخ آخر .

وقد اشرنا إلى أنه من العسير التمييز بين ما قام به أهل المغرب وأهل الأندلس من أعمال فى البحر فى ذلك الحين ، لأن مصادرنا هنا لاتينية أوروبية ، وهى لا تميز بين المسلمين بعضهم وبعض ، بل تضعهم كلهم فى طائفة واحدة ، فتسميهم تارة « المغاربة » Mauri أو « قرصان » أو ساراسينى Sarraceni ، ولكننا نستطيع أن نقول إن أهل المغرب هم أصحاب كل ما ينسب للمسلمين من أعمال فى إيطاليا ، وأهل الأندلس هم أصحاب ما سوى ذلك .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر أعمال مسلمى المغرب فى حوض البحر الأبيض يحسن أن نلقى نظرة على السياسة البحرية لكل من دول المغرب التى تولت الأمر فيه خلال الفترة التى ندرسها ، وهى دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى بفرعيها : أى بنو زيرى أصحاب ما يعرف الآن بتونس ، وبنو حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم والتى سادوا منها المغرب الأوسط .

فأما بنو الأغلب فكانت الأمور مضطربة فى أيديهم إلى درجة لم تمكنهم من رسم سياسة بحرية ، وإنما كان جل اهتمامهم بمحاربة الخارجين عليهم من البربر والعرب ، ولو أن الأمور استقرت فى أيديهم فى المغرب لكان لهم فى البحر دور كبير ، فقد كان للكثير من أمرائهم نزوع إلى الكفاح البحرى واهتمام بأمور السواحل وانصراف إلى الجهاد الدينى . ولكنهم كانوا بيتاً قليل الملكات ورث بلد يضطرب كل ما فيه ، بيد أنهم تمكنوا على أى حال من إقرار السلام

فى إفريقية – وهى ما يعرف الآن بـ « تونس » – لفترات طويلة نوعاً ما ، وخلال هذه السنوات انتعش أهل إفريقية وتفتحت نفوسهم للجهاد ، فكان هذا النشاط البحرى الذى ذكرناه ، وهو جهاد معظمه غير رسمى ، بل كان الذين قاموا به من خصوم الدولة ، فعلى طول الشواطىء التونسية قامت جماعات « المرابطين » ، وهم جماعات من الأتقياء كانوا لا يرضون عن الأغالبة ، فانصرفوا عنهم واعتزلوا على شاطىء البحر فى مواضع مثل « المنستير » و « سوسة » و « تونس » ، وهناك ابتنوا حصوناً كانوا يسمونها « قصوراً » يقيمون فيها رهباناً مجاهدين ، يحرسون المسلمين ويغزون النصارى . ويفهم من النصوص أن أعدادهم كانت كثيرة وأن جهدهم فى الحرب كان عظيما . والغالب أن هؤلاء هم الذين قاموا بمعظم النشاط البحرى المغربى مستقلين عن الدولة الأغلبية .

ثم كانت الأحداث التى ذكرناها والتى جرت إلى فتح صقلية . والمتأمل لأحداث هذا الفتح يتبين أن معظم أعمال المسلمين فيه كانت جهاداً حراً لم تتدخل الدولة فيه إلا بقدر قليل . ولقد ألقى زيادة الله فى ميدان صقلية بأعداد كبيرة من اليمنيين والخراسانيين والبربر ، وانضمت إليهم هناك جماعات من الأندلسيين ، وكانت هذه الجماعات متنافرة متباغضة ، فوقع النزاع بين بعضها والبعض لأول سنوات الفتح ، فتلكأ وتعطل . وكلما تقدم الفتح زاد الخلاف بين هذه الطوائف ، وخاصة بين المغاربة جملة والأندلسيين جملة . وقد بلغ الخلاف بينها مبلغاً خطراً على أوائل القرن العاشر الميلادى ، مما اضطر إبراهيم بن الأغلب إلى الذهاب إلى الجزيرة بنفسه لتهدئة الأحوال . وقد كان لهذا العمل أثر طيب إذا اجتمعت قلوب مسلمى صقلية ، وتمكنوا من الاستيلاء على آخر معقل بيزنطى فى الجزيرة وهو طبرمين سنة ٩٠٨ .

غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد ، وتقسمت البلاد بين الطوائف تقسما محزناً مما عجل بأيام الإسلام فى صقلية . وقد زار الجزيرة بعد ذلك بسنوات الجغرافى ابن حوقل النصيبى ووصف ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفاً يدعو إلى العجب ، ويدل على أن الخلاف بين المسلمين لم يصل فى بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الأمر فى صقلية ، حتى أن الابن كان ينافر أباه

ويرفض الصلاة معه فى مسجد واحد ، فكان لكل قادر منهم « مسجد جامع وإمام » .

ولكن النشاط البحرى لمسلمى صقلية كان مستمراً رغم ذلك ، ولكنه كان نشاطاً موزعاً مفرقاً : كل جماعة فى موضع على الساحل تعمل لحسابها مستقلة عن الأخريات ، فلا غرابة والحالة هذه أن نجد أعمالهم مجرد غارات سريعة قليلة الأثر يغنم المغيرون خلالها ما يصل إلى أيديهم فى الموضع الذى ينزلون فيه من شواطئ إيطاليا ثم يعودون .

وأما الفاطميون فلهم فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل ، سواء خلال الفترة المغربية أو المصرية من تاريخهم ، غير أن نشاطهم خلال الفترة الأولى كان موزعاً بين محاربة النصارى ومحاربة الأمويين الأندلسيين ، تارة يشتبكون مع هؤلاء وتارة مع أولئك بغير تفريق ، ويتعقبون سفن الأندلسيين وسفن النصارى بنفس الهمة ، ولكنهم رغم ذلك كانوا أعظم أثراً فى البحر ممن سبقهم وممن تلاهم من بنى زيرى . فقد عرفوا كيف يكونون أسطولا قوياً كما نجحوا فى تكوين جيش كبير ، وقد بلغ نشاطهم البحرى ذروته على أيام عبيد الله المهدى ، ففى عهده استقرت أقدام المسلمين فى سردانية ، وهو الذى تنبه إلى أن سردانية أصلح القواعد لمهاجمة الغرب النصرانى ، فأنشأ فيها مراكز قوية ونقل إليها قوات كبيرة من المسلمين . ثم جمع قوات المسلمين فيها وقام منها بأخطر هجوم إسلامى عرفته چنوا سنة ٣٣٢ — ٣٣٣ ﻫ . وربما كان سر اهتمامه بسردانية هو خوفه من الأندلسيين ، ورغبته فى حماية شواطئه وشواطئ صقلية منهم .

وفى عهد عبيد الله المهدى أنشئت « المهدية » فى تونس ، وهى التى ستصبح أقوى مركز بحرى إسلامى للعمليات البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد قام هذا البلد بعبء الكفاح ضد النصرانية بقية العصر الفاطمى وعصر بنى زيرى ، ومنها خرجت أقوى الحملات الإسلامية على جنوبى إيطاليا .

وعند ما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل إليها نشاطهم البحرى أيضاً ، بيد أن نشاطهم البحرى خلال الفترة المصرية من تاريخهم لم يكن يهدف إلى مغازاة البيزنطيين بل إلى حماية شواطئهم الطويلة منهم ، فقد سيطر الفاطميون على

شواطئ الإسلام من أنطاكية إلى الإسكندرية ، وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله ، فشغلوا به عن المغازاة فيما وراء البحر من بلاد النصرانية .

وقد تمكن الفاطميون من سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض سيادة تامة أمنت أمواهه ، فجرت السفن بالمتاجر ما بين شواطىء الشام ومصر ونشطت الموانى والثغور نشاطاً عظيما لم تبلغه فى فترة ماضية ، فاتسعت أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتنيس اتساعاً كبيراً وعظمت تجارتها ، حتى لقد طلب الإمبراطور البيزنطى من الخليفة الفاطمى أن يتنازل له عن تنيس فى مقابل مال عريض ، وتنيس كانت تقوم على جزيرة فى الماء ، فحسب البيزنطيون أن الخليفة الفاطمى لا يعدها من أرض مصر ويتنازل عنها ، وكانت أعظم مركز للنسيج فى العالم الإسلامى إذ ذاك ، وكانت تقدم للبلاط البيزنطى أحسن أنواع الحرير الأرجوانى ، وكانت منظمة نظاماً صناعياً تجارياً عظيما . وتقدمت — نتيجة لهذا النشاط البحرى — صناعة السفن الإسلامية ، حتى كانت سفنهم فى شرق البحر الأبيض أحسن وأضخم من سفنهم فى بحار الهند وآسيا .

وكان الفاطميون بطبعهم أصحاب عناية بالاقتصاد وشؤونه ، وكانوا ذوى حرص على طرف الصناعة ، حتى لقد ضمت خزائنهم منها أحصى المقريزى بعضه فى صفحات كثيرة من خططه ، وربما كان هذا هو السر فى ارتفاع أمر التجارة والتجار فى عصرهم . وكان الفاطميون فى سياستهم العامة أميل إلى مصالحة البيزنطيين فى موانى الإسلام وبعض مدنه ، ونجد تجار المسلمين يدخلون أراضى الدولة البيزنطية ويتاجرون معها فى حرية تامة . أى أن الفترة الفاطمية تعتبر فترة الأوج فى النشاط البحرى التجارى الإسلامى فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

ومن الطبيعى والحالة هذه أن نجد النشاط البحرى الحربى الفاطمى قليلا نسبياً ، يكاد يقتصر على الدفاع عن مياه دولتهم ولا يتعداه إلى الغزو والفتح . وليس أدل على ذلك من قلة اهتمامهم بقاعدة كبرى مثل قبرص . فهذه الجزيرة الكبيرة التى تعتبر مفتاح الحوض الشرقى للبحر الأبيض كانت على أيامهم فى حالة هى وسط بين الخضوع للمسلمين والبيزنطيين : لقد بدأ هؤلاء الأخيرون

غزوها سنة ٢٨–٦٤٩ أيام معاوية بن أبى سفيان وكانت لهم فيها وقائع وحروب اشترك فيها نفر من الصحابة ونسائهم ، وأهمهن أم حرام التى استشهدت هناك ولا زال قبرها إلى الآن على مقربة من لارانقا Laranca أكبر المزارات الإسلامية فى الجزيرة .

وقد ظلت الجزيرة خلال العصر الأموى قسمة بين المسلمين والروم ، فكانوا يتقاسمون خراجها بناء على اتفاق تم بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩–٦٨٨ . ويقال أن هارون الرشيد أراد أن يحسم موقف الإسلام فى هذه الجزيرة ، ولكنه لم يفعل شيئاً . ومن الثابت على أى حال أن معظم أهل الجزيرة كانوا نصارى إلى عهده .

وعند ما نهضت الدولة البيزنطية على أيام المقدونيين تجرد هؤلاء لاستخلاص الجزيرة ، فغزوها فيما بين سنتى ٢٦١–٨٧٤ و ٢٦٨–٨٧٦ ثم استعادها للدولة البيزنطية نقفور فوكاس فيما بين سنتى ٣٥٢/٩٦٣ و ٣٥٩/٩٦٩ ، وقد خرجت من أيدى المسلمين من ذلك الحين .

ولم يحاول الفاطميون استعادتها ، فظلت فى يد البيزنطيين حتى انتزعها منهم ريتشارد قلب الأسد أثناء الحروب الصليبية ، ووهبها لفرسان الداوية ، ثم انتقلت إلى يد جى دى لوزينان ، وظلت خاضعة للفرنجة ٤٠٠ سنة حتى فتحها بيبرس البندقدارى سنة ٦٧٩–١٢٧٠ .

وقد يكون الفاطميون أعظم دول الإسلام اهتماماً بشؤون البحر بعد الأمويين ، وقد يكون ذلك أثراً من الآثار المغربية فى تكوين دولتهم ، فإن البحر — كما قلنا — يكون جزءاً لا يتجزأ من كيان المغرب الاقتصادى والاجتماعى والسياسى أيضاً ، وذلك لأسباب جغرافية ألمعنا إليها فيما مر . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية الفاطمية وصلت إلى درجة كبيرة من القوة والانتظام قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، يدل على ذلك هذا النشاط البحرى العظيم الذى تحدثنا عنه على أيام عبيد الله المهدى . فلما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل معهم هذا الاهتمام بالبحر وشؤونه ، وزاد أمره عند ما استقرت الدولة فى مصر ، ووجدت فى البلاد تقاليد بحرية قائمة ودور صناعة صالحة ، وإن كان الإهمال قد كاد يعفى عليها .

وللقلقشندى فقرة ذات قيمة عظيمة فى هذا الباب ، لا بأس بأن نوردها بنصها لأنها تغنينا عن كثير من الكلام . قال تحت عنوان « فى اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتنائهم بأمر الجهاد وسيرهم فى رعاياهم واستمالة قلوب مخالفيهم »

« أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتناؤهم بأمر الجهاد ، فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين ، وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً ! وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم ، فيجلس فى منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة (= التوديع) ، ويأتى القواد بالمراكب التى تحت المنظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة فى بعضها ، فتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما يفعل حالة القتال ، ثم يحضر إلى بين يدى الخليفة المقدم والريس فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة ، وتنحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح ، فيكون لها فى بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركباً اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يساهمون فيه . وكان لهم أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم ، وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاث ، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه » .

وقد عقد الدكتور عبد المنعم ماجد فصلا طيباً عن البحرية المصرية فى العهد الفاطمى فى كتابه عن « نظم الفاطميين » . وسنورد هنا فقرات منه ، لأنه يصور لنا البحرية المصرية -- والإسلامية عامة — فى أوجها فى شرق البحر الأبيض قبل الحروب الصليبية ، وهو يتمم ما قلناه عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ البحرية الإسلامية عامة .

أشار ماجد إلى ضعف الأسطول المصرى على أيام الطولونيين والإخشيديين ، ثم ذكر كيف أن مركز الفاطميين فى شرق البحر الأبيض فرض عليهم الاهتمام بالأسطول والبحرية ، وذكر -- رواية عن القلقشندى — كيف أن « وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بجميع الشواطىء الساحلية ، مثل : الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافىء سوريا . ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل سوريا لم تبق لهم طول عهدهم ، فقد غلبهم عليها الصليبيون فى القرن الأخير من حكمهم » . ثم أشار إلى دور الصناعة فى مصر الفاطمية وقال : « وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة « دور الصناعات » فى عصر الفاطمى توجد فى العاصمة ، فكانت المقس التى أنشأها الخليفة المعز فى شمال القاهرة على ساحل النيل ، تقوم ببناء ستمائة قطعة ، كما كانت جزيرة الروضة التى عرفت فى العهد الفاطمى باسم « جزيرة مصر » تقدم أيضاً بانشاء المراكب البحرية .

« وقد وجدت أماكن أخرى متعددة فى مصر وفى الإمبراطورية لبناء المراكب ، فيروى المقريزى أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط بمدينة الإسكندرية ودمياط .

« وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضرورى لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففى مصر كانت تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط ، فى البهنساوية والأشمونية والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وهى ذات أعواد قوية تصلح فى عمل المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً فى الحصول على الخشب اللازم لأسطولها من البندقية ، مما دعا بيزنطة إلى الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم البندقية ، الذى اضطر

أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى مصر » .

ثم تكلم عن الأسطول ومراكبه فقال : « فيأتى فى طليعة مراكب الفاطميين فى مصر أسطول تجارى يملكه الخليفة ، فى غاية النشاط . فقد عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافى لمصر ، فى مفترق سير المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فأنشأوا أسطولا تجارياً كبيراً ، بقصد التجارة العالمية وبخاصة مع الهند . ويروى ناصرى خسرو فى رحلته بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مركب راسية فى تنيس ، عدا ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملكاً للخليفة . ولا ريب أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبنى فى دور صناعة الدولة ، وإن لم تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

« أما عن الأسطول الحربى ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : « الشوانى » ، جمع « شينى » أو « شونة » ، وهى من أهم قطع الأسطول الفاطمى وأطولها ، وتجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع وللهجوم ، وتحتوى على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء الحلو . و « الحراريق » جمع « حراقة » وهى من أكبر المراكب أيضاً ، وإن كانت أقل من الشونة حجماً ، وتستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو ، ولذلك كانت مزودة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير . و « البطس » جمع « بطسة » وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعاً ، وهى تستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وعلى الأخص الرجال ، فيروى المقريزى أن إحدى « البطس » كانت تحمل ألفاً وخمسمائة شخص . والمراكب المسماة « أغربة » جمع « غراب » وهى من المراكب الحربية شديدة البأس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التى كانت على شكل رأس غراب . و « المسطحات » جمع « مسطحة » أو « مسطح » ، وهى نوع من كبار سفن الحرب المسوحة . و « الطرائد » جمع « طريدة » ، وكانت تستخدم فى نقل الخيل . و « الشلنديات » جمع « شلندى » ، وكانت من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم فى نقل

البضائع . و « القراقير » جمع « قرقورة » ، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول . و « الحمالات » جمع « حمالة » ، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول .

« وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى مثل : « الطرادات » جمع « طراد » أو « طرادة » ، وهى سفن حربية صغيرة على هيأة البرميل ، بدون سطح ، وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها . و « الشبابيك » جمع « شبك » أو « شباك » ، وهى من سفن الأسطول الصغيرة ، ذات ثلاثة قلاع ، وقد تسير بالمجاديف . و « الفلايك » جمع « فلوكة » ، وهى مراكب صغيرة سريعة تتحرك بالمجاديف . وكانت « القوارب » جمع « قارب » و « الزوارق » جمع زورق » ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهى مراكب من غير شراع ، وتستعمل — فى العادة — لنقل الأشخاص .

« وكانت الدولة تملك أسطولا نهرياً يسير فى النيل مثل المراكب التى يقال لها « عشاريات » جمع « عشارى » ، وكانت تسمى فى العصر المملوكى « حراقة » ، وتستخدم فى جمع غلات الدولة وغيرها . ويقول ابن الطوير بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى « دماميس » جمع « ديماس » أو « ديماس » برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار فى الدولة . وكانت « الشذوات » جمع « شذات » و « السميريات » جمع « سميرية »، تستعمل فى نقل المؤن والعساكر فى الأنهار. أما المراكب المسماة « علابيات » و « حمائم » و « سنابك » ، فكانت معروفة من قبل فى عهد ابن طولون وتسير فى النيل .

« ويشير القلقشندى ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمى ، إلى وجود أسطول صغير قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب فى مرفأ عيذاب ، كان يقوم بأعمال الحراسة فى البحر الأحمر وتنظيفة من القرصان .

« ويصف لنا ابن جبير ، الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين ، كيفية صنع المراكب التى كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى « جلاب » جمع « جلبة » فهى كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخل ،

ثم تسقى المراكب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش — وهو أحسنها لتليين الأعواد ، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ، وكانت هذه المراكب لخفتها تحمل على ظهور الجمال ، وتسير بالمجاذيف أو بالشراع » .

وقد نقلنا هذه الفقرة الطويلة لأنها تعطينا فكرة واضحة جداً عن هيأة الأسطول الفاطمى المصرى وسفنه ، وتصور لنا البحرية المصرية فى ذروتها قبل الصليبيات .

وجدير بالملاحظة أن أسلوب الحرب البحرية الذى جرى عليه المسلمون فى العصر الفاطمى ، كان هو نفس أسلوبهم الذى تكلمنا عنه عند كلامنا عن موقعة ذات الصوارى ، وهو نفس أسلوب الحرب البرية ، وفى ذلك يقول ماجد :

« وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحرى المختلفة ، ولكنا نجهل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية ، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش . فيروى القلقشندى أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن القسى التى تشد بواسطة اليد أو الرجل ، أما عن أسلحة المراكب الكبرى فإنها كانت تزود على الأخص « بالمنجنيقات » و « العرادات » لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، و « بالكلاليب » ، وفائدتها أنها تلقى على مراكب العدو فيوقفونه ثم يشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه وكان الأسطول الفاطمى — مثل أساطيل الدول فى ذلك العصر — يستخدم النفط أو النار الإغريقية ، التى تكلمنا عنها فيما سبق ، فكان يستعمل نوعاً من النفط يسير على الماء دون أن ينطفىء ، فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو . وعلى العكس ، كانت المراكب الفاطمية تحتمى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى « لبوس » ، عليه غطاء يسمى « لبود » من جلود البقر الطرية أو من البسط ، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان . وليس من شك فى أن القطع البحرية الفاطمية كانت مزودة أيضاً بكل ما هو ضرورى للحرب فى البر ، فكانت المراكب تحمل الأسلحة التى تستخدم فى نقب أسوار الموانى المعادية ، مثل « الأبراج » و « الدبابات » و « السلاليم »

وحتى « الحبال » .

« ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام ، ضمن معدات أسطول صقلية ، فكان هذا الحمام – على ما يظهر – يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول ، أو بينه وبين القيادة العامة فى البر . أضف إلى أن مركب « رئيس الأسطول » كان يزود بفانوس خاص لتهتدى به المراكب الأخرى فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه » .

بيد أن ذلك كله ضعف شيئاً فشيئاً مع ضعف الدولة الفاطمية العام ، وخاصة خلال النصف الثانى لعهد المستنصر الطويل ، إذ تخلخلت نظم الدولة كلها وقلت اهتماماتها وعجزت عن موالاة البحر بالاهتمام اللازم . وكانت النتيجة أن طلائع الحروب الصليبية عند ما بدأت لم تجد فى حوض البحر الأبيض الشرقى من قوى المسلمين البحرية ما يقف أمامها ، وكان لهذا أثره البعيد فى تاريخ هذه الحروب . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية المصرية لو كانت على هذا الحال من القوة أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لكان لتاريخ الحروب الصليبية كله اتجاه آخر .

ونعود بعد ذلك إلى عرض بقية أوجه النشاط البحرى لأهل المغرب الأسلامى ولا يتسع المقام لذكر التفاصيل ، ولهذا فسنكتفى بذكر أهم الوقائع وتواريخها .

ففى سنة ٨١٢ هاجم المغاربة لمبيدوزا Lampedouza وبوتزا وإيشيا على الشواطئ الإيطالية ، وتغلبوا على ما حاوله أهل أمالفى وغايته من ردهم .

وفى سنة ٨٣٦ شن أهل المغرب وصقلية حملة كبرى على جنوبى إيطاليا ، واحتلوا برنديزى Brundisium سنة ٨٣٦ وملكوا هذا البلد ثلاثين سنة من ٨٤٠ إلى ٨٧٠ . وفى سنة ٨٣٦ هاجموا نابلى وحاصروها دون جدوى . وفى سنة ٨٣٧ قاموا بغزوة كبيرة اجتاحوا فيها إقليم قلورية Calabria كله ، وخربوا مدينة كابوا Capua سنة ٨٤٠ ، واحتلوا بنفنتو – Benevent وحكموها خمس سنوات ٨٤٢ – ٨٤٧ ، وتخلصت منهم لفترة قصيرة عادوا إليها بعدها ، واستولوا على ثارنت Tarentum وحكموها أربعين سنة ٨٤٠ – ٨٨٠ ، واحتلوا كذلك بارى سنة ٨٤١ وظلوا فيها إلى ٨٧١ ، وغزوا روما وخربوا بعض أجزاء من

كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ، وفيما بين سنتى ٨٧٦ ، ٨٧٧ قاموا بغارة شديدة على ولاية كمبانيا Campagna ، وفى سنة ٨٨٣ تقدموا شمالى روما ووصلوا إلى مونت كاسينى وخربوها . وفى نفس الوقت نزلت جماعة من مهاجرة البحر الأندلسيين شاطئ إيطاليا الشمالى الغربى واجتاحت نواحى كثيرة من شمالى إيطاليا ووصلت إلى جبال الألب .

وفى سنة ٨٠٩ بدأ الأندلسيون فى غزو قرصقة وسردانية ، وكانت الأولى تابعة للبيزنطيين والثانية للفرنجة .

وفى سنتى ٨٣٤ و ٨٣٥ هاجم أسطول أغلبى خرج من صقلية جنوة وخربها ، وغزا أسطول الأغالبة من المغرب وصقلية قورصقة وسردانية مرة أخرى وثبتت أقدام الأغالبة فيهما إلى سنة ٨٣٠ ، ثم انتقلت إلى طاعة الفاطميين حتى سنة ١٠٠٣ ، ثم صارت إلى الأندلسيين وظلت فى أيديهم إلى سنة ١٠١٦ حيث بدأت قوات جنوا وبيزا المتحدة تهاجمها ، ولم تستخلصها من أيدى المسلمين إلا فى سنة ١٠٥٠ .

وفتح الأغالبة مالطة سنة ٨٢٤ وظلت فى أيدى المسلمين إلى سنة ١٠٩٠ حيث انتزعها منهم النورمان .

وفى سنة ١٣٠–٧٤٨ فتح والى إفريقية عبد الرحمن بن حبيب جزيرة قوصرة المعروفة ببنتلرية Pantelleria ، وثبت قدم الإسلام فيها بعد أن حاول ذلك قبله عبد الملك بن قطن القهرى والى الأندلس وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى. وقد ظلت فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها منهم رجار (روجر) النورمانى سنة ٤٨٤–١٠٩١ . وقد كانت قوصرة طول سيطرة المسلمين عليها كالدرع يقى تونس من غزوات النصارى والنورمانيين خاصة ، فلما سقطت صقلية فى يد أولئك الأخيرين لم يبق إلا قوصرة تحمى شواطىء تونس ، فلما سقطت هى الأخرى انحدرت الجبهة الإسلامية إلى شواطىء تونس وتعرضت سواحلها لغارات النورمانيين ، وحاول رجار مهاجمة « المهدية » أكبر المراكز البحرية الإفريقية إذ ذاك ، فنزل إلى الساحل وحاصرها سنة ٥١٧–١١٢٣ ولكن جيوش بنى زيرى ثبتت له وهزمته فى موقعة «الديماس» . وجدد النورمان محاولتهم سنة ٥٤٢–١١٤٨

واستولوا على « المهدية » ، ذلك الحصن الإسلامى ، فانهارت جبهة المقاومة الإفريقية ، وزاد الطين بلة اضطراب أمر المغرب كله عقب غزوة العرب الهلالية ، فطال أمد احتلال النورمانيين لشاطىء إفريقية (تونس) ، وقد صدق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب حين علق على ذلك بقوله : « وكان ذلك آخر عهد السلطان الإسلامى بجزائر البحر » [1] .

هذه صورة مجملة لنشاط أهل المغرب فى حوض البحر الأبيض الأوسط والبحر التيرانى ، وهى تعطينا فكرة عن هذا الجهد العظيم الذى قاموا به ، وهو جهد غير منظم ولا متصل لأن الدول الرسمية لم تعن به ، ولم تنتبه إلى ما يعود عليها من الخير من وراء السيطرة على البحر ، حتى صقلية لم يعنوا بها العناية الواجبة فضاعت من أيدى المسلمين وانصرفوا عنها وزالت آثارهم منها كأنهم لم يفتحوها يوماً ، إنما معظم الفضل فى ذلك الجهد يرجع إلى المغامرين وذوى البأس والمتحمسين من أهل شواطىء المغرب ومسلمى صقلية ، وهؤلاء من الممكن أن يكونوا خالصى النية فى الجهاد أو مجرد طامعين فى الغنم والسلب ، ومن هنا انفتح على المسلمين باب الاتهام بأعمال القرصنة ، وسنناقش ذلك فيما بعد .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن دول المغرب بطبيعتها ضعيفة فقيرة ، لقلة القوى البشرية والموارد اللازمة لإقامة الدولات والصمود فى ميدان ثقيل التكاليف كثير المطالب كسيادة البحر أمام دول أغنى وأقوى وأدرى بأمور البحر ، وإن الإنسان ليتأمل هذا الجهد المتعدد النواحى الذى قام به أهل المغرب على عسر ظروفهم واضطراب أمور السياسة فى بلادهم فلا يسعه إلا التعجب من اقتدارهم عليه رغم ذلك كله . وسوف يتغير مركز المغرب عند ما تدب الحياة فى أقصاه — ما يعرف الآن بمراكش — ويتسع مداه حتى يصل إلى أحواز النيجرو تدخل الأجناس البشرية الكثيرة الضاربة هناك رحاب الإسلام وتنتظم ضمن قواه ، هنا يتغير وجه التاريخ المغربى ويأخذ فى طريق القوة ، فيصبح درع الجبهة الغربية الإسلامية كلها ويتولى الدفاع عنها فى البر والبحر بعد انهيار الأندلس وخروجه

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، المجلة التاريخية المصرية ، جـ ٢ ، عدد ٢ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٥ وما بعدها .

من الميدان . وهذا كله يتمثل لنا فى قيام دول المغرب الأربع الكبرى : المرابطين والموحدين والحفصيين – وقد قاموا على أكتاف صنهاجة – ثم بنى مرين ، وهم زناتيون ، لكن ذلك يتخطى الحدود الزمنية التى رسمناها لهذه الدراسة : ما قبل الصليبيات .

ونعود إلى ما استطردنا عنه منذ قليل ، لنعرض فى إيجاز لتطور العلاقات بين إفريقية وأمم أوروبا النصرانية بعد ما كان فى انهيار الجبهة البحرية للأولى وتراجع مدى سلطانها إلى ما يسمى فى عرفنا الحديث بالمياه الإقليمية المغربية .

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٩٧٢ م . قامت بشؤون إفريقية دولة بنى زيرى الصغيرة ، وفى عهدها فقد المسلمون مراكزهم فى البحر الأبيض شيئاً فشيئاً ، ولم تصبح عملياتهم الحربية فيه عمليات منتظمة تهدف إلى غاية ثابتة ، بل ضربات هنا وهناك يقوم بها أهل إفريقية حيناً وأهل صقلية حيناً آخر وأهل الأندلس حيناً ثالثاً وهكذا . ومثال ذلك أن أهل إفريقية غزوا كاجليارى وپيزا سنة ١٠٠٢ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قام مجاهد الدانى صاحب الجزائر الشرقية – وهى جزائر البليار – ونهب پيزا ، وفى نفس العام انتقم البيزيون لأنفسهم فغزوا شواطئ الأندلس ، وفى سنة ١٠١١ قام الأندلسيون بغارة عنيفة على پيزا . وفى هذه الفترة نجد اسم مجاهد الدانى بارزاً فى تاريخ وسط البحر الأبيض وغربه ، وكان أولى بنا أن ندع الكلام عنه إلى الفقرة الخاصة بالأندلس ، ولكن سياق الحديث يستدعى ذكر أعمال مجاهد الدانى فى هذا المقام .

وهنا أيضاً نلاحظ ما لاحظناه أكثر من مرة فى دراستنا لأعمال المسلمين فى البحر ، وهو أن المصادفة تلعب دوراً هاماً فيها ، وكما فتح بنو الأغلب صقلية مصادفة واضطراراً فكذلك دخل مجاهد الدانى ميدان الكفاح البحرى . فقد كان الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس قد صار عند تفرق أمر الأندلس إلى جماعة من صقالبة بيت المنصور محمد بن أبى عامر المعروفين بالصقالبة العامريين ، ثم تقلص أمرهم أثناء الكفاح الطويل بين الطوائف حتى لم يعد بأيديهم إلا دانية . وضاقت أرض الأندلس بهم وخصومهم يحيطون بهم من كل ناحية ، ففكر

واحد منهم وهو مجاهد الدانى العامرى فى الاستيلاء على الجزائر الشرقية المعروفة البليار ، فانتقل إليها بقواته سنة ١٠١٥ ومكن لنفسه فيها واتخذها — مع دانية — مركزاً لنشاط بحرى كبير جعل اسمه يبعث الرعب فى الحوض الغربى للبحر الأبيض كله .

وقد فتح المسلمون هذه الجزائر لأول مرة سنة ٩٠٣ على يد عصام الخولانى ، كما سنرى بعد . وكانت قبل ذلك تابعة لدولة الفرنجة ، وقد فتح عصام ميورقة ومنورقة وبقيت يابسة Juiza بيد الفرنجة . وقد ظل عصام يحكمها باسم خلفاء بنى أمية الأندلسيين حتى مات وخلفه عليها ابنه . ولم يعن الأمويون بالجزائر الشرقية على أهميتها ، فظلت فى تبعيتهم الاسمية حتى انتثر عقد الخلافة وتفرق أمر الأندلس بين أمراء الطوائف واستقل العامريون بشرق الأندلس ، ثم سنحت الفرصة لمجاهد فغزاها سنة ١٠١٥ كما قلنا .

وقد تمكن هذا الصقلبى الأندلسى أن يسيطر على شواطىء الأندلس الشرقية ، ويملك الجزائر الشرقية ويحتل أجزاء من سردانية وقرصقة سنة ١٠١٦ ويوجه نشاطه كله إلى غزو سواحل إيطاليا وغالة ، بل إنه احتل ثغر لونى Luni على خليج سبيزيا Spezzia فى إقليم إتروريا بإيطاليا ، واتخذه قاعدة لأعماله الحربية فى إيطاليا . وقد توفى مجاهد سنة ١٠٤٥ وخلفه ابنه على ، فواصل سياسة أبيه ولكنه لم يستطع مواصلة الجهد أمام منافسات الطوائف ، فاستولى بنو هود على ما بيده .

وقد نشطت البابوية فى جمع قوى النصارى وتوجيهها لحرب مجاهد الدانى ورجاله ، وأصدر البابا يوحنا الثامن عشر منشوراً بابوياً يعلن فيه أنه يمنح جزيرة سردانية لمن يستخلصها من يدى مجاهد . وبعد ذلك بسنوات قلائل خطا البابا بنوا الثامن خطوة أخرى ، فقام بتجهيز حملة دفعت الخزانة البابوية نفقاتها وهدفها مهاجمة قاعدة مجاهد فى لونى ، فاجتهد الجنويون والبيشيون فى الاستيلاء عليها وتم لهم ذلك سنة ١٠١٥ . وفى السنة التالية ١٠١٦ وفق البابا بنوا فى عقد محالفة بين بيشة وجنوا توقفت بها العداوة بين الجمهوريتين إلى حين ، واتجهتا لحرب المسلمين واستخلاص السيادة على البحر التيرانى من أيديهم . وسارت قوات جنوة

وبيشة المتحدة وهاجمت سردانية فى نفس العام وهزمت مجاهداً هزيمة حاسمة ، وقد تقلص نفوذ المسلمين من هذه الجزيرة فى سرعة بعد ذلك لأن مجاهداً عاد إلى دانية ولم يحاول مطاولة بيشة وچنوة . وبعد وفاته سنة ١٠٤٤ — ١٠٤٥ م كاد يتلاشى كل أثر لسيادة المسلمين على سردانية ، لولا وقوع الخلاف بين جنوة وبيشة ، فقوى أمر المسلمين فى الجزيرة من جديد .

واستمر الأمر سجالا بين المسلمين والنصارى فى ذلك الحوض الغربى للبحر الأبيض طوال القرن الحادى عشر ، فنجد أسطولا إسلامياً يخرج من « المهدية » ويغزو إيطاليا الوسطى سنة ١٠٢٠ ويجمع غنائم وافرة ، وفى عودته لقيه أسطول بيشى واستولى على ما معه من الغنائم . وفى سنة ١٠٣٤ نجد قوات چنوية وبيزية وپروڤنسية تهاجم بونة فى إفريقية وتجتاح هذه الناحية وتعبث فيها فساداً ، وهكذا. ويستمر الأمر على ذلك الحال حتى يقوم البابا ليو التاسع بتوحيد البيشيين والجنويين من جديد ، ويوجههم إلى استخلاص سردانية من أيدى المسلمين ، وقد تم ذلك نهائياً سنة ١٠٥٠ ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى لضياع سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض .

وأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض ملقى على عاتق بنى زيرى أصحاب إفريقية وبنى حماد أصحاب القلعة ، وكانت لهم السيادة على جزء كبير من الجزائر . ولم تكن الدويلتان من القوة بحيث تستطيعان القيام بهذا العبء ، وكثرت غارات النصارى على صقلية وسواحل إفريقية ، فرأى بنو زيرى أنفسهم مضطرين إلى تغيير خطة العداء السافر ، وادخلوا فى علاقات سلمية مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية ثم مع النورمان بعد ذلك .

وليس إلى الشك سبيل فى أن بنى زيرى كانوا مستطيعين أن يقوموا فى البحر بدور عظيم ، فقد كان لهم بالساحل اهتمام كبير ، لولا اضطرارهم إلى توجيه كل قواهم إلى محاربة الزناتيين أولا والعرب الهلالية ثانياً .

ومن دلائل اهتمامهم بالبحر وشؤونه أن زيرى بن مناد هو الذى أنشأ مدينة الجزائر ، وقد كان موقعها والجزائر المقابلة لها فى البحر فى زمام قبيلة بنى مزغنا ، ولذلك كانت تسمى « جزائر بنى مزغنا » ، ثم اختصرت بعد ذلك إلى «الجزائر» .

وقد أنشأ أبناء عمهم بنو حماد – أصحاب قلعة بنى حماد وسادة المغرب الأوسط – ميناء آخر هاماً سيلعب دوراً عظيما فى تاريخ البحر الأبيض ، وهى بجاية Bougie أنشأوها سنة ١٠٧٢ وظلت معتصمهم ومعتصم فلول بنى زيرى جميعاً بعد هزائمهم وانهيار قواهم أمام الهلالية . وقد ظل بنو حماد محتفظين بشىء من سلطانهم فى بجاية حتى فتحها عليهم الموحدون وأدخلوها فى طاعتهم .

وقد وصلت سياسة الصداقة مع الجبهة النصرانية ذروتها فى عهد الناصر بن علفاس خامس أمراء بنى حماد أصحاب القلعة ، فقد ارتبط بعلاقات صداقة موصولة مع البابا جريجورى السابع ، وسمح له بإقامة أسقف لقرطاجنة وأكرم النصارى فى بلاده ، بل جمع من كان فيها من آسرى النصارى وردهم إلى بلادهم وقد كتب إليه جريجورى خطاباً يدل على ما كان يكنه نحوه من تقدير ، ويكشف لنا عن جانب من جوانب سياسة هذا البابا الكبير ، بدأه بقوله :

« من الأسقف جريجوريوس خادم	Gregorius, episcopus, servus
خدام الله إلى الناصر ملك	servorum Dei, Anazir, regi
مرطانية من الولاية السطيفية	Mauretaniae Sitiphiensis
فى إفريقية ، السلام	provinciae, in Africa, solutem
والبركة الرسولية [1]	et apostolicam benedictionem

بيد أن الجبهة الإسلامية زادت ضعفاً بعد دخول العرب الهلاليين المغرب وقضائهم على دولة بنى زيرى . ويبدو أن الجمهوريات الإيطالية كانت ترقب حوادث المغرب بعين اليقظة ، ففى سنة ١٠٥٧ – وبينما الهلاليون يحاصرون المعز بن باديس فى المهدية – اقتحمت عمارة إيطالية الميناء وحاولت دخوله ، وبعد ذلك بثلاثين سنة – أى فى سنة ١٠٨٧ – اقتحم البيشيون هذا المعقل

(١) Mas Latrie, op. cit. Document VII. pp. 7-8.

وكان الناصر قد اختط بجاية سنة ١٠٧٦ وجعلها عاصمة إمارة بنى حماد بدلا من القلعة فى سنة ١٠٩٠ . ومن بجاية سيطر على المغرب الأوسط كله ، وهو الذى يعرف فى التقسيم الإدارى الرومانى بمرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis ، وإلى هذا يشير جريجورى فى مستهل خطابه. وقد ظل بنو الناصر سادة بجاية والمغرب الأوسط حتى استنزلهم الموحدون وحلوا محلهم سنة ١١٥٣ .

الإسلامى الحصين وخربوا البلد . وقد كان لهذا الحادث دوى عظيم فى نواحى أوربا ، لأن المهدية كانت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية كلها كما قلنا . وفى سنة ١٠٦٣ هاجم البيشيون بلرم فى صقلية ونهبوها نهباً ذريعاً ، وقد تيمنوا بهذا الغنم فبدأوا بناء كاتدرائية بلدهم الباقية إلى اليوم من مغانم هذه الغزوة .

وبدا بوضوح أن ما بقى من الجبهة الإسلامية فى وسط البحر الأبيض وغربه يتصدع تماماً ، وكان العامل الأكبر فى هذا التصدع هو فشل أهل إفريقية فى حكم صقلية من ناحية ، وعجز مسلمى صقلية عن تنظيم أمور أنفسهم وتوحيد جبهتهم من ناحية أخرى . وبعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر بدا بوضوح أن أمر الإسلام فى صقلية إلى ضياع ، فقد اشتد التفرق بين المسلمين الصقليين إلى درجة خشى معها المعز بن باديس الزيرى من أن يستغلب النصارى الجزيرة ، فأرسل حوالى سنة ١٠٣٥ حملة لتقوية أهل صقلية أمام أعدائهم . وقد بلغ من قصر نظر رؤساء صقلية أن أنكروا هذا العمل من المعز وتوجهت جماعة منهم فقابلت ملك النورمان فى أپوليا واستنصرت به على المعز ! وكان النورمان قد انتزعوا جنوبى إيطاليا من أيدى البيزنطيين وتطلعوا إلى صقلية . وفى سنة ١٠٦١ عبرت قوة استطلاعية نورمانية خليج مسينا ونزلت صقلية عند ميلازو ، وتغلبت على قوة صغيرة من المسلمين حاولت أن تعترض طريقها . وكان يقود هذا البعث رجار أخو روبرت جسكارد ملك النورمان ولم يكن لديه أكثر من مائة وستين فارساً . وقد شجعه هذا النجاح فعاد إلى قلورية Calabria وجمع قوة كافية ونزل صقلية فى العام التالى ، واستولى على مسينا دون مقاومة تذكر ، ثم استولى على السواحل الشمالية والشرقية للجزيرة . وفى العاشر من يناير ١٠٧٢ استولى على بلرم عاصمة صقلية ، وتم له إخضاع بقية الجزيرة بعد ذلك . وصارت كونتية نورمانية يحكمها رجار باسم أخيه روبرت . وقد حاول تميم بن المعز ابن باديس أمير إفريقية استعادة الجزيرة دون جدوى ، واضطر آخر الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ، وعقد مع روجر معاهدة اعترف له فيها بملكية صقلية .

بهذا ضاعت هذه القاعدة الإسلامية الكبرى التى كانت تمكن المسلمين

من القبض على ناصية البحر الأبيض ، وأصبحت حدود دولة الإسلام الغربية عند شواطئ إفريقية ، وعاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر الأبيض إلى منطقة النفوذ الأوربية ، وأصبحا طريقاً آمنة للجمهوريات الإيطالية ، واتسعت آمال شعوب غربى أوربا فى مهاجمة المسلمين فى بلادهم ، وخاصة بعد تصفية الجزء الأكبر من الأندلس . وذلك كله يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية ، التى بدأت فى الجبهة الأندلسية ثم انتقلت إلى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، ثم امتدت بعد ذلك إلى بلاد المسلمين فى المشرق .

هذا هو تاريخ المسلمين فى حوض البحر الأبيض إلى قبيل الحروب الصليبية ، وقد ألممت بما كان لسيادة المسلمين على مياه هذا البحر من تأثير على الدولة الإسلامية عامة وعلى مصر والشام والمغرب كلا على حدة . ولم أتعرض للحقيقة الكبرى التى نتجت عن ذلك وهى تحول هذه البلاد كلها إلى بلاد إسلامية الدين عربية الثقافة ، تفصل بينها وبين أمم الشواطىء الشمالية لهذا البحر عوامل العقيدة والثقافة واللغة والاتجاه ، فقد حل الإسلام فيها كلها محل النصرانية وغيرها ، وأصبحت العربية لغتها الأساسية الغالبة على أهلها . لم أقف عند تلك النتيجة الكبرى لأنها أظهر من أن نبدى فيها ونعيد . ولم أقف كذلك عند آثار استيلاء المسلمين على الأندلس على البحر الأبيض ، لأن مسلمى الأندلس لم يتطلعوا إلى سيادة البحر إلا أيام مجاهد الدانى ، أما طوال عصرى الإمارة والخلافة فقد كانت عناية الأندلسيين بالبحر عناية دفاع لا عناية غزو . وقد أنشأت الإمارة الأموية القرطبية أسطولها بعد نزول النورمان شواطئها على أيام عبد الرحمن الأوسط ، ولم يهتم الأندلسيون بمغازاة شواطئ أوروبا أو بالمتاجرة معها ، بل اقتصر نشاطهم التجارى والحربى أيضاً على بلاد المغرب وما قام فيه من دول ، والفاطميين خاصة . ومن هنا لم يكن للأندلس أثر كبير على الموقف العام فى البحر الأبيض ، فيما خلا ما هو ظاهر بداهة من تحول الشواطئ الإسبانية إلى شواطئ إسلامية متصلة بالعالم المغربى والمشرقى منقطعة عن الشواطئ الأوروپية .

ل ــ الأندلسيون والبحر الأبيض :

لم يحاول أمراء قرطبة الأمويون الإدلاء بدلوهم فى شؤون الملاحة فى البحر الأبيض ، بل لم يفكروا فى إنشاء أسطول لدولتهم إلا بعد أن فاجأها النورمانيون بغزواتهم على عهد عبد الرحمن الأوسط ، فاجتهدوا فى بناء السفن وترتيب الأسطول فتم لهم ذلك بأيسر مؤونة . وبعد سنوات قلائل ، عندما أعاد النورمانيون الكرة وأرادوا مهاجمة الأندلس فى سنة ٢٤٥ / ٨٥٩ ــ ٨٦٠ « وجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية فى الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور « باجة » فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبى والعدة » . والواقع أن المراجع تؤكد اهتمام عبد الرحمن الأوسط بإنشاء دور الصناعة ومخازن السلاح « بعد سنة المجوس » كما سنرى فى قرمونة ، وأنشئت على سواحل الأندلس الرباطات وانجفل إليها المرابطون والمتطوعة ليرابطوا حرساً على شواطىء المسلمين . وأنشئت فى إشبيلية دار صناعة كبيرة ، ونهضت البحرية الأندلسية نهضة سريعة مردها إلى استعداد أهل شواطىء الأندلس للخدمة فى البحار ، فقد كان للأندلس قبل ذلك التاريخ نشاط بحرى ، ولكنه غير رسمى ، نشاط لا تحدثنا عنه مراجعنا العربية وإنما نجد صداه فى المراجع اللاتينية .

فتحدثنا « حوليات مملكة الفرنجة » أنه فى سنة ٧٩٨ هاجمت جماعة من المسلمين ــ تصفهم بأنهم قراصنة ــ جزيرتى مايورقة ومنورقة ونهبتهما ، وفى الوقت نفسه يحدثنا إجنهارت فى « حياة شرلمان » أن شرلمان اتخذ إجراءات لحماية شواطىء ولايتى نربونة وسبتمانية من غارات المسلمين .

ومن المناسب هنا أن نذكر فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) ، فإن بعض المراجع تذهب إلى أنها فتحت على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والغالب أن جماعات من المسلمين نزلتها وسكنتها شيئاً فشيئاً ، لأن المراجع تحدثنا أنه قامت فى الجزائر ثورة سنة ٢٣٤ــ٨٤٨ ــ ٨٤٩ على المسلمين فأرسل عبد الرحمن الأوسط أسطولا من ثلاثين قطعة أخمد الثورة وأعاد الجزيرة إلى الطاعة . ويبدو أن هذه

الحملة لم تكن غزواً بالمعنى الصحيح لأن أبا عبيد البكرى وابن خلدون يذكران أن فتح هذه الجزائر كان فى عهد الأمير عبد الله بن محمد سابع أمراء المروانيين بالأندلس على يد رجل أندلسى يسمى عصام الخولانى سنة ٢٩٠ /٩٠٣ وكان رجال الأسطول والفاتحون جميعاً من المطوعة والمرابطة، وهذه ملاحظة لها أهميتها، لأنها تدل على أن معظم رجال البحرية الأندلسية كانوا من أولئك المرابطين والمجاهدين ، مما يؤكد ما ذكرناه من نشاط مرابطة الأندلس البحرى ، ويجعلنا أميل إلى الظن أن الأمير عبد الله عندما أنشأ البحرية اعتمد فى ذلك على أولئك المجاهدين . وكان عددهم فى الغالب كبيراً . وقد أتم عصام الخولانى فتح الجزر وبنى فيها المساجد وحكمها باسم الأمير عبد الله ثم خلفه عليها ابنه عبد الله ابن عصام وأقره الناصر فى حكمها . وقد ظل يحكمها حتى سنة ٣٥٠/٩٦١ حين اعتزل الحكم وخرج إلى مكة حيث قضى بقية حياته ناسكاً ، مما يؤكد مرة أخرى غلبة الروح الدينى على مجاهدة البحر الأندلسيين .

وكانت سواحل الأندلس الغربية عامرة بالنشاط من أول الأمر ، وكانت السفن رائحة غادية بين ثغور الجنوب الشرقى مثل لقنت والمرية والنكب وبلاد العدوة الإفريقية مثل نكور ومرسى فروخ وهى الميناء الرئيسية لدولة بنى رستم أصحاب تاهرت . أى أن النشاط البحرى الإسلامى أخذ وجهتين : وجهة سلمية هدفها النقل والتجارة مع بلاد إفريقية ، ووجهة حربية هدفها مهاجمة الشواطئ الأوروبية . وقد كان النشاط فى كلتا الوجهتين عظيماً كما يفهم من المراجع . ومن الثابت أن معظم الملاحين كانوا من المولدين والمتعربين والبربر .

وقد نشأت على طول الساحل الشرقى للأندلس ثغور عامرة بالنشاط احتشدت فيها جماعات من الملاحين والتجار والمرابطين ، وكانت أعمر المناطق — كما يفهم من جغرافية البكرى — هى الواقعة بين لقنت Alicante وأكيلة Aquila . ، وكانت أهم تلك المراكز البحرية اسكمبرة Escombera وهى على جزيرة فى البحر فى مدخل خليج قرطاجنة الأندلسى التى تعرف بقرطاجنة الحلفاء . وكانت هذه الجماعات منظمة تنظيماً يذكرنا بنشاط المدن التجارية الإيطالية فى أول نشأتها ، فكان التجار والملاحون ينظمون أنفسهم جماعات جماعات تعمل

معاً ، وكانت كل جماعة تعقد الاتفاقات مع بربر الشاطئ الإفريقى للنزول فى أرضهم فى أمان والحصول منها على المتاجر التى تريد .

وكان الأندلسيون يبحرون إلى إفريقية فى الخريف ، ويقيمون هناك الشتاء ويعودون إلى الأندلس بالمتاجر مع الربيع . وكانت جماعات التجار فى كل ميناء فى الأندلس تختار من بينها « عريفاً » يمثلها يقيم لدى القبائل البربرية لينظم أمور التجارة كما كان قناصل المدن الإيطالية يفعلون فى الموانى . وكانت جماعات من تجار الشواطئ الإسبانية تهاجر إلى إفريقية وتعمر ثغورها أو تنشيء ثغوراً جديدة ، ففى سنة ٢٦٢ /٨٧٥ أنشأ نفرمن الأندلسيين ميناء يسمى تنس الجديدة على مقربة من تنس الإفريقية ، وفى سنة ٢٩٠ /٩٠٢ نزلت جماعة أندلسية أخرى على رأسها رجل يسمى محمد بن أبى عون بن محمد بن عبدون ميناء وهران وعمرته وبعثت فيه النشاط ، وهكذا .

وكان يحدث أن القبائل الإفريقية تعدو على المستعمرة الأندلسية وتنهبها ، فيحتل الأندلسيون الموقع بالقوة ، كما حدث فى وهران سنة ٢٩٩ /٩١١ . بل يذكر البكرى أن الأندلسيين كانوا مسيطرين على عدد كبير من ثغور إفريقية مثل بونة وبجاية ومرسى الدجاج .

م — بجّانة ، جمهورية بحرية إسلامية أندلسية :

وألطف مثل لهذا النشاط البحرى الأندلسى هو اختطاط نفر من « البحريين » لميناء بجّانة المعروفة اليوم باسم Pechina . وأصل هذا الميناء موضع بسيط على الساحل الأندلسى الجنوبى على مصب وادى أندرش Rio Andarax شرقى المرية . وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط قد عمد إلى جماعة من العرب اليمنيين النازلين فى هذه الناحية بأن يرابطوا على الساحل ويحرسوه من نزول المجوس (النورمانيين) ، وفى مقابل ذلك أقطعهم سهل وادى أندرش الأدنى . وكانت جماعات من « البحريين » الأندلسيين تخرج من المرية إلى إفريقية وتعود إليها . ويبدو أن العرب اليمنيين اعتدوا عليهم أو آذوهم فى تجارتهم ، فرأى هؤلاء أن ينفقوا مع العرب على أن يبتنوا لأنفسهم قصبة ومخازن لمتاجرهم عند خليج بجانة ويسمى بلغة الأندلسيين « مرية بجانة » . وأذن لهم العرب

فقاموا بإنشاء القصبة ونظموا لأنفسهم حكومة يختارون رجالها من بين أنفسهم كما كانت الجمهوريات الإيطالية تفعل . وقد بدأ أولئك « البحريون » فى بناء مدينتهم وتنظيم أنفسهم من عام ٢٧١ / ٨٨٤، بل يذهب البكرى إلى أنهم حرصوا على أن تكون بلدتهم أشبه البلاد بقرطبة فى هندستها ، ومن ذلك أنهم وضعوا على باب بلدتهم تمثالا للعذراء يشبه ذلك الذى يقوم على مدخل قنطرة الوادى المؤدية إلى قرطبة ، وهذه الملاحظة تدل على أن نفراً من أولئك « البحريين » كانوا نصارى ، أقاموا حول بلدهم حصناً وبنوا لأنفسهم قصبة ومساجد ، وانجفل إليهم الناس وعمر البلد بالناس وقامت فيه مناسج الحرير . ومما يؤكد ذلك قول ابن حيان فى حوادث سنة ٢٧٦ :

« وفيها أيضاً خاطب البحريون — الذين اختطوا مدينة بجانة بالساحل القبلى ، واتخذوها قاعدة لهم فرضة لأهل العدوة من تلقائهم : عملوا ذلك آخر أيام الأمير محمد والده ، وتزيد عملهم فى تمهيدها من بعده — فكتبوا إلى الأمير عبد الله ، عند جلوسه فى الخلافة بعد ، يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البنيان حوالى قصبتهم بجانة والتوسع فى أعراضها لتكاثر الناس عندهم ، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك . فأسعوا الاختطاط بأرض بجانة صدر خلافة عبد الله ، حتى اتخذوا بها عشرين حصناً ، مثل : وادى بجانة والحامة والخابية وبرشانة وعالية وبنى طارق وحصن ناشر ، وغيرها ؛ حموها وأوطنوها هم ومن نزل بهم ، وجاءهم الناس من كل جانب ، فأمنوا عندهم وكثروا ببلدهم » ، مما يدل على إزهار البلد واتساعه .

ويحدثنا ابن حيان فى خبر آخر عن بعض أحوال بجانة ، وحديثه يدل على أن البلد كان يحكم نفسه بنفسه، وأن أهله كانوا يختارون منهم رئيساً يقوم بشؤونهم ، وأن سفن النصارى كانت تحاول مهاجمة البلد وأذاه على غير جدوى ، وسأورد خبر ابن حيان — على طوله — لأنه يلقى ضوءاً عظيماً على أحوال تلك « الجمهورية » التجارية الأندلسية ، قال :

« قال عيسى : وفيها غزا سوار بن حمدون المحاربى — أمير العرب بغرناطة من كورة البيرة — البحريين الذين اختطوا مدينة بجانة بأمر الأمير المنذر وأخيه

الأمير عبد الله ، وقد بلغه حسن حالهم فيها واجتماع الناس إليهم واستخفافهم بمن جاورهم من العرب الغسانيين واستطالتهم عليهم وخوفهم منهم على أنفسهم لقلة عددهم ، فقصدهم سوار فى عرب البيرة المنتزين معه إلى حصن غرناطة ، طمعاً فى انتهاز الفرصة منهم وإخراجهم عن موطنهم بجانة والانتصار لقومه الغسانيين منهم ؛ وكان عامل السلطان يومئذ على هؤلاء البحريين رجلا منهم اسمه عبد الرزاق بن عيسى ، قد طار له الاسم بحسن السيرة وجودة الضبط والحزامة مع الغلظة على أهل الشر والذعارة والمبالغة فى عقوبة من ظفر به منهم ، حتى إن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلا يكاد يضيع شىء منها ، وذلك كان من أعظم أسباب اجتماع الناس إلى بجانة من الآفاق ، واغتباطهم بحلولها وسكونهم إلى ضبط أميرها عبد الرزاق وحمايته وتحصينه الفروج والأموال ، وسعيه فى توسعة الغارة فى ما حول بجانة حتى قامت فيها حصون كثيرة وقرى آهلة فى « الأسناد » وفى « نشارة » وغيرهما ، وحافظ على رعاية من قصد بلده ورغب فى مجاورته ، فكثر الناس لديه واغتبطوا به وبجواره ، وحسده كثير ممن جاوره على حسن حاله ، فقصده سوار فى ذلك الوقت طمعاً فيه . فلما علم عبد الرزاق بخبره رهب شداته وذهب إلى مداراته ؛ فأخرج وجوه البحريين أصحابه إلى العرب الغسانيين جيرانهم ، يستذمون بذمة جيرتهم ويستصفحونهم عن إجرام سفهائهم ويستشفعون بهم إلى سوار ابن عشيرتهم ، ويسألونهم لقاءه واستلطافه لهم ووعظه فيهم ، والرغبة إليه فى الانصراف عنهم ومواثقته على إجمال عشيرتهم ، فأسعفهم الغسانيون بذلك ، وخرجت جماعة من وجوههم إلى سوار ، منهم : سعيد بن أسود ، ، وخشخاش ابنه ، ومحمد بن عمر بن أسود ابن أخيه — وكان مكفوفاً — وأبوه الأوهم بن مخلد الغسانى وغيرهم ، فلقوا سوارا وكلموه واستلطفوه حتى انصرف عنهم وهلك على نية ذلك . وصار مكانه سعيد بن جودى فعاد البحريون إلى التمرس بالغسانيين — الذين كانوا شفعاءهم — والتمرس بهم والتهويس بما كان منهم فى مدافعة سوار عنهم ، حتى استحال الغسانيون عليهم وأنفوا من استطالتهم ، فكتبوا إلى ابن جودى يشكونهم واستنهضوه لغزوهم ،

وقصده بعضهم لما أبطأ عليهم محركاً ، فخف معهم وجاء إلى بجانة — وهى مدربة لم يضرب بعد عليها سور — فحاربهم فيها أياماً قارشوه فيها فلم يظفر بهم بطائل . وبينا هم على ذلك إذا احتل بهم شنير — قومس أنبورس من بلد الفرنجة — فى خمسة عشر مركباً أرفأت بساحل المرية فرضة بجانة ، فاحترق بها كثير من مراكبهم وغيرها ، وانتشرت بالغارة هنالك حتى قتلت خلف بن زهرى بالحوض ، وكان من أعلامهم ؛ فخرج جميع البحريين نحو المرية ليلا ، فلما أشرفوا على المرية هابهم العلوج فانقبضوا وألووا إلى المتاركة ودعوا إلى المفاداة والمبايعة ، فأجابهم البحريون إلى ذلك . وتم صلحهم على يدى عبد الرحمن بن مطرف الحاج صاحبهم ، وكان منذ وقعت عين العلج شنير عليه — وكان وسيماً جميلا حسن الملبس — فمال العلج إليه فأذنه وقلده عقد صلحه مع قومه ، وأجابه إلى وما التمسه وقارضه (sic) فيما اشتهاه ، فانقضى ما كان بينهم وبين العلج من يومهم وانصرف عنهم بمراكبه ، ففزعوا لابن جودى ومن معه — وقد ظن ابن جودى أن مدداً جاءهم — فرحل عنهم مسرعاً ولم يقم عليهم ، فثبتوا عزة بموطنهم . وقد طاولهم — بانصراف ابن جودى وانصراف صاحبه سوار قبله عنهم — اسم عظيم فى الباس والقوة رفع عنهم الطماعية ممن حولهم من ذباب الفتنة ، فكفوا فيما بعد عن التعرض لهم ، فضربت حاضرتهم بعطن وعمر قطينها وكثر أهلها واتسعت عمارتها وحسنت حال من فيها ، فلحقت بكبار أمصار الأندلس وحمت استعبادتها من قبل البحر فجل قدرها» .

وقد استمرت بجانة عامرة حتى سنة ٩٥٥/٣٤٤ عندما نقل عبد الرحمن الناصر عاصمة كورة المرية إلى ميناء المرية نفسها وعنى بها وأنشأ فيها المبانى والمصانع والمساجد ، فانتقل إليها الكثيرون من أهل بجانة وبدأت هذه الأخيرة تخمل ، وأخذ أمرها ينحط فى عهد الحكم المستنصر . وفى القرن الحادى عشر نجدها قد أصبحت قرية صغيرة وفقدت أهميتها .

ن — ماتسميه المراجع النصرانية بأعمال قراصنة المسلمين قبل الحروب الصليبية :

كان للأندلسيين إذن نشاط بحرى عظيم : كانت لهم أساطيل قوية تحرس

الشواطئ حراسة يقظة دائمة ، وكانت لهم أساطيل تجارية تتاجر مع المغرب وتنقل الناس والبضائع إلى شواطئه ، وكانت لهم جماعات من مجاهدة البحر تغزو شواطئ البلاد النصرانية وترد أذاها عن بلاد المسلمين . والمراجع اللاتينية تصف هذه الناحية الأخيرة من نشاط الأندلسيين البحرى بأنه نشاط قرصان ، وهو — فى الواقع — لم يكن كذلك تماماً . ومن المناسب أن أنقل هنا آراء للأستاذ ليفى پروفنسال تلقى ضوءاً على هذه الناحية الهامة من تاريخ المسلمين البحرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، قال بعد أن تحدث عن سفارة أرسلها أوتو الإمبراطور التيوتونى إلى عبد الرحمن الناصر سنة ٩٥٠ يسأله فيها أن يبذل جهده فى كف أذى « قراصنة » الأندلسيين عن شواطىء البحر الأبيض وغاراتهم على ما يلى هذه السواحل من بلاد فى غالة وشمالى إيطاليا وسويسرا :

« ومن المناسب هنا أن نفتح شَوْلتين نذكر بينهما شيئاً عن نشاط قراصنة الأندلس فى البحر الأبيض خلال القرن العاشر ، وأن نتتبع — بوجه خاص — الأوديسية الفذة التى قام بها جماعة من غزاة البحر المغاربة ، الذين نزلوا عند فراكسينتوم Fraxinetum وأسسوا « دولة إسلامية غربية مقحمة فى صميم بلاد النصرانية » ، قدر لها أن تظل قائمة بضع عشرات من السنين قبل أن يتيسر القضاء عليها . ومن الواضح أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين عن هذه القرصنة إذ أنها لم تكن منظمة تنظيماً رسمياً ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها ، ولكنها كانت تتغاضى عنها بل تشجعها ، بخلاف القرصنة المغربية فى العصور الحديثة ، إذ أن دول المغرب كانت تنظمها وتشرف عليها . ومن الحق أن نقرر هنا أن الدويلات المسيحية كانت تقف نفس موقف الدولة الأموية من رعاياها الذين كانوا يغيرون على شواطئ المسلمين وسفنهم . ولم يكن قراصنة قطلونية وأمبورياس Ampurias وروسيون Rousillon بأقل خطراً على الملاحين الآمنين من قراصنة الأندلسيين ، بل إنهم لم يكونوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى .

ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئاً آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغازون الصارى بدافع دينى ، وكذلك لا تستطيع القرصنة المسيحية

أن تنسب نفسها إلى الكنيسة أو المسيحية . وقد كانت كلتاهما خطراً إنضاف إلى اخطار الملاحة أثناء العصور الوسطى المتقدمة ، كانت نوعاً من القدر الذى يلاقيه راكب البحر فى تلك العصور . ولدينا ما يبرر القول بأن معظم أولئك الذين كانوا يقطعون البحر من المسلمين لم يكونوا من العرب أو البربر ، لقلة ما كان لدى هؤلاء الأخيرين من المواهب اللازمة لراكب البحر . ويغلب على الظن أنهم كانوا من المولدين أو من مستعمرى الأندلس النصارى من رعايا خليفة قرطبة ، لا يتحدثون العربية وإنما لهجتهم الرومانية المعروفة بعجمية أهل الأندلس ، مثلهم فى ذلك مثل البحريين الذين أنشأوا اتحاد بجانة فى القرن التاسع . ولسنا نقول هذا على سبيل التبرير لأعمال قطاع البحر من المسلمين ، ولكننا لسنا نرى من العدالة أن نصف أعمالهم دون أن نذكر فى نفس الوقت أن المسيحية الوسيطة لم تخل من أمثالهم . ولا شك أن هؤلاء الأخيرين لم يبلغوا من العتو والصيت المرهوب ما بلغه أمثالهم من الأندلسيين ، ولكن أفاعيلهم كانت كثيرة أيضاً ، ويكفى أن نتصفح معاجم التراجم الأندلسية حتى تتبين أنهم كانوا يصيبون أهل الأندلس وينزلون ببيوتهم من الخراب والذعر والقتل ما يربو بكثير على ما كنا نحسبه عادة .

« وكانت مهاجمة السفن فى البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم أمراً لا دخل فيه للملوك ، نصارى كانوا أو مسلمين . ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطئ ممتلكاتهم ، إلا فى الحالات التى يصبح هذا النزول صريحاً خطراً على أراضيهم . وكان لابد لهم فى هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة ما يستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة . ولكن الغالب أن عبء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطئ أنفسهم . كان عليهم أن ينظموا أمور الحفاظ على أنفسهم وإلا تحملوا عواقب إهمالهم ، فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحرس والحماية ، فينشئوا المراقب العالية ليكشفوا المقبل من البحر من بعيد ، وأن ينظموا جبهة بحرية حقيقية ، وأن ينقلوا قراهم ومساكنهم إلى المرتفعات القريبة من الشاطئ واتخاذ ما يمكن للتحرز من أخطار البحريات المعادية . هذا كله كان قائماً على شواطئ المسيحية والنصرانية ، ولم يكن مع

ذلك كافياً لرد أطماع أولئك الذين كانوا يعيشون من القرصنة .

« فإذا لم يقنع أولئك القرصان بغنائم الضربات السريعة التى لا تدوم أكثر من ساعات ، وطمعوا فى التوغل فى داخل البلاد كان الخطر أشد وأعظم . وكان القرصان ينجحون فى هذا التوغل عن طريق دخول مصبات الأنهار والتصعيد فى مجاريها ، كما كان النورمانيون يفعلون ، أو النزول فى موضع من الشاطئ يختارونه مقدماً ، والاستيلاء على موضع حصين قريب يشنون منه الغارات على الأراضى المجاورة . وكان القراصنة نادرا ما يتبعون أسلوب النورمان ، أى دخول مصبات الأنهار ، وإنما كان الغالب أن يلجأوا إلى الطريقة الأخرى ، طريقة النزول على الساحل بالقوة والتحرز فى موضع حصين ، وكان ذلك يحتاج إلى جرأة ويتعرض صاحبه لخطر أشد . وهذا هو الذى فعلته جماعة من المغامرين نزلوا عند فراكسينتوم على شاطئ پروڤانس وتحرزوا فى موضع هناك فى العشرات الأواخر من القرن التاسع الميلادى .

س — أوديسية ڤرالينقوم :

« وتحدثنا بضع فقرات من « حوليات سان برتان » Annales de Saint Bertin بأن نفرا من قراصنة المغاربة les Maures — وهذه هى التسمية التى كانت تطلق على قراصنة المسلمين إذ ذاك — دخلوا مصب نهر الرون وصعدوا فيه بضع مرات خلال النصف الثانى من القرن التاسع . فى سنة ٨٤٢ وصلوا إلى قريب من آرل Arles ونزلوا فى موضع على شاطئ النهر ، ومضوا ينهبون ما وصلت إليه أيديهم ، ثم عادوا إلى سفنهم ورجعوا أدراجهم دون أن يصيبهم أذى . وحدث هذا مرة أخرى سنة ٨٥٠ ولكن رياحاً شديدة حالت بينهم وبين العودة إلى سفنهم فاستؤصلوا عن آخرهم . وفى سنة ٨٦٩ تمكنت جماعة أخرى من أولئك المسلمين من النزول والتحصن عند كامارج Camargue وتمكنوا من أسر « روتلاندوس » Rotlandus أسقف آرل ، وكان قد توجه لردهم على رأس قوة من المحاربين ، وقد مات الأسقف عقب أسره بقليل بينما كان آسروه يفاوضون فى أمر فديته ، فاحتالوا للحصول على الفدية رغم موته بإجلاسه ميتاً

على كرسى لابساً ملابسه الكنسية وأنزلوه إلى البر على هذه الصورة وحصلوا على الفدية .

ثم يورد الأستاذ پروڤنسال بعد ذلك تفاصيل تلك المستعمرة الإسلامية فى فراكسينتوم : « فيما بين سنتى ٨٩١ و ٨٩٤ تمكنت جماعة من قرصان الأندلسيين — فى ظروف لم نتوصل إلى الآن إلى معرفتها — من النزول فى خليج سان تروپيز Saint Tropez على شاطئ پروڤانس وتحصنوا فى جبل فراكسينتوم المطل على الخليج ، وهذا الموضع هو المعروف اليوم باسم جارد فرينيه Garde Frienet . ثم أقبلت جماعات أخرى من الأندلسيين وانضمت إليهم ومضوا يعبثون فى نواحى كونتية Frejus ينهبون ويحرقون ويقتلون ، ونهبوا كبرى مدنها ، ثم أوغلوا فى منطقة مرسيليا خربوا كنيسة سان ڤيكتور Saint Victor المشهورة ثم صعدوا مع نهر الرون ونشروا الرعب والخراب فى مقاطعتى ڤالنتان Valentin وڤين Vienne . وفى السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم حتى سفوح جبال الألب ، وأحرقوا دير ڤوڤاليز Vovalaise على مقربة من سوز Suze ، وملكوا نواصى ممرات الجبال وتربصوا للسفار والحجاج الذاهبين إلى رومة ، وثقلت وطأتهم وكثرت أفاعيلهم فى ناحيتى أمبرن Embrundan وجريز يڤودان Graisivan . وشجعهم هذا النجاح فتوغلوا فى الوديان الإيطالية دون خوف ، وخربوا دير أولكس Aulx وتوغلوا فى پيدمونت حتى أكى Acqui وأستى Asti .

« وكان مركزهم فى سنة ٩٣٣ كما يلى : تقوم فرق صغيرة خفيفة منهم بضربات سريعة خاطفة فى الإقليم كله ، بينما تتحصن كتلتهم فى إقليم فراكسينتوم الجبلى على مقربة من الشاطئ . وكانت مقاومة الأقاليم المصابة ضعيفة منقطعة أول الأمر ، ففى سنة ٩٣١ توجهت حملة نحو إقليم فرينيه Freinet يؤيدها أسطول بيزنطى لم توفق فى شىء . فى سنة ٩٣٩ توغلت جماعات المسلمين فى جبال الألب حتى وصلت إلى سان جالن St. Gallen (فى سويسرا الحالية) ونهبوا كنيستها . وفى سنة ٩٤٢ توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا ورومانوس ليكابينوس إمبراطور بيزنطة ، وكان

حظها معهم أحسن من حظ الحملة الأولى ، ولكنها لم توفق فى طرد الأندلسيين من فراكسينتوم . ولم يتم إخراجهم من الإقليم إلا على يد أوتو إمبراطور ألمانيا ، فقد سار لحربهم سنة ٩٧٢ وأخرجهم من معتصمهم عند خليج سانت تروبيز » .

هذه هى قصة أولئك المغامرين الأندلسيين ، الذين قاموا بأجرأ محاولة قام بها المسلمون على شواطئ جنوب أوروپا الغربية على طول التاريخ ، وقد أسهبنا فى ذكرها لأنها تدل على قوة أولئك الغزاة البحريين ، ومقدار ما كانوا يستطيعون إنزاله من الأذى ببلاد أوروپا النصرانية . وحوليات التاريخ حافلة بأخبار الكثير من ضربات الأندلسيين والمغاربة على شواطئ أوروپا ، مما يأذن لنا فى القول بأنهم كانوا أنشط المسلمين فى حوض البحر الأبيض ، وأن پيرين محق فيما ذهب إليه من أن هذا النشاط الإسلامى قد قضى على الملاحة تماماً فى مياه أوروپا الجنوبية الغربية . فقد استولى المسلمون كما رأينا على جميع الجزائر الواقعة فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، وكان لهم نصيب فى فتح صقلية ، بل هم الذين فتحوا إقريطش على بعدها عن بلادهم ، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا الشواطئ الإيطالية والغاليّة كما رأينا .

بيد أننا لا يمكننا القطع بأن أولئك الغزاة كانوا أندلسيين فحسب ، إذ لا شك أن أهل المغرب قاموا بنصيب كبير فى هذا النشاط ، فهم الذين فتحوا صقلية ، وهم الذين احتلوا جنوبى إيطاليا وقاموا بحملات كثيرة على بلاد إيطاليا الغربية ، بل وصلوا إلى أحواز روما ونهبوها ذات مرة ، وكانوا أول من غزا سردانية واستقر فيها ، قبل أن يفتحها مجاهد الدانى مع قرصقة ويقيم فيها حكماً إسلامياً نحو ثلاثين سنة ، كما رأينا .

٣

آثار سيادة المسلمين البحرية على أوروپا :

سيطر المسلمون إذن على مياه البحر الأبيض من أواخر القرن السابع الميلادى إلى أواخر القرن العاشر على وجه التقريب ، فماذا كانت نتائج ذلك فى العالم الإسلامى أولا ثم فى العالم الغربى ؟

فأما عن الناحية الأولى فقد أشرنا إلى ما كان من تحول الدولة الإسلامية إلى دولة بحرية متوسطية خلال العصر الأموى ، وإلى مظاهر هذا التأثر فيما يتصل بروح الدولة واتجاهها العام خلال هذا العصر ، وأشرت إلى ما كان من توقف هذا التأثير البحرى بعد انتقال مركز الدولة إلى العراق ، وتحولها إلى دولة أسيوية قارية لا تتأثر بالبحر الأبيض إلا بمقدار قليل جداً ، وبينت ما كان لدخول أمم الشام ومصر والمغرب وشبه جزيرة إيبريا من تحول حاسم فى اتجاه تاريخها وثقافتها .

ا ــ إقفال موانى غربى أوروپا :

وأما عن الناحية الثانية ، أى آثار دخول المسلمين حوض البحر الأبيض على الجبهة الأوروپية ، فقد لاحظنا كيف أن البحر الأبيض لم يعد فى فترة سيادة المسلمين عليه بحيرة داخلة فى نطاق العالم الرومانى الأوروپى ، بل صار ــ من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى منتصف الحادى عشر ــ حداً لهذا العالم ؛ أصبحت الحدود الجنوبية لأوروپا هى سواحلها الجنوبية ، وارتفعت حدود الشرق حتى أصبحت عند جبال البرتات (البرانس) ، ولم تعد جزائر البحر الأبيض الكبرى والصغرى داخلة فى نطاق أوروپا بل فى نطاق آسيا وإفريقية ، بل دخلت فى هذا النطاق الأخير أجزاء كبيرة من كلابريا وأپوليا فى جنوبى إيطاليا ، وأصبحت السواحل الجنوبية للبلقان والسواحل الشرقية لإيطاليا والسواحل الجنوبية لغالة مناطق مهددة بغارات المسلمين ، وتراجع السكان منها إلى الداخل ، أى أن الثغور الأوروپية الواقعة على البحر الأبيض تعطلت طوال هذه الفترة ولم تعد المتاجر تصل إليها ، فأما الحوض الشرقى لهذا البحر فلم تعد تصل إلى الموانى البيزنطية إلا السفن المقبلة من شواطىء أوروپية أخرى ، من ناحية البندقية وإجزركية راقنا على الخصوص ، وأما الموانى الأوروپية فى الحوض الغربى فقد تعطلت تماماً ، وحرمت أوروپا من واردات الشرق كلها خلال ثلاثة قرون على الأقل . وكان لهذا نتائجه البعيدة على الدولة البيزنطية أولا ، وعلى غربى أوروپا ثانياً .

ب – شواطىء الدولة البيزنطية :

حرمت الدولة البيزنطية من الجزء الأكبر من سواحلها ومرافئها الأسيوية والإفريقية ، واضطرت أساطيلها إلى التراجع إلى مياه بحر إيجه ، وحرمت كذلك من السوريين الذين كانوا يقومون بأكبر نصيب من نشاطها التجارى البحرى ، وبينما كانت أساطيلها قبل الإسلام تقطع الحوض الشرقى للبحر الأبيض وتتنقل فيما بين قرطاجنة والإسكندرية والبرلس وأنطاكية وصيدا وصور والقسطنطينية وسالونيك فى حرية تامة ، أصبح همها المرابطة فى مياه بحر إيجه للحيلولة بين المسلمين وبين اقتحامه ، بل جاء وقت اقتصر همها فيه على حراسة الدردنيل لمنع سفن المسلمين من ولوج بحر مرمرة وتهديد القسطنطينية . وامتنع ورود المحاصيل والمتاجر الشرقية إلى الموانى البيزنطية ، فاضمحلت بحريتها التجارية اضمحلالا يكاد يكون تاماً ابتداء من القرن الثامن الميلادى.

واضطرت الدولة إزاء الخطر الإسلامى إلى تعميم نظام البنود Themata وإدخاله فى ولاياتها البحرية المواجهة للمسلمين[١] . فى القرن الثامن تحولت ولاية أبيدوس إلى « بند بحرى » عرف بالبند الإيجى ، يحكمه أمير بحر تحت إمرته أسطول يقوم بحماية بحر إيجه ومداخل الدردنيل من سفن المسلمين ، وظهر كذلك بند الكبيريين Kibyrhaetoi وحمل حاكم كل من بالبندين لقب أمير البحر Drungarius ، وكان حاكم البند الأول موكلا بحماية شواطئ آسيا الصغرى ومداخل بحر إيجه من المسلمين [٢] ، وكان أميرا هذين البندين يقيمان فى القسطنطينية ويتبعان الإمبراطور مباشرة ، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير أهم قطعه سفن صغيرة تسمى القرابيز Carabos وهى

---

(١) راجع عن نشأة نظام البنود Themata فى الدولة البيزنطية فى : A.A. Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1932) vol. 1, pp. 331 sqq والمراجع المعطاة هناك .

Gelzer : Die Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, S. 82 sqq.

(٢) وانظر : Runciman : Byzantine Civilisation (London, 1948) p. 150.

قريبة الشبه بالشوانى المملوكية(١) ، وبفضل هذه القرابيز السريعة استطاع البيزنطيون منع المسلمين من دخول بحر إيجه ، بل هددوا سواحلهم وموانيهم .

وخلال القرن التاسع أنشئ بند بحرى جديد مركزه جزيرة ساموس ، مهمته مراقبة حركات المسلمين المسيطرين على كريت وحماية مداخل البحر الأدرياتى وجنوب إيطاليا من غاراتهم(٢) ، وقد وصف لنا نظام هذه البنود البحرية البيزنطية الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه المسمى « عن البنود De Tematibus » ، وأكمل هذا الوصف أبو الحسن المسعودى فى كتاب « التنبيه والإشراف » بمعلومات نسبها إلى رجل يسمى مسلم بن أبى مسلم الجرمى كان البيزنطيون قد أسروه وأطلقوا سراحه فى فداء سنة ٨٤٥ م . وقال عنه إنه « كان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكها وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو إليها والغارة عليها من لرجان والأبر والبرغز والصقالبة والخزر وغيرهم »(٣) ، وقد أورد المسعودى عن الجرمى أسماء أربعة عشر بنداً برياً وبحرياً أنشأها البيزنطيون لمواجهة خطر الغارات الإسلامية فى البر والبحر . وإذا جمعنا معلوماته إلى معلومات قسطنطين السابع فى « كتاب البنود » تبينا أن الدولة البيزنطية قد تحولت كلها إلى ولايات عسكرية يحكمها قادة أو أمراء بحار لمواجهة الخطر الإسلامى وأخطار القرصان فى البحر الأدرياتى .

وقد أهمل أباطرة الأسرة الايزورية أمر أسطولهم بعد زوال الخطر الإسلامى على أوائل العصر العباسى ، لأن البحارة كانوا يعارضون سياسة الأباطرة اللاصورية ، وأهملوا تبعاً لذلك بنودهم البحرية ؛ وقد علق الأستاذ رونسيمان على ذلك بقوله : « كانت تلك سياسة خاطئة . فى القرن التاسع الميلادى عادت

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ج ٢ ، عدد ٢ (أكتوبر ١٩٤٩) ص ٨١ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 150.

(٣) المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨٩ ، ج ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

الأساطيل العربية إلى الظهور فى البحر الأبيض ، واقتطعت من الإمبراطورية البيزنطية صقلية وكريت ، وتحولت هذه الأخيرة إلى قاعدة لأعمال القراصنة التى هددت شواطئ بحر إيچه كلها . ومن ثم لم يعد للإمبراطورية مندوحة عن بعث الأسطول من جديد ، ووافق ذلك نهاية حركة اللاصورية ، وكان ذلك أمراً معقولا ، واهتمت تيودورا وميخائيل الثانى وباسيل الأول بإعادة تنظيم البحرية كلها . وأعيدت البنود البحرية إلى ما كانت عليه من تنظيم سابق . وبعد قليل أضيف إليها بند بحرى جديد هو بند ساموس بما فيه أزمير ، وزودت الإمبراطورية بنودها الأوروبية — مثل هيلاس والبيلوپونيز وسيفالونيا — بمنشآت ومعدات بحرية ، وكذلك فعلت فى البنود الإيطالية . وأنشئت عمارة بحرية كبيرة مركزها عند القسطنطينية يقودها « أمير بحر كبير » معتبر من كبار موظفى الدولة .

« وكان حكام البنود البحرية يتقاضون مع ذلك مرتبات تقل عما كان يتقاضاه أمراء البنود الحربية ، فكان راتب الواحد منهم عشر ليرات من الذهب فى العام . وكانت البحرية البيزنطية الجديدة موفقة قادرة على القيام بمهمتها . نعم إنها لم تستطع استعادة صقلية من أيدى المسلمين ، ولكنها استردت جنوبى إيطاليا للإمبراطورية . وتمكنت العمارة البحرية البيزنطية من أن تقوم بحملات فى البحر الأدرياتى بقيادة أمير البحر أوريفاس Ooryphas ، وأعادت أهل الشواطئ الدلماشية إلى الولاء الذى كانت قد تراخت أواصره . وعلى رغم وجود هذا الأسطول تمكن القرصان المسلم ليو الطرابلسى من أن يغزو إقليم سلانيك وينهبه سنة ٩٠٤ ، ولكن الأسطول البيزنطى تعقبه وقتله بعد ذلك بسنوات »[١] .

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن ناحية هامة من نواحى وضع المسلمين فى البحر الأبيض الشرقى ، هى نظرة مؤرخى الدولة البيزنطية ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين إلى أعمال المسلمين البحرية ابتداء من منتصف القرن التاسع الميلادى على أنها أعمال قرصنة . وربما كان ذلك صحيحاً من بعض الوجوه ،

---

(١) S. Runciman : Byzantine Civilisation (London, 1932) p. 150.

لأن الأساطيل الإسلامية النظامية ــ سواء أكانت تابعة للدولة العباسية فى الشام أم للدويلات المستقلة فى مصر والمغرب ــ قصرت جهدها على الدفاع عن الشواطئ ، أما الغارات فكانت تقوم بها فى الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص ، هدفها الإغارة على الشواطئ الأوروبية والفوز بالغنائم ، ومن ثم كانت أعمالا قريبة من القرصنة ؛ ومن هنا نفهم السبب فى أن المراجع العربية لا تذكر لنا شيئاً عن هذه الأعمال .

والغالب أن هذه الجماعات التى كانت تقوم بهذه الأعمال كانت جماعات حرة لا سيطرة للدول الإسلامية عليها ، كانت تتخذ موانى المسلمين مراكز لأعمالهم ومنها تشن الغارة على ما استطاعت الإغارة عليه من سواحل البلاد النصرانية فى شرق البحر الأبيض وغربه وخاصة بحار إيجه وآدريا والتيرانى . وكان رجال هذه القوات المنسوبة إلى المسلمين بحارة من كل صنف وجنسية ، وكان فيهم الكثيرون من النصارى ، وهذه العمارات البحرية الصغيرة هى التى روعت أمن شرقى البحر الأبيض ووسطه ، بعد أن كفت الدولة الإسلامية عن محاولة غزو الدولة البيزنطية بحراً بعد نهاية العصر الأموى . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن الشواطئ الأوروبية للحوضين الشرقى والأوسط للبحر الأبيض كانت حافلة بمراكز قراصنة النصارى الذين كانوا لا يفرقون بين بلاد إسلامية وغير إسلامية ، فكانوا يغزون شواطئ الدولة البيزنطية وشواطئ إيطاليا ويروعونها ، وقد نسب مؤرخو النصارى أعمال أولئك القرصان النصارى إلى المسلمين أيضاً ما دامت موجهة ضد بلاد نصرانية[١] .

والذى نخرج به من مجموع ما تحدثنا به المراجع الأوربية ، هو أن الحوضين الغربى والأوسط للبحر الأبيض كانا تحت رحمة القراصنة من الجانبين ، من منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر تقريباً . وهذا لا يمنع لقول بأن ضربات الجماعات الإسلامية أو الخارجة من بلاد إسلامية كانت

---

(١) انظر عن ذلك الموضوع ومراجعه :

Neumann : Die Byzantinische Marine فى المجلة التاريخية الألمانية . H.Z. مجلد ٤٥ ، ص ١ وما يليها .

أعنف ، لأن شواطئ الدولة البيزنطية وممتلكاتها فى دلماشيا وإيطاليا لم تكن محروسة تماما ، أما شواطئ بلاد المسلمين فكانت الحراسة عليها أشد ، ولم تخل مع ذلك من ضربات القراصنة بين الحين والحين .

حـ – جماعة أندلسية تستولى على كريت :

وأكبر مثال لهذه الجماعات الإسلامية التى كانت تعمل لحسابها فى مياه البحر الأبيض هو الجماعة الإسلامية التى استولت على إقريطش . وأصل هذه الجماعة من الأندلس ، خرجت من هناك سنة ١٩٨–٨١٣ – ٨١٤ عقب هيج ربض قرطبة على الحكم الأول المعروف بالربضى نسبة إلى ذلك الهيج ، إذ أن الحكم أراد عقاب أهل الربض على وثوبهم فنفاهم ، فذهب بعضهم إلى العدوة الإفريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيًّا خاصاً يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحراً ونزلوا إلى جانب الإسكندرية سنة ١٩٩–٨١٤ – ٨١٥ يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد البلوطى ، لأن ولاة مصر كانوا لا يسمحون للأندلسيين بدخول البلد[1] ، وكان عددهم حوالى ١٥ ألف رجل عدا النساء والأطفال كما يقول دوزى[2] ، وحدث بعد ذلك ما مكن لهم من الاستيلاء على البلد ، ثم ثار عليهم أهل البلد وطردوهم منها[3] . فسار أبو حفص بمن معه ونزل ساحل إقريطش « ولم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق بها من الروم أحد وأخرب حصونها وتداولها بنوه بعده » كما يقول النويرى . ثم وفد على الجزيرة بعد ذلك نفر آخر من الأندلسيين وانضموا إلى إخوانهم « وملكوا عليهم رجلا منهم وعمروا فيها أربعين قطعة ، وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ، ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا ، ولم يكن لملك القسطنطينية بهم من قبل » .

و يبدو أن نشاط المسلمين بلغ حداً روع أمن شواطىء الدولة ، فتذكر

---

(١) الكندى : القضاة والولاة ، ص ١٥٧ .

(٢) Dozy : Musulmans d'Espagne (ed. Lévi-Provençal) I. p. 300.

(٣) الكندى : نفس المراجع ، ص ١٥٨ .

المراجع البيزنطية أبا حفص الإقريطشى باسم أپو كاپسو Apocapso وتنسب إليه غزوات كثيرة . وكان مركز أعماله موضع بلد قديم على خليج لادا Lada يسمى شراخ Charax فحصنه وحفر حوله خندقاً ، وعرف كله بالخندق ونشأت فيه مدينة هى التى عرفت فيما بعد باسم كانديا Candia وهى تحريف للفظ « خندق » العربى . وبلغ من خطر أولئك المسلمين الإقريطيشيين على الدولة أن قرر الإمبراطور رومانوس الثانى الاستيلاء على الجزيرة منهم ، فما زال يحتال على ملكهم عبد العزيز بن حبيب بن عمر حتى تم له استعادة الجزيرة فى جمادى الأولى ٣٤٩–٩٦٠ ، وتذهب مراجع أخرى إلى أن الذى استعاد الجزيرة من المسلمين كان نقفور فوكاس . وتذكر المراجع البيزنطية أن عبد العزيز ابن حبيب أخذ أسيراً إلى القسطنطينية وفيها قضى بقية أيامه [١] .

وبعودة إقريطش إلى الدولة البيزنطية عادت سياد الدولة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ، وحق لنقفور فوكاس أن يقول لليو تويراند السفير الإيطالى : « أنا وحدى أسيطر على البحر »[٢] .

ولكن هذه السيادة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ووسطه لم تدم طويلا ، لأن الأباطرة بعد نقفور فوكاس أهملوا أمر الأسطول ، إما لخوفهم من رجال البحر وقوتهم ، أو لأن شعور الدولة بعدم وجود خطر منافس فى البحر جعلهم يهملون البحرية والأسطول [٣] .

د – البندقية تحل محل بيزنطة

وكانت نتيجة ذلك الإهمال أن فتر النشاط التجارى البيزنطى فى شرق

---

(١) انظر عن ذلك كله :

Mariano Gaspar Rimero : Cordobeses Musulmanes en Alejandria y Creta apud Homenaje a Codera (Madrid, 1904) pp. 218 Sqq.

والنصوص العربية الى ذيل بها هذا المقال.

وانظر أيضاً : سيادة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 151.

(٣) Runciman, op. cit. p. 152.

البحر الأبيض المتوسط ، وعندما نهضت البندقية خلال القرن التاسع الميلادى وجدت أمامها مجالا خالياً ، فنشطت أساطيلها فى نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ، وأعانها على ذلك أنها نجحت فى مخالفة المسلمين مخالفة أوامر البابوات ، وأصبحت سفن البندقية واسطة النقل بين المسلمين والبيزنطيين[١] ، فعادت المتاجر الإسلامية إلى الظهور فى الأسواق البيزنطية ، وكانت سفن البندقيين تحمل إلى الثغور الإسلامية الحديد والنحاس والخشب ورقيق الصقالبة ، وتحمل منها القمح والحبوب والنسيج والتوابل والبخور وأصنافاً مختلفة من صناعات الشرق الدقيقة وتنقلها إلى الأسواق البيزنطية والأوروبية عامة[٢]. بل استطاع البندقيون حوالى سنة ٨٢٨ م – بفضل علاقاتهم الطيبة مع المسلمين أن يحملوا من الإسكندرية رفات القديس مرقص منشئ كنيسة الإسكندرية وكاروزها وينقلوه إلى بلدهم البندقية ويجعلوه راعى بلدهم ، وعلى رفاته قامت كنيسة سان ماركو الباقية إلى اليوم بعد تجديدات وتحسينات أدخلت بعد ذلك[٣].

وفى مقابل هذه الخدمات التى قام بها البندقيون للدولة البيزنطية لم يبخل عليهم الأباطرة بالامتيازات والإعفاءات ، فقامت لهم المحطات التجارية والجاليات فى ثغور الدولة والكثير من بلادها الداخلية[٤] ، بل منحهم ألكسيس كومنين عام ١٠٨٢ إعفاء تاماً من الضرائب والمكوس بشتى صنوفها ، فكانت النتيجة أن أصبحت التجارة البحرية فى البيزنطية احتكاراً خالصاً للبندقيين ، وعندما تبدأ الحروب الصليبية سيقوم البندقيون – لا البيزنطيون – بالجانب البحرى من الأعمال الحربية الصليبية[٥].

---

(١) Mas-Latrie, op. cit. p. 34 Sqq.

(٢) عن نهوض البندقية وسياستها انظر :

Adolf Schaube : Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzuge (Munchen u. Berlin, 1906) s.s. 3 ff.

(٣) شارل ديل : البندقية ، جمهورية أرستقراطية (ترجمة الدكتورين عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١ .

(٤) Henri Pirenne, apud : Histoire du Moyen-Age, tome VIII (Paris, 1933), pp. 22-23.

(٥) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٠) ، ص ٢٨٤ .

هـ – آثار سيادة الإسلام على غربى البحر الأبيض على غربى أوروپا :

أما فى غربى أوروپا ، فقد كان لدخول المسلمين الحوض الغربى للبحر الأبيض وسيطرتهم على مياهه وتهديدهم شواطئه نتائج بعيدة على مصائر غربى أوروپا من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى نهاية الحادى عشر على وجه التقريب ، وقد درس هذه الناحية المؤرخ البلجيكى هنرى پيرين وخرج من دراساته بنظرية مشهورة عند مؤرخى العصور الوسطى ، جمع أطرافها فى كتابه المعروف « محمد وشارلمان[1] » .

و – نظرية هنرى پيرين :

وخلاصة نظرية پيرين أن دخول المسلمين حوض البحر الأبيض أفقد هذا البحر طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة : وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حداً فاصلا بينهما . وإذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية البحر الإيجى من غارات المسلمين إلى حد ما ، فإن أوروپا الغربية وقفت عاجزة أمامهم ، فلم يلبثوا أن سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى جملة ، وضربوا حصاراً حول السواحل الجنوبية لغرب أوروپا ، معتمدين على مراكزهم البحرية القوية التى أنشأوها على شواطئ المغرب والأندلس وفى جزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها . وكانت نتيجة ذلك أن امتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى إيطاليا ، واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين ، كما يقول ابن خلدون فى عبارته التى رويناها قبلا . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة جداً على عهد الكارولنچيين ، فكانت إمبراطوريتهم إمبراطورية برية صرفة ، على حين كان ذلك البحر مفترحاً على عهد الميروڤنچيين

---

(١) أشار إلى نتائج سيادة المسلمين على حوض البحر الأبيض كثير من المؤرخين قبل بيرين ، أهمهم أدولف شاوبه فى كتابه الآلف الذكر ، وهو يعبر عن سيادة المسلمين على هذا البحر وما فعلوه بشواطئه بلفظ ذى دلالة خاصة هو : die Sarazenennot أى الشدة أو المحنة العربية . انظر ص ٣ من ذلك الكتاب . ولكن بيرين هو الذى استخرج من مجموع أحوال البحر الأبيض وأوربا الغربية نظريته المعروفة التى سنعرضها فيما يلى من المتن .

ومن سبقهم من الرومان ، وكان لهذا آثاره البعيدة فى أحوال أوروپا الغربية الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين .

ذلك أن العداء بين الجبهتين النصرانية والإسلامية بلغ ذروته خلال هذه الفترة ، وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيرانى مثل ناپلى وأمالڤى ، نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غالة وبلاد المسلمين ، بل نجد المسلمين يهاجمون سواحل أوروپا النصرانية فى عنف متصل حتى أوائل القرن الحادى عشر ، فقد نهبوا فيشه Pisa عامى ٩٣٥ و ١٠٠٤ وخربوا برشلونة عام ٩٨٥ ، بل بلغ من اشتداد خطر المسلمين خلال القرن العاشر أن نقلت أسقفية مجلونة Maguelonne إلى مونبلييه[١] . بل هاجمت جماعة من المسلمين روما نفسها عام ٨٤٦ وخربوا بعض كنائسها ، وكانت نتيجة ذلك أن انسحب سكان هذه النواحى إلى داخل البلاد وتركوا السواحل والثغور تحت رحمة المسلمين ، أى أن غربى أوروپا انحصر حصراً شديداً من الجنوب . وإذا كنا نسمع عن ناس حجوا إلى بيت المقدس من غالة وإيطاليا خلال القرنين التاسع والعاشر ، فينبغى أن نذكر أنهم وصلوا إلى الأراضى المقدسة عن طريق البر لا عن طريق البحر . ونتج عن توقف الملاحة توقف التجارة ، لأن التجار الذين عرفهم غربى أوروپا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتماداً تامًّا على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر الأبيض ، وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة إلى أواخر العصر الميروڤنجى ، أى إلى نهاية القرن الثامن الميلادى .

---

(١) عرض بيرين نظريته تلك فى أكثر من بحث قبل أن يصوغها صياغة نهائية فى كتاب « محمد وشارلمان » ، وإليك أهم دراساته فى هذا الموضوع :

— Un contraste économique : Merovingiens et Carolingiens dans Revue Belge de philologie et d'histoire. vol. 1, 1922 et vol. II, 1923.

— Medieval Cities (Princeton, 1925).

— Les villes du Moyen-Age. (Bruxelles, 1927).

ز – إغلاق البحر الأبيض الغربى :

وكانت نتيجة ذلك النشاط البحرى الإسلامى تلك الظاهرة التى يصفها پيرين بأنها « انقفال البحر الأبيض الغربى »

la fermeture de la Mediterranée occidentale

وإليك ما يقوله بنصه فى هذا الصدد :

« طالما ظل البحر الأبيض مسيحياً كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب . وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين ، وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين . وإنه لمن الخطأ الجسيم أن نعتقد أن سيادة الإسلام على هذين البلدين قد قضت على كل نشاط اقتصادى لهما . وإذا كانت قد وقعت فى هذه البلاد بعد دخولها فى حوزة الإسلام اضطرابات شديدة[١] ، أو إذا كنا نشهد هجرة واسعة من السوريين نحو الغرب[٢] ، فلا ينبغى أن نحسب أن ذلك دليل على انهيار البناء الاقتصادى هناك . فقد أصبحت دمشق أولى عواصم الخلافة الإسلامية[٣] ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى . وما دام النصارى يؤدون الجزية للدولة الإسلامية فقد كانوا آمنين لا يمسهم ضر ، وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير[٤] .

« ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) يمنع رعاياه من المتاجرة مع بلاد

---

(١) يشير إلى الفتنة التى وقعت بعد مقتل عثمان .

(٢) لا تحدثنا مراجعنا الإسلامية بشىء عن هذه الهجرة ، ولكن بيرين أورد فى موضع آخر من كتابه أدلة استقاها من المراجع الأوربية .

(٣) الصحيح أنها الثانية بعد المدينة ، أو الثالثه إذا اعتبرنا الكوفة عاصمة لعلى بن أبى طالب أثناء خلافته .

(٤) بمناسبة إغلاق الإسلام للبحر الأبيض الغربى (بخلاف حوضه الشرقى) انظر ما يذكره العربى النصرانى يحيى بن سعيد الأنطاكى من أنه لم يجد بين يديه بعد البابا أجاتون (٦٧٨ – ٦٨١) بياناً يستطيع الاعتماد عليه فى ترتيب بطارقة روما . انظر :

Bedier : Charlemagne et la Palestine. Revue Historique, t. CLVII, 1928.

النصارى[١] فى طول فترة الفتوح . وعندما هدأت الحرب واستقر السلام ونشطت الأنفس من عقالها فى الولايات المفتوحة ، عمد الإسلام إلى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحها أمامه فترحه . لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى عن طريق نهر الڤولجا . وكان على تجار اسكنديناوة الذين كانوا يترددون على نواحى البحر الأسود أن يسرعوا باتخاذ الطريق الجديد ، ويكفى دليلا على ذلك ما عثرنا عليه من قطع العملة الشرقية فى چوتلاند .

« ومن المؤكد أن الاضطراب الذى كان لابد أن يلازم حركة الفتح الإسلامى للشام (٦٣٤ — ٦٣٦) ولمصر (٦٤٠ — ٦٤٢) قد أوقف الملاحة مؤقتاً[١] ، فقد كان لابد من أخذ سفن التجارة وضمها إلى الأسطول الذى أسرع المسلمون لإعداده لاستعماله فى بحر إيچه . ولا يمكن أن نتصور أن التجار كانوا يشقون البحار بسفنهم بين الأساطيل المعادية ، اللهم إلا ما عمد إليه بعضهم انتهازاً للفرصة السانحة من اتخاذ طريق القرصنة .

« ولابد أن نقرر أنه ابتداء من منتصف القرن السابع أصبحت الملاحة — من موانى البلاد الإسلامية وموانى بحر إيچه مع البلاد التى ظلت نصرانية — مستحيلة . وإذا كان قد بقى من هذه التجارة شىء ، فهو نزر يسير لا يستحق الذكر .

« أما من الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها ، فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الأسطول البيزنطى ، واستمر الاتصال مع الأقاليم الإغريقية من بلاد اليونان والبحر الأدرى (الأدرياتى) وإيطاليا الجنوبية وصقلية . ولكننا لا نستطيع القول أنها كانت تستطيع الاستطراد إلى ما يلى ذلك ، لأن المسلمين بدأوا يهاجمون صقلية ابتداء من ٦٥٠ م .

« أما عن النشاط التجارى الإفريقى ، فلا نزاع فى أن القلقلة المستمرة التى

---

(١) عدلت عبارة المؤلف هنا بعض التعديل ، وهاك الأصل :

Il va de soi qu'en pleine guerre, le vainqueur ne laissa pas ses sujets trafiquer avec les vaineus

شملتها من ٦٤٣ إلى ٧٠٨ قد أوقفته تماماً . وإذا كانت قد بقيت منه بقية فقد اختفت بعد سقوط قرطاجنة، وإنشاء تونس ٦٩٨ .

« ثم بدأ فتح الأندلس عام ٧١١ ، وعدمت شواطئ پروڤانس الأمان بعد ذلك مباشرة ، وكانت النتيجة أن أصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية أن تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها ، إذ لم تكن لديها أساطيل ، أو بقى لها منها شىء وجوده كعدمه .

« وهكذا نستطيع أن نقرر أن الملاحة توقفت من حوالى ٦٥٠ مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وأنه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماماً فى شواطئ الغرب[١] جميعها .

« ويبدو توقف هذه الملاحة تماماً بصورة لا تقبل الشك فى أوائل القرن الثامن . لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأبيض إلا على السواحل البيزنطية . وقد صدق ابن خلدون فى قالته : « كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج » (مع استثناء بيزنطة) . لقد أصبح حوض البحر الأبيض تحت رحمة قراصنة المسلمين[٢] . وخلال القرن التاسع نجدهم يستولون على الجزائر ويخربون الموانى ويقومون بغارات (razzias) على كل موضع من مواضعه . وخيم سكون شامل على ميناء مرسيليا الكبير الذى كان فيما مضى المركز الرئيس لتجارة الغرب مع الشرق . لقد انكسرت الوحدة الاقتصادية للبحر الأبيض ، وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية . ولقد ظلت هذه الوحدة قائمة رغم غزوات الجرمان ، ولكنها انهارت

---

(١) يقصد الشواطئ الغربية للبحر الأبيض .

(٢) ناقشت مسألة قراصنة المسلمين هذه فيما سبق .

أمام الدفاع الإسلامى الذى لا يقاوم » .

هذه هى الظاهرة التاريخية الكبرى التى يرى المؤرخ الكبير أنها نتجت عن سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض وتحوله إلى بحيرة إسلامية . وهو يعلق عليها نتائج أبعد مدى مما ذكرنا ، نتائج تتصل بالتطور العام لتاريخ أوروبا الغربية فيما بين منتصف القرن السابع إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين . وأهم هذه النتائج هى سرعة تحول العالم الأوروبى الغربى إلى عالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره إلى نتائج أخرى . ونحن نوجز ذلك كله فيما يلى :

ح — تحول مجتمع غربى أوروبا إلى مجتمع زراعى :

ذلك أن توقف هذه التجارة البحرية أدى إلى اختفاء التجار فى غربى أوروبا . ولما كان هؤلاء التجار هم الذين يعمرون المدن الرومانية القديمة ، فقد أسرعت هذه المدن إلى الاضمحلال والزوال . نعم إن الأساقفة ظلوا يقيمون فيها مع من لزم الكنائس وشؤون الدين من القسس والرهبان والديّارين والطلاب وخدم الكنائس ومن إليهم ، ولكن هذه المدن فقدت أهميتها الاقتصادية ، وإذا فقد البلد أهميته الاقتصادية وخلا من التجار اضمحل وأسرع إليه الزوال . وباختفاء التجارة والتجار اختفى « الصولدى » الرومانى الذهبى الذى كان أساس التعامل التجارى فى حوض البحر الأبيض كله ، واضطر الكارولنچيون إلى سك عملة فضية ، وظهور هذه العملة الأخيرة دليل ناصع على ما أصاب التجارة فى غربى أوروبا من كساد كامل خلال القرن التاسع الميلادى .

ولما كان ابتداء القرن التاسع يوافق الانتقال من العصر الميروڤنچى إلى العصر الكارولنچى فى تاريخ غالة وأوروبا الغربية عامة ، فإن پيرين يعتبر العصر الكارولنجى عصر تأخر اقتصادى حضارى لغربى أوروبا ، ويصف حضارته خلاله بأنها حضارة قارية زراعية ويقول : « وإنه لمن الخطأ البين أن نعتبر حكم شارلمان عصر صعود اقتصادى كما يظن الكثيرون . إن هذا القول ليس إلا وهماً خادعاً ، إذ الواقع أننا إذا قارنا الفترة الكارولنچية بالفترة الميروڤنچية

وجدناها — من الناحية التجارية — فترة تدهور ، أو إذا شئنا فترة تراجع [١] . ولو أن شارلمان حاول أن يوقف النتائج التى لا مفر منها التى نتجت عن اختفاء النشاط الملاحى وانتقال البحر الأبيض لما استطاع »[٢] .

وإذا كنا نلاحظ أن شيئاً من النشاط التجارى قد ظل قائماً فى النواحى الشمالية للإمبراطورية الكارولنچية ، وأن بعض المدن التجارية على الأحواض الدنيا لأنهار الرين والميز والموزيل والإسكو وفى إقليم فريزيا قد استمرت التجارة فيها قائمة ، فلا ينبغى أن نظن أن ذلك كان استمراراً للنشاط التجارى القديم الذى عرفته أوروپا على عهود الرومان والميروڤنچيين ، بل هو فى الغالب نتيجة لاتخاذ شارلمان لبلدة « إيكس لاشاپل » عاصمة له وسط هذا الإقليم ، مما أدى إلى نشاط تجارى قصير الأجل ، إذ لم تلبث غارات النورمانيين أن قضت على ذلك النشاط القليل ، وبهذا أغلقت بحار أوروبا الشمالية كما أغلقت بحارها الجنوبية ، ووقع غربى أوروپا بين حصارين شديدين : من الشمال على أيدى النورمانيين ، ومن الجنوب على أيدى المسلمين

واكتمل هذا الحصار عندما نشطت غارات الآڤار والمجر على غربى أوروپا من الشرق ، وقد كانت غاراتهم مخربة قاسية لا تقل عنفاً عن غارات النورمانيين والمسلمين .

وكانت نتيجة هذا الحصار الشديد ، وما تبعه من اختفاء التجارة والتجار واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوروپا إلى مجتمع زراعى صرف ، وأصبح الناس جميعاً يعيشون على نتاج الأرض وحده مباشرة أو غير مباشرة : من الإمبراطور الذى كان يعتمد على ما تخرجه أرضه من محاصيل وما يؤديه إليه أتباعه ومزارعوه من واجبات إقطاعية عينية ، إلى « القن » المتواضع

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى كتاب .

L. Halphen : Etude esitique sur l'histoire de Charlemagne. p. 259 et suiv. (Paris, 1921).

وإلى :

H. Pienne : Le commerce du papyrus dans la Gaule mérovingienne dans comptes rendus des séances de l'acad. des Inscriptions des Belles Lettres, 1928, p. 178 et suiv.

(٢) H. Pirenne : La civilisation occidentale du Moyen-Age, p. 11.

الذى كان يعيش على نصيبه من غلة الأرض التى يزرعها . وأصبح العقار الثابت من أرض أو بيت أساس الثروة . وإزاء ذلك عجزت الدولة عن الحصول على المال اللازم لكراء الجند وتجييش الجيوش ، وأصبح عماد الأباطرة من الناحية العسكرية على الخدمات الحربية التى كانت عقود الإقطاع تلزم الأتباع بأدائها لفترات قصيرة ، واعتمد الإمبراطور فى إنجاز أعمال الدولة على خدمات كبار أتباعه . ولما كانت هذه الخدمات كلها قليلة متقطعة ، فإن الدولة حرمت نتيجة لذلك كله الأداتين الأساسيتين اللتين لا تقوم دولة بدونهما : الموظفين الدائمين والجيش القائم ، والنتيجة الطبيعية لهذا كله هو ضعف الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بمكانها وهيبتها .

وإذا كانت الدولة قد ظلت قائمة من الناحية النظرية ، فقد اختفت فى الواقع ، ولم يكن النظام الإقطاعى فى واقع الأمر إلا تفتيتاً لسلطان الدولة وتوزيعاً له بين المقطعين ، لأن كل مقطع كان يحرص على أن يحل محل الدولة فى أراضيه ، مقابل ما يؤديه للإمبراطور من خدمات والتزامات إقطاعية ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن غلبة نظام الإقطاع على غربى أوروبا خلال القرن التاسع كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الأوروبى إلى مجتمع زراعى خلال هذا القرن .

وقد عرف غربى أوروبا نظام الضياع المستقلة « الدومين » منذ زمن بعيد ، فقد كان فى غالة على أيام أباطرة الرومان وملوك الميروفنچيين ضياع واسعة أو ڤيلات[1] يملكها أشخاص يستخدمون أعداداً كبيرة من الزراع فى زراعتها ،

---

(١) الفيلا Villa تطلق عند الرومان على الضيعة الى يملكها مالك كبير والبيت الذى يقيمه لنفسه فيها ، وقد تطور استعمال اللفظ فأصبح يطلق على القصر الريفى ثم على القصر الخاص الصغير . وقد عرفت العصور الوسطى نوعاً جديداً من الضياع تسمى واحدتها بالفيلا نوفا Villa nova أى الضياع الجديدة ، نشأت عن سماح كبار الملاك لجماعات من المزارعين باستصلاح الأرض البور على أساس حر غير إقطاعى ، وقد كان نشوء الفيلانوفا إلى قيام المدن من مظاهر الانتعاش الاقتصادى فى غربى أوروبا وإرهاصات زوال الإقطاع ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى . انظر :

وقد كان لهذه الثميلات دور هام فى اقتصاديات تلك العصور ، إذ كان أصحابها يبيعون الفائض من محاصيلهم أو يستبدلون به ما كانوا بحاجة إليه من سلع ومصنوعات ، فكانت الضياع مراكز للتبادل التجارى النشيط ، فلما تحول المجتمع كله إلى مجتمع زراعى واختفت التجارة والتجار لم يجد أصحاب الضياع من يحمل محاصيل أراضيهم ويأتيهم عوضاً عنها بما يحتاجون إليه ، واضطروا لهذا إلى الخضوع للنظام السائد ، وأخذوا يستهلكون غلاتهم محلياً ، وأصبح أساس حياتهم الاقتصادية ما يعرف بالاقتصاد الضيعى المقفل économie domaniale fermée ، واهتم كل صاحب ضيعة بأن يضع فى أرضه كل ما كان وأهل ضيعته يحتاجون إليه من أدوات وأن ينسج ما يلزمه ويلزمهم من أقمشة دون زيادة ، لأن الزيادة لم تكن تجد من يشتريها أو يبادل بها شيئاً .

ولم يعرف غربى أوروبا خلال القرن التاسع إلا أفراداً قلائل من اليهود ، كانوا يتسربون إلى غالة عن طريق الأندلس حاملين ما خف وغلا من الحاجيات وطرف المصنوعات الشرقية ، كنسيج الحرير الرقيق الذى كان يصنع فى الأندلس ومصر والشام وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اقتصرت هذه التجارة على اليهود حتى إن لفظ اليهودى judalus والتاجر mercator كانا مترادفين إذ ذاك ، وقد عرفوا فى غربى أوروبا بنفس الاسم الذى عرفهم به المسلمون فى ذلك العصر وهو « الرادانيون » Radanites — نسبة إلى نهر الرون وهو رودانوس باللاتينية ، لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر . وقد كانوا يقدمون للكنائس ما كانت بحاجة إليه من بخور وللناس الفلفل ، وكان من أغلى حاجيات العصر ، حتى إن الناس كانوا يستعملونه أساساً للتبادل كالنقود[١] .

H. Pirenne, op. cit. pp. 62 Sqq.

R. Schroeder : Die Niederlandischen Kolonien im Nord deutschand zur zeit des Mittelalters. Berlin, 1880.

وأنا مدين فيما أخذته من هذا المرجع الأخير لما تفضل الأستاذ آرنالد شتايجر بإرساله إلى من نقول منه .

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 14-15.

ونتيجة هذا كله أن أصبح غربى أوروبا كله مجتمعاً زراعياً خالصاً يتسم بكل الخصائص التى تلازم المجتمعات الزراعية حيثما كانت : فعلاقة الإنسان بالأرض هى التى تحدد وضعه فى المجتمع ، فمن يملك الأرض يتمتع فى نفس الوقت بالحرية والقوة والسيادة ، ومن لم يملك أرضاً لم يعد له نصيب من حرية أو جاه أو سيادة . ولفظ ڤيلان vilain — الذى نستعمله نحن اليوم بمعنى : شرير ، أو قبيح — كان يطلق إذ ذاك على العامل الزراعى فى الضيعة أو الڤيلا ، وهذا أمر له دلالته . وكانت أوضاع الناس فى هذا المجتمع هى التى هى التى تقرر وضعهم القانونى أيضاً ، فكان العاطل من الأرض أيا كان شخصه فى مراتب المستضعفين المستغلين . وكان الناس على هذا طبقات بعضهم فوق بعض بحسب ما يملكون — أو لا يملكون — من أرض .

ى — أثر ذلك التحول فى مركز الكنيسة :

وفى ذلك المجتمع الزراعى الهرمى كان المكان الأول فيه للكنيسة ورجالها ، فقد ملكت الكنائس مساحات شاسعة من الأرض يديرها الأساقفة والقسوس ، وكانوا يحرصون على حسن إدارتها واستغلالها والاستزادة من الأملاك ما تيسر ، وكان رجال الدين يمتازون إلى جانب ذلك بالقراءة والكتابة . ثم إن أصغر بيعة لم تكن تخلو من شىء من آنية الذهب أو الفضة أو طرف من المخمل أو الحرير مما يلزم للطقوس ، وكلها كانت نفائس ذات قيمة يستطيع القس الانتفاع بأثمانها فى أوقات المجاعات والنوازل . وكانت صناديق الكنائس لا تخلو أبداً من العملة التى كان الناس يدخرونها وفاء للنذور أو زكاة عن أنفسهم . وكانت الكنيسة تستعين بهذا المال أيضاً فى تمكين سلطانها وتأييد مركزها . أضف إلى ذلك أن رجل الدين كان يقوم بكل مايحتاجه جيرانه من كتابة وقراءة وتحرير عقود وما أشبه . ومن ثم غلبت روح الدين على كل شىء فى هذا المجتمع الزراعى وجمع رجاله إلى جانب قوة المال قوة المعرفة والعلم ، فضلا عن جاه الدين [١] .

---

(١) Cf. H. St. L.B. Moss : The Birth of the Middle Ages 396-814. (Oxford, 1935), p. 37.

H. Pirenne : Civilisation. pp. 16-17

وكانت نظرة الكنيسة إلى الحياة تتفق تمام الاتفاق مع روح العصر وأوضاعه ، فقد كانت الكنيسة تقول إن الله قد وهب الناس الأرض ليعيشوا عليها ريثما ينتقلون إلى الدار الباقية ، والإنسان على الأرض لا يعمل ليجمع المال بل ليقيم أود نفسه في الوضع الذى برأه الله عليه حتى تدركه منيته ، وكان زهد الرهبان والديارين — نتيجة لذلك — هو المثل الأعلى الذى كان على كل مسيحى صالح أن يتحراه ، والفقر قضاء من الله ، وعلى من يملك زيادة من الخير أن يتصدق بها على الفقير ، أما بيع هذه الزيادة فلا يتفق مع الفضائل المسيحية كما كانت تبشر بها الكنيسة فى تلك العصور (١) .

ومن هنا كانت الكنيسة وأخلاق العصر تنظر إلى التجارة على أنها عمل لا يليق بالمسيحى المخلص ، وكان التاجر متهماً فى دينه ، وكان رجال الكنيسة يقولون إن التاجر لا يكاد — أو لن — يدرك رضى الله Homo mercator vix aut non quam potest Deo placere mutuum date nihil وكانوا يحضون الناس على البذل والإنفاق ، inde sperantes هذا فضلاعن تحريم الربا ومعاقبة من كان يتعاطاه (٢) .

كانت آراء الكنيسة إذن فى ذلك العصر صورة من روحه تمثله لنا أصدق تمثيل . وذيوع هذه الآراء وأخذ الناس بها فى ذاته هو الصورة العقلية لركود المجتمع الأوروبى فى ذلك العصر نتيجة لاختفاء التجارة ووقوع غربى أوروبا فى ذلك الانحصار البحرى الكامل الذى وصفناه .

ك — النتائج الثقافية :

وتتصل بهذه النتائج الاقتصادية والاجتماعية التى ذكرناها بنتائج ثقافية يراها پيرين ناتجة عن الظروف القاسية التى مر بها العالم اللاتينى الثقافة فيما بين القرنين السابع والعاشر . فقد أمحت آثار اللغة اللاتينية والثقافة الرومانية فى

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 17.

(٢) قارن ذلك بما يقوله ابن خلدون فى مقدمته فى فصول مثل « فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك » و « فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء و بعيدة عن المروءة » .

المغرب كله ، وحلت محلها لغة العرب وثقافة الإسلام ، ودخل هذا الجزء الكبير من أراضى الغرب فى النطاق الثقافى المشرقى ، وامتدت معه حدود الثقافة الأسيوية إلى المحيط الأطلسى . وكانت هذه الحقيقة تثير نفس ا . ف . جوتييه الجغرافى المؤرخ الفرنسى ، ونحن لا نكاد نقرأ له فصلا إلا وجدناه يبدى ويعيد فى هذا الموضوع بين الأسف والتعجب(١) .

أما فى شبه الجزيرة الإيبيرية فقد اختفت اللاتينية أمام العربية من معظم نواحيها ، واختفت حتى من الكنائس ، فلم يعد يعرفها ويقرؤها ويكتبها إلا نفر قليل جداً من كبار رجال الدين ، وانقطعت الأسباب بين غالة وإيطاليا من جهة وإسبانيا من جهة أخرى ، فنسى الناس اللاتينية فى هذا البلد الأخير ، وتكلموا فى أحاديثهم لهجة شديدة البعد عنها هى القشتالية ، وهى أصل الإسبانية ؛ هذا إلى ذيوع اللغة العربية كلغة رسمية علمية فى الأندلس . وقد تكلم الناس هذه اللهجة القشتالية البدائية فيما بقى للنصارى من بلاد شمال إيبريا ، وأخذ مداها يتسع شيئاً فشيئاً ، وامتدت نحو الجنوب تبعاً لتقدم نصارى الشمال وتضاؤل الأندلس الإسلامى ؛ وهى التى أصبحت فيما بعد اللغة الإسبانية .

وأما فى غالة فقد غلبت الأمية على الناس فى ذلك المجتمع الزراعى الذى لا يكاد من يعيش فيه يحتاج إلى قراءة أو كتابة ، بل كانت اللاتينية التى علمها رجال الدين فى مدارسهم لاتينية ركيكة محرفة ، ولكنها كانت لاتينية على أى حال . وقد ظلت هذه اللاتينية تعلم وتفهم حتى نهاية العصر الميرفنجى ، وكان الناس يستطيعون التفاهم بها فى أرجاء العالم الرومانى كله(٢) .

وفى خلال القرن الثامن نجد أن هذه اللاتينية المحرفة تختفى فى غمار الفوضى السياسية مع اختفاء المدن والتجارة ونظم الإدارة ، واختفت كذلك مدارسها ومن كان يعنى بها وبتعليمها من المعنيين بالمعرفة من غير رجال الدين . هجنت هذه اللاتينية وانقطعت الصلة بينها وبين أصلها وحلت محلها لهجات رومانية فى كل

---

(١) انظر كتابه :

E.F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord (Les siècles obscures), 2e. éd. Paris. 1937.

(٢) H Pirenne : Mahomet et Charlemagne. pp. 251-252.

ناحية[١] . ولا نعرف كيف حدث ذلك بالتفصيل ، ولكننا نجد الناس فى غربى أوروپا حوالى سنة ٨٠٠ لا يتكلمون اللاتينية ، ولا ينطقون بها إلا فى الكنائس وبين المشتغلين بالعلم . أصبحت اللاتينية لغة العلم ، وهذه ظاهرة أخرى يقرر الأستاذ پيرين أنها ظهرت خلال العصر الكارولنچى[٢] .

ومن الغريب أن تحول اللغة اللاتينية إلى لغة علم بدأ فى ناحية كان الجرمان قد أزالوا منها كل أثر لاتينى أو رومانى : بدأت فى بريطانيا التى نزلها الأنجلوسكسون .

ذلك أن المسيحية لم تدخل بريطانيا عن طريق غالة ، وكان هو الأمر المنطقى ، وإنما وصلتها عن إيطاليا مباشرة ، لأن البابا جريجورى الكبير أرسل إلى بريطانيا نفراً من الرهبان الأوغسطينيين ليبشروا بالمسيحية فى هذه الجزائر سنة ٥٩٦ . واجتهد الرهبان فى تعليم الناس اللاتينية والمسيحية فى آن واحد ، فارتبطتا فى أذهانهم وأصبحت اللاتينية والمسيحية فى اعتبارهم شيئاً واحداً ، وعن رجال الدين من الأنجلوسكسون انتشرت فى أوروپا فكرة ارتباط المسيحية واللاتينية ، أى أن شمالى أوروبا أصبح مصدراً من مصادر الفكر كما كان مركزاً لسياسة أوروپا فى ذلك الحين ، وذلك — فى رأى پيرين — نتيجة أخرى من نتائج سيادة المسلمين على البحر الأبيض .

وإليك ما يقوله پيرين بنصه ننقله لأهميته الخاصة فى هذه الدراسة :

« ولا بد أن نرجع الفضل فى النهضة الفكرية التى حدثت فى عصر شارلمان إلى المبشرين الأنجلوسكسونيين . وقد سبقهم إلى ذلك الرهبان الأيرلنديون ، وخاصة كولومبان Colomban أعظمهم جميعاً ، وقد نزل فى غالة حوالى ٥٩٠ وهو منشئ ديرى لوكسوى Luxeuil وبوبيو Bobbio . وقد دعا هؤلاء الرهبان إلى التزهد فى عالم كانت عقيدته الدينية فى انهيار . ولكننا لا نستطيع القول بأنه كان لهم أى لون من التأثير الفكرى .

« أما المبشرون الأنجلوسكسون فأمرهم يختلف عن ذلك كثيراً : كان

---

(١) تعبير بيرين هنا طريف ، ونصه :

Elle s'abatardit et se transforme suivant les régions en dialectes romans. op. cit. p. 252.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 252.

هدفهم هو نشر المسيحية فى بلاد الجرمان ، ولم تفعل « الكنيسة » فى هذا السبيل شيئاً ، أو فعلت شيئاً لا يستحق الذكر . وقد وافق مسعاهم هذا ما كانت ترمى إليه السياسة الكارولنچية . وهذا يفسر لنا السر فيما كان يتمتع به رجل مثل القديس بونيفاس من مكانة عظيمة فى هذه الدولة ، فهذا الرجل هو منظم الكنيسة الجرمانية ، ومن هنا كان همزة الوصل بين البابا وپيپين القصير .

« ولقد كان شارلمان مهتماً أشد الاهتمام بالنهضة الأدبية وبإصلاح أمر الكنيسة فى آن واحد . وقد دخل فى خدمته أظهر ممثلى الثقافة الأنجلوسكسونية وهو ألكوين Alcuin فى سنة ٧٨٢ إذ جعله مشرفاً على مدرسة القصر . ومن ذلك التاريخ أصبح له تأثير حاسم فى الحركة الأدبية فى ذلك العصر .

« وهكذا نجد أنفسنا أمام أعجب صورة لانقلاب الأوضاع وهى أنصع دليل على ما أحدثه الإسلام من شادخ فى الاتجاه العام لتاريخ أوروپا فى العصور الوسطى ، فقد أخذ الشمال مكان الجنوب كمركز أدبى وسياسى معاً »[١]

ثم يقول إن أولئك المبشرين الأنجلوسكسون حملوا إلى بلاد الشمال اللغة اللاتينية الأصيلة ، لا تلك اللاتينية الركيكة المليئة بالأخطاء التى استعملها الناس فى غالة وإيطاليا فى ذلك الحين لتيسير شؤونهم المعاشية والإدارية ، ويصف كيف كانوا يحرصون على دراسة اللاتينية الصحيحة فى الأديرة دراسة ثابتة عميقة قبل صدورهم إلى نواحى الشمال التى كانوا يبشرون فيها بالمسيحية ، ويقول بعد ذلك :

« وإذن فقد حمل أولئك المبشرون إلى من أدخلوهم فى المسيحية التقليد اللاتينى الأصيل القديم واللغة الصحيحة التى لم تتحرف وتفسد بسبب استعمال الجمهور إياها فى شؤونه الدارجة ومصالحه ، لأن الجمهور هناك كان يتكلم الأنجلوسكسونية . وإذن فقد تلقت الأديرة الإنجليزية تراث الثقافة القديم تلقياً مباشراً ، بالضبط كما سيحدث فى القرن الخامس عشر ، عندما يحمل علماء بيزنطة المهاجرون إلى إيطاليا اللغة الإغريقية الأصيلة التى كان الناس

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 253-254.

يتدارسونها فى المدارس ، لا إغريقية العوام فى الطرقات . ومن هنا أصبح الأنجلوسكسونيون مصلحى اللغة والكنيسة فى آن واحد »[١] .

ل — محمد وشرلمان :

وهذا الذى يقوله پيرين ينطوى على معان بالغة الأهمية تغلب كل ما كان الناس يقولونه عن ثقافة الإمبراطورية الكارولنچية رأساً على عقب ، فقد كان المؤرخون يرون أن نهضة الثقافة فى العصر الكارولنچى أو ما يسمونه بالنهضة الكارولنچية La Renaissance Carolingienne كان ثمرة لجهود أهل العلم من اللاتين ممن خدموا الدولة . وكان علماء الألمان خاصة يرون أن الفضل فيها يرجع إلى أهل العلم من الجرمان من أهل شمالى الدولة الكارولنچية ، فأثبت خطأ ذلك ، وأن العلم واللغة اللاتينية كانا فى حال سيئة فى جنوبى غالة ووسطها وإيطاليا فى ذلك الوقت ، وأن الذى قام بعبء هذه النهضة كانوا من الأنجلوسكسون الذين أخذوا المسيحية واللاتينية من أصولهما عن طريق الدرس الدءوب فى الأديرة .

وإلى جانب ذلك نلاحظ انتقال العلم إلى بلاد الشمال ، نتيجة لما أصاب النواحى الجنوبية من غربى أوروپا من ركود وما تهددها من أخطار . وبينما كان العلم يضمحل بين سكان البلاد الرومانية الأصيلة فى إيطاليا وغالة كانت أقدامه تثبت فى نواحى الشمال حيث حمله إليها رهبان من الأيرلنديين أو الأنجلوسكسون. وعندما يتأمل الإنسان أسماء من اشتهر بالعلم خلال هذا العصر يلاحظ أن غالبيتهم من أصول أيرلندية أو أنجلوسكسونية أو أوربية شمالى السين مثل ألكوين ونازون وإيثلولف و Sedulius Scotus و Walahfrid, و Raban Maur, و Eginard, و Angilbert, و Gotteschalc, وغيرهم كثيرون ممن نقرأ كتاباتهم إلى جانب ما خلفه ذوو الأصول الرومانية من كتاب ذلك العصر من أمثال Paulin d'Aquilée, Paul Diacre و Théodulphe d'Orléans, ومن إليهم .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 254.

وخلاصة كلام پيرين عن الناحية الثقافية من نتائج سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض ، أن مراكز العلم والثقافة انتقلت شيئاً فشيئاً إلى الشمال حتى صار لها فيه من المراكز ما فاق مراكزها فى مواطنها الأولى فى إيطاليا وغالة ، أى أن الثقافة اللاتينية التى كانت قبل ذلك رومانية أصبحت جرمانية رومانية ، واقتصر أمرها فى كلتا الناحيتين على الكنيسة .

أصبح شمالى أوروپا إذن مركزاً من مراكز الحضارة اللاتينية الرومانية بسبب ما أصاب جنوب جزئها الغربى من ركود واضمحلال نتيجة لسيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، وهذه الثقافة الرومانية التى انتقلت إلى الشمال وأخذت طابعاً جرمانياً فى نواحى الرين الأدنى هى التى اعتمد عليها شارلمان فى إقامة دولته : من أهلها كان رجاله وموظفوه ، بل كان من أظهر ما ميز شارلمان وجعل له مكاناً فى التاريخ هو تفكيره الجرمانى الرومانى واتجاهه إلى إحياء الدولة الرومانية وميله إلى الكنيسة وإخلاصه للمسيحية ، كل ذلك كان نتيجة لانتقال هذه الثقافة الرومانية إلى الجرمان وتأصلها بينهم ، ولولا أن الفرنجة الساليين اكتسبوا هذا الطابع الثقافى الرومانى ما بلغت دولتهم هذا المبلغ ، ولما كان شارلمان ما كان ، ومن ثم ينتهى پيرين إلى قالته المشهورة : إن شارلمان لا يفهم بدون محمد وهى قالة فيها كثير من العمق ، ولكنها تبعث كثيراً من الاعتراضات والاستدراكات ، وكان من الطبيعى لهذا أن تثير بين علماء العصور الوسطى ما لم تثره نظرية أخرى قال بها عالم آخر .

وقد جاءت الاعتراضات على آراء پيرين من ناحية مؤرخى الألمان ، لأن پيرين عندما تتبع نتائج سيطرة المسلمين على البحر الأبيض جعل من بينها تحول مجتمع غربى أوروپا إلى مجتمع زراعى ثم انتقال الحضارة اللاتينية إلى شمال غربى أوروپا وقال إن هذا الانتقال هو الذى جعل لعصر شارلمان حضارة وقوة ، وجعل لدولته هذا المكان فى تاريخ أورپا ، أى أن السر فى عظمة الدولة

---

(١) انظر : فازيلييف : الإسلام و بيزنطة . ذيل على الترجمة العربية لتاريخ الدولة البيزنطية لفورمان بيتز ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

Charlemagne sans Mahomet est inconcevable.

الشرلمانية إنما هو انتقال الحضارة اللاتينية إلى الشمال حيث كان مركز الدولة ، ولولا هذا الانتقال لما كان للعصر الشرلمانى هذا المقام . أى أن العناصر الجرمانية فى الدولة الشرلمانية لم يكن لها حضارة من عندها ولم تساهم فى إقامة الدولة إلا بالجانب العسكرى .

وعلماء الجرمان لا يقولون بذلك ، بل إنهم يقولون إن أسس الدولة الشرلمانية كلها — أو معظمها على الأقل — كانت جرمانية ، وإن أصول نظمها إنما تلتمس فى نظم الجرمان الأولى . ويخالفهم فى ذلك المؤرخون الذين ينتسبون إلى أصل لاتينى ، كالفرنسيين مثلا . وهذا الخلاف على أسس الدولة الشرلمانية إن هو إلا مظهر من مظاهر النزاع حول أصول الحضارة الوسيطة بين المدرسة الجرمانية والمدرسة الرومانية .

م — اعتراضات على نظرية پيرين :

وكان من الطبيعى أن يعترض مؤرخو الألمان على آراء پيرين اعتراضات شتى . وهذه الاعتراضات أخذت صورتين : الأولى الإقلال من شأن سيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، ودحض ما سماه پيرين انقفال البحر الأبيض ، والثانية بيان الأصول الجرمانية فى الحضارة الشرلمانية وإعطاؤها جانباً أكبر من الأهمية. وقد كتب الرد على پيرين كثيرون منهم ألفونس دوبش Alfons Dopsch ورودلف إيجر Rudolf Egger ، وأوزوالد منجين Oswald Menghin ، ورودلف موش Rudolf Musch ، وكارل پاتش Karl Patsch وهانز أوبربرجر Hans Uberberger ، وإيرما باتسلت Erma Patzelt وغيرهم كثيرون . وقد أحسنوا الدفاع عن وجهة نظرهم من ناحية إثبات نصيب الجرمان فى الحضارة الكارولنجية . وبقى أن نبحث نحن — أى مؤرخى الإسلام — جانبنا من هذه القضية الهامة . وقد لمست الآنسة إيرما باتسلت النقص فى الجانب الإسلامى من هذه الدراسة ، وأهابت بدارسى تاريخ الإسلام وحضارته أن يدرسوا الموضوع من جانبهم ، ويبينوا ما كان للإسلام من نصيب فى تاريخ البحر الأبيض ، وما كان لقيام دولهم على شواطئه من

أثر على تطور الحضارة الأوروبية (١) .

٤

الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض أثناء عصور سيادة الإسلام عليه :

بقى أن نناقش نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع كله ، هى نقطة الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض فيما بين منتصف القرن الثامن إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين .

وأمامنا فى هذه الناحية رأى يتناقله المحدثون من مؤرخى الإسلام كأنه حقيقة مقررة لاشك فى صحتها تاريخياً : هى أنه قامت على شواطئ هذا البحر خلال هذه الفترة أربع دول كبرى ، اثنتان إسلاميتان : هما العباسية فى المغرب والأموية فى الأندلس ، واثنتان نصرانيتان : هما البيزنطية فى الشرق والفرنجية فى الغرب ، وأن الدولتان الإسلاميتين كانتا على عداء فيما بينهما ، وكذلك الدولتان النصرانيتين . ولهذا اجتهدت الدولة العباسية فى محالفة الدولة الكارولنچية للاستعانة بها على الدولة الأموية الأندلسية ، وفى نفس الوقت اجتهدت الدولتان البيزنطية والأموية فى التحالف معاً للقضاء على خصمتيهما .

ويذهب أولئك المؤرخون إلى أن الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والمحالفات ، وكذلك فعل أمراء بيزنطة وخلفاء الدولة الأموية والأندلسية .

ولكننا عندما نمضى فى دراسة العلاقات بين هذه الدول الأربع ، نتبين أن الأمر مجرد وهم تاريخى تناقله الناس واحداً عن واحد دون تحقيق أو تفكير سليم .

ا ــ العباسيون والكارولنچيون :

وقد ناقش الناحية الأولى علاقة الدولة العباسية بالدولة الكارولنچية مؤرخون كثيرون فيما بين مؤيد ومعارض ، من أمثال بكلر وچورانسن ورنسيمان وف.ف.

(١) Erma Patzelt : Die frankische Kultur und der Islam, (1932), S. 2

شميت وغيرهم ، وقد ناقش هذه الآراء كلها الدكتور عبد العزيز الدُّورى مناقشة طيبة فى كتابه « العصر العباسى الأول » ، وانتهى إلى نتائج يمكننا الأخذ بها ، وسنعرض هنا مناقشته فى إيجاز :

قال : « تخلو المصادر الشرقية — إسلامية ومسيحية — من الإشارة إلى أى صلة بين الرشيد وشارلمان ، وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك ، ولكنها مضطربة وغامضة ، فلا غرابة أن وجدنا تبلبل الكتاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات . ولكنهم جميعاً — عدا بارتولد — يقررون صحتها ثم يختلفون فى تفسير نتائجها » .

وهذه المصادر اللاتينية التى يشير إليها الدكتور الدورى هى :

Eginhard : Vita Caroli.

St. Call : Gesta Caroli Magni.

Gesta Regum Francorum.(١)

وهذه المصادر تؤكد أن هارون الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والهدايا فيما بين سنتى ٧٩٧ و ٨٠١ ، و « بينما كانت السفارة التى أرسلها شارلمان إلى الرشيد فى الشرق ، حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان ، وكان البادئ بها هو البطريق ، إذ أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية . ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأرض المقدسة . وفى كانون الأول سنة ٨٠٠ رجع زكريا إلى الغرب يصحبه راهبان من قبل بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح كنيسة القدس وراية » . ثم يقول :

---

(١) هذه هى الإشارات الكاملة إلى المراجع التى يشير إليها المؤلف :

Eginhard : Vie de Charlemagne, publ. avec trad. française par L. Halphen, 2e. éd. Paris, 1938.

Moine de Saint-Gall : Gesta Caroli Magni, pub. dans les Mon. Germ. Série des Seriptores. Tome II, Hanovre, 1829.

Gesta Regum Francorum, publ. par B. Krusch sous le titre : Liber Historiae Francorum dans les Mon. Germ. Série des Seriptores rerum Merovingicarum. Tome II, Hanovre, 1888.

« أما العوامل التي دعت إلى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهي متعددة ، منها رغبة شارلمان في فتح الأندلس وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوى لئلا يقف عرب الأندلس في وجهه كعدو للإسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨ حين هاجم شمال الأندلس وفشل . ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية ، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحي ، ورغبة البابا (حليف شارلمان) في تقوية صلاته مع بطارقة الإسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه . ثم رغبة شارلمان في تسهيل الحج إلى الأراضي المقدسة وفي تكوين نفوذ معنوى له في تلك البقاع .

« أما مصالح الرشيد فهي ناتجة في زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته في القضاء على نفوذهم المعنوى بين مسيحيي الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب ، ثم عدائه لأموى الأندلس ورغبته في بسط سيادته عليهم [١] .

« وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود — وهي تأويلات بنوها على التخمين غالباً — نذكر بعض الشكوك التي تساورنا في التفاصيل المذكورة والتي تجعلنا نميل لنفي وجود صلات سياسية .

« فقبل كل شيء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب ، فالمصدر الأول المعاصر — وهو الأخبار — الملكية « Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات ، بينما قصد اينهارد في كتابه « سيرة شارلمان » تفخيم سيده ورفع اسمه ، وفي الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه . أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتاب الأساطير [٢] . وقد

---

(١) انظر Buckler : Harun al-Rashid and Charles the Great (Massachusetts, 1931), p. 170 off.
Joranson : The Alleged Frankish Protectorate in Palestine A.H.R. 1927, pp. 241-6.
S. Runciman : Charlemagne and Palestine E.H.R. Op. cit. 1935, pp. 606 off.
F.F. Schmidt : Karl der Grosse und Harun al-Rashid.
Der Islam, vol. III, 1912, pp. 409-11.

(٢) انظر : Joranson, op. cit. p. 251, Runciman, op. cit. p. 619

اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفى وجود الصلات [١]

« ثم يظهر لى أن الباحثين ظروف شارلمان ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل . فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم إلى دفع الجزية سنة ٧٩٨ ، كما أنه لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة فى عهده . ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين ؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته فى ذلك الغريب لاسترجاع الأندلس ؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحى لضرب مسلمى الأندلس ؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد فى استرجاع الأندلس فى وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية فى إفريقية (تونس) والمغرب ؟ كل هذه نقاط تنفى بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان . ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة فى هذا الدور . ففى سنة ٧٩٨ أرسلت إيرينى وفداً إلى شارلمان للمفاوضة فى عقد حلف[٢] واقترحت عليه الزواج ، ولعلها سلمت بإعطائه لقب إمبراطور [٣]. ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسى وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه ؟ لا أرى ذلك .

« وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق ، بينما أرسل سفراءه متقدماً (بأياد فارغة) . . . ويرى أن إسحاق كان من التجار اليهود التاجرين بين الشرق والغرب ، لا سفيراً[٤] . ويقوى رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل [٥].

---

(١) انظر : Buckler, op. cit. p. 34-7

(٢) Ibid. p. 18.

(٣) Ibid. p. 20-21.

(٤) Ibid. p. 45.

(٥) Joranson, op. cit. p. 243.

« أما فيما يخص نتائج الصلات ، فيرى فاسيلييف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين ، « صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (فى الأراضى المقدسة) وحق إنشاء كنائس وخانات فى فلسطين »[١] .

« أما بريبيه Brehier فيستنتج من قول اينهارد أن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضى المقدسة كما أن إرسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامى الجديد .

« وقد بين الأستاذ چورانسن أن آراء بريبيه مبينة على التخمين لا على تدقيق علمى ، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول ، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل ، فحصل عليه . وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم ، كما أننا لا ندرى ما إذا كانت قد حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى إنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه[٢] . أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق فلا يمكن أن يعطى معنى سياسياً لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك benedictionis causa ، وإذن « فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس فيها » . ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان . ثم يستطرد چورانسن ويقول إن « الأخبار الملكية » لا تذكر مهمة الوفد الإفرنجى الثانى ، وأن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطاليب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضى المقدسة . ولكن اينهارد (فى رأى چونسن) لا يمكن الوثوق به كما أنه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩) ، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ،

---

(١) Ibid. p. 241.

(٢) Joranson, p. 242.-5

بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له [١].

« تبقى نقطة أخيرة وهى أن شارلمان أرسل صدقات وهبات إلى فلسطين فاستعملت فى تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلا للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة . ولكن ذلك لا يكفى ، كما يرى چورانسن ، للبرهنة على وجود حماية ، خاصة وأن ايتهارد يذكر أن شارلمان « خطب ود الملوك وراء البحار لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون فى ممالكهم » وهذا لا يقتصر على الرشيد[٢] . وهكذا يدحض چورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضى المقدسة .

« أما بكلر ، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم ، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة ، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحى بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث : (١) تحديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية فى الأندلس وفى غربى البحر المتوسط ، (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمى إلى التعاون المتبادل ، فيقف شارلمان ضد الأندلس ، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين ، أو السماح لإيرينى بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسى أن الصلح عقد سنة ٧٩٨) ، (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيارة الأراضى المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٣] . وهكذا يبنى بكلر نظريته على الحدس ، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ولكنه يقول إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ولذلك توسط شارلمان فى الموضوع [٤] . ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى مستدلا على ذلك بإرسال بطريق القدس مفاتيح المدينة والراية[٥]. وهذا المنصب لا يتطلب (فى زعمه) حضور

---

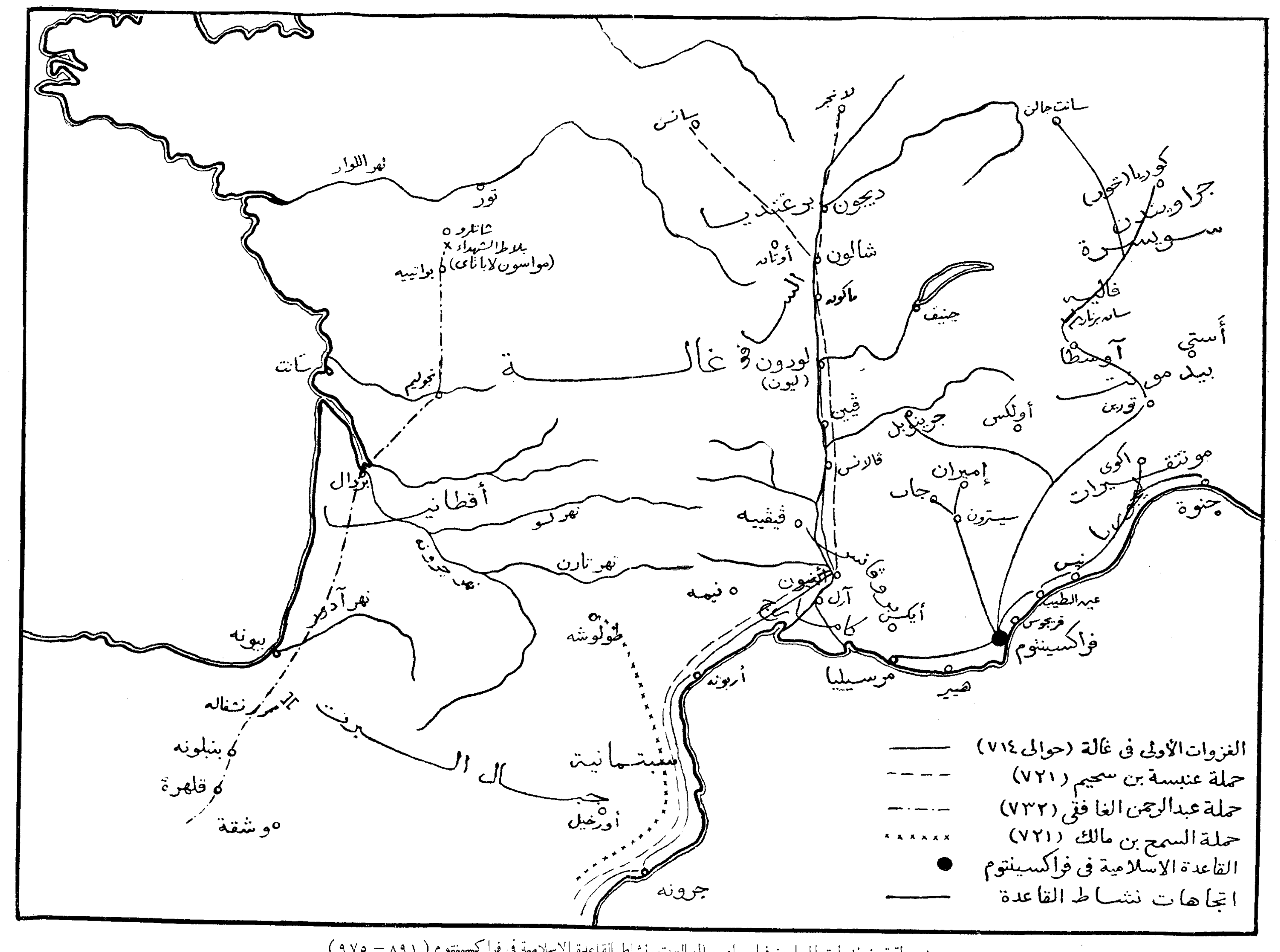
(١) Joranson, op. cit. pp. 248-52.

(٢) Ibid. p. 255.

(٣) Buckler, p. 22.

(٤) Ibid. pp. 26-9.

(٥) Ibid. p. 30.



خريطة تبين غزوات المسلمين فيما وراء جبال البرت ونشاط القاعدة الإسلامية فى فراكسينتوم (٨٩١ – ٩٧٥)

شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[١]. وكذلك عين شارلمان « أمير استيلاء » على الأندلس[٢] .

ويقول بكلر أن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الإسلامية ، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى ، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله فى تنفيذ مهامه ! ثم هو يجعل شارلمان « أمير استيلاء » على الأندلس مستنداً بذلك إلى تفسير الماوردى لإمارة الاستيلاء . ولكن الماوردى يبين أن إمارة الاستيلاء « تعقد عن اضطراب ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين »[٣]. فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين ؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزرى ؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس ، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره ؟ وأخيراً نقول إن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها وذلك لضرورات عسكرية . وهكذا نرى بكلر يتخبط فى موضوع لا يفهم كنهه ، ويفرض فروضاً لا أساس لها فى الفقه أو التاريخ الإسلامى .

أما « رنسيمان » فيرى فى نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة ، اخترعها المؤرخ الأسطورى الراهب سنت كول الذى كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان إذ جمع المعلومات عن الهدايا التى أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[٤] .

وهكذا يظهر وهن نظرية الحماية وأساسها الأسطورى . والذى أراه من

---

(١) Ibid. p. 29 No. 1.

(٢) Ibid. p. 35.

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ص ٢٧ .

(٤) Runciman, op. cit. p. 629.

هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر فى المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لا سياسية ، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة[١] ، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم » .

وهذه المناقشة السليمة تجلو هذه الناحية جلاء تامًّا ، وتظهر بوضوح أنها من ابتكار مؤرخى شارلمان ليزيدوا من فضله وجاهه ، وأن الذين أيدوها من المؤرخين الأوروبيين المحدثين إنما فعلوا ذلك بدوافع بعضها دينى كالرغبة فى إثبات أن المسلمين فى أيام عزهم سمحوا للنصارى بحماية الأراضى المقدسة ، بل تركوا مفاتيح كنيسة القيامة فى يد شارلمان ، وبعضها سياسى يرمى إلى القول بأن للغرب على الأراضى المقدسة حقوقاً اعترفت بها الدولة الإسلامية فى أوجها .

ب — الأمويون الأندلسيون والبيزنطيون :

أما الجانب الثانى من هذا الموضوع جانب علاقات الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية ، فهو أوضح بعض الشيء ولدينا عنه معلومات يمكن الوثوق فيها ، بل لدينا نصوص مكاتبات احتفظت بها المراجع ، ونحن لهذا نستطيع تكوين صورة واضحة عنه وقد تناوله بالبحث علماء من طراز راينهارت دوزى وجورج مارسيه وليفى بروفنسال وفازيلييف .

والمعلومات التى بين أيدينا عن هذه العلاقات متفرقة فى كثير من مراجع التاريخ الأندلسى ، مثل مقتبس ابن حيان والبيان المغرب لابن عذارى ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون . والمعلومات التى يقدمها لنا ابن حيان فى المقتبس ترجع بدورها إلى اثنين من أوثق وأقدم مؤرخى الأندلس عاشا فى القرن العاشر الميلادى هما الحسن بن محمد بن مفرج وعيسى بن أحمد الرازى .

وتتلخص هذه المعلومات فى أن إمبراطور بيزنطة تيوفيل الرابع أرسل فى سنة

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعتناء دى خويه ، ليدن) ، ص ١٥٤ .

٢٢٥-٨٣٩ / ٨٤٠ إلى عبد الرحمن الأوسط « ترجماناً » رومياً (أى سفيراً) يسمى كرتيوس Kratiyus ، حاملا هدايا ورسالة يخطب فيها وده ويسأله أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويحرضه على استرجاع ملك أجداده فى الشام الذى غصبه العباسيون ، ويطلب استخلاص إقريطش ممن استولى عليها من الأندلسيين وردها إلى دولة الروم .

والغالب أن دافع الإمبراطور البيزنطى إلى هذا المسعى كان خوفه من نوايا المعتصم الخليفة العباسى ، وكان المعتصم قد غضب من عدوان الروم على زبطرة سنة ٨٣٧ ، فقام فى صيف العام التالى بغزوة كبيرة على أرض الروم استولى فيها على عمورية مهد البيت البيزنطى الحاكم . وقد اكتفى المعتصم بذلك ولم يواصل نشاطه ، ولكن يبدو أن تيوفيل ظل متخوفاً منه ، فكان هذا — على الأغلب — ما دفعه إلى مكاتبة عبد الرحمن الأوسط ، لعله يثير على العباسيين مشكلة تصرفهم عنه . ومما يؤيد ذلك أن تيودفيل أرسل فى نفس الوقت سفارتين إحداهما إلى لويس التقى والأخرى إلى البندقية ، يستصرخهما لعونه على العباسيين الذين كانوا يهددون دولته فى الشرق ، وعلى أهل إفريقية وصقلية الذين استولوا على جزء كبير من أملاك الدولة فى الغرب . وقد رد عبد الرحمن على ذلك بسفارة إلى الإمبراطور البيزنطى تتكون من اثنين من المنجمين والشاعر المعروف يحيى بن حكم الغزال ، ومعهم رسالة احتفظ لنا ابن حيان بنصها . وقارئ هذه الرسالة يتبين بوضوح أن عبد الرحمن كان شديد الحذر فى كتابه إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ نعم إننا نجد هذا الرد دلائل على كراهيته للعباسيين وألمه لقضائهم على البيت المروانى وقتلهم جده مروان بن محمد ، ولكنه لم يرتبط من ناحيته بشىء ، حتى عن الأندلسيين الذين كانوا قد استولوا على صقلية يقرر عبد الرحمن أنهم منذ طُردوا من الأندلس لم يعودوا رعاياه . ولا يشير الكتاب إلى ما ذكره الإمبراطور البيزنطى من أعمال الأغالبة فى صقلية وجنوبى إيطاليا .

وقد تجددت المحاولة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وكان البادئ بها هذه المرة هو الإمبراطور البيزنطى قسطنطين پورفيرو چنيت Porphyrogenete (لابس الأرجوان) ، فقد أرسل فى سنة ٣٣٦, ٩٤٧ — ٨ سفارة إلى الناصر .

ولم تحتفظ لنا المراجع بنص رسالته إلى كبير خلفاء الإسلام فى عصره ، ولكن الغالب أن الذى دفع الإمبراطور البيزنطى إلى مكاتبة الناصر كان شعوره بما كان بين الأمويين والفاطميين من عداء وتخوفه من نوايا أولئك الأخيرين نحوه بعد انتقالهم إلى مصر . وقد تلقى الناصر السفارة البيزنطية لقاء حسناً حرص فيه على أن يظهر دولته بمظهر القوة والجاه ، وقد وصف لنا المقرى مشهد استقبال سفراء الروم وصفاً بديعاً ، وأورد نص الخطبة التى ألقاها منذر بن سعيدالبلوطى كبير علماء الأندلس فى عصره فى هذه المناسبة ، وهى قطعة من البلاغة الجوفاء لا تغنى بشىء فى هذا المقام . وقد رد الناصر على سفارة الإمبراطور البيزنطى بكتاب سلمه إلى رسله مع طائفة من الهدايا والألطاف ، وبعث معهم رجلا من عنده هو هشام بن هذيل — أو كليب — كان من قسوس مستعربى الأندلس ، ولهذا تسميه المراجع العربية بالجاثليق Catholicus ، وقد عاد هشام إلى الأندلس بعد سنتين .

ويحدثنا المقرى فى نفح الطيب أن عبد الرحمن الناصر عندما شرع فى بناء مدينة الزهراء بعث إلى القسطنطينية فى طلب الفسيفساء والمرمر ، وقد قام بالسفارة هذه المرة كبير مستعربى الأندلس الأسقف ربيع بن زيد ، فأدى الرسالة وعاد بالتحف المطلوبة . ويفهم من رواية المقرى أنه مر ببيت المقدس واستصحب فى عودته نفراً من صناع الفسيفساء ليعلموا أهل الأندلس صنعها وتركيبها . ويقول المقرى فى كلامه عن الزهراء : « وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليها أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء (بيت المقدس) ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام — وقيل من القسطنطينية — مع ربيع الأسقف » . ويبدو أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التى أرسلت بيزنطة فيها إلى الأندلس طُرف الفن ومهرة الصناع ، فقد ورد عليها أيام الحَكم المستنصر نفر آخر منهم ، ومن هؤلاء الصناع البيزنطيين تعلم أهل الأندلس هذه الفنون الجميلة ، وكان لهذا أبعد الأثر فى تطور الفن الأندلسى وقد علق مؤرخو الفن الإسلامى — مثل هنرى تيراس — أهمية كبرى على ذلك .



خريطة البحر الأبيض وعليها جميع المواقع الوارد ذكرها في البحث (لم تبين خطوط سير الحملات)

ويحدثنا ابن أبى أصيبعة فى « طبقات الأطباء » أن الناصر كاتب أرمانيوس الملك ، ملك قسطنطينية Romanus Lécapenus — أحسب سنة سبع وثلاثين وثلثمائة — وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، فكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريديس Dioscorides مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، وبعث معه كتاب هروسيس Paulus Orosius صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب ... » . وقد وصلت هذه الهدية الجليلة مع سفارة استقبلها الناصر ورجال دولته استقبالا حافلا . ويذهب ليڤى پروڤنسال إلى أن هذه السفارة قد تكون هى نفسها التى وقعت سنة ٣٣٨–٩٤٩ ، ويعجب من أن وصف احتفال الناصر بها كما أورده ابن حيان ينطبق تمام الانطباق على ما أورده قسطنطين السابع لابس الأرجوان عنها فى كتاب « الاحتفالات » .

ونخرج من هذا الكلام بأنه كانت بين الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية مراسلات وسفارات ، وأن أباطرة البيزنطيين حسبوا أول الأمر أنهم يستطيعون الإفادة من العداء الطبيعى بين الأمويين الأندلسيين والعباسيين فى كسب الأولين إلى جانبهم والاستعانة بهم على العباسيين . وقد رأينا أن الدافع الأول للبيزنطيين على مكاتبة الأمويين أن الذين انتزعوا منهم إقريطش كانوا أندلسيين ، فحسب البيزنطيون أن أمير قرطبة يستطيع رد أذى الأندلسيين عن شواطئ الروم وتوسلوا إلى ذلك بتذكير الأمويين بمساءات العباسيين إليهم ولوحوا لهم بإمكان فتحهم للشام . ولكن أمراء الأندلس كانوا أعقل من أن يجروا وراء هذه الأوهام وأكيس من أن يجاروا الإمبراطور البيزنطى فيما جمع به خياله إليه ، وتمكنوا — بما عهد فيهم من كياسة — من توجيه العلاقات بينهم وبين بيزنطة وجهة سلمية علمية أفاد الأندلس منها فائدة جليلة .

لم يكن هناك إذن اتفاق بين البيزنطيين والأمويين على عداء العباسيين ، ولا تفاهم بين العباسيين مع الفرنجة على الإضرار بالأندلس ، والموضوع كله وهم تاريخى أشبه بالأسطورة أخذت هيأة الحقيقة التاريخية لكثرة تكرارها وإلحاح المؤرخين على ذكرها .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن نشير إلى نتائج قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية على سيطرة المسلمين على هذا البحر . فقد وقع النفور الشديد من أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين ، وأخذ كل منهما حذره من الآخر ، وكما كانت الدولتان على عداء فى البر كانتا فى البحر أيضاً كذلك ، فأخذت سفن كل منها تتعقب سفن الأخرى وتؤذيها ، فكانت النتيجة أن ضعفت الجبهة البحرية الإسلامية فى غرب البحر الأبيض ، وبدلا من أن توجه أساطيل المسلمين قوتها نحو الجبهة النصرانية المعادية ، اجتهد كل منهما فى محاربة الآخر وتعقب سفنه ، واحترزت كل من الدولتين الأموية الأندلسية والفاطمية على سواحلها من عدوتها . وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت البابوية تجتهد فيه فى توحيد قوى الدول النصرانية وتوجيهها لحرب المسلمين . وإلى هذا الجهد البابوى يرجع الفضل فى توجيه پيزا وجنوا قواتهما وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين ، وكانت هذه كلها طلائع ضعف الجبهة البحرية الإسلامية وتراجعها وخروج البحر الأبيض الغربى من سلطان المسلمين ، وذلك كله يكون — فى اعتبارنا — طرفاً من المقدمات البعيدة للصليبيات .

* * *

خاتمة :

هذه هى قصة دخول المسلمين البحر الأبيض وسيطرتهم عليه ، وتحويلهم إياه إلى بحيرة إسلامية طوال ثلاثة قرون ، وما ترتب على ذلك من نتائج فى العالمين الشرقى والغربى .

وقد رأينا أن المسلمين سيطروا بالفعل على أمواه ذلك البحر ، وسادته أساطيلهم الرسمية وغير الرسمية ، وملكوا عنانه وحالوا بين غيرهم وبين تسيير السفن فيه ، ولكن ذلك كله لم يعد أن يكون سيطرة حربية كان ينبغى أن يفيد منها المسلمون . نعم إن السفن والمتاجر كانت دائمة السير بين ثغور المسلمين فى الشرق والغرب ، وأن الحركة كانت عظيمة بين موانى الشام ومصر والمغرب والأندلس ، ولكن هذا النشاط البحرى لم يكن بالقدر الذى كان يمكن

الوصول إليه . وإنه لمن الغريب حقًّا أن نجد ثغوراً مثل عكا ويافا وصور وصيدا وعسقلان وتنيس ودمياط والإسكندرية تهبط عما كانت عليه أيام الرومان والبيزنطيين بدلا من أن تعظم وتنشط ، حتى دور الصناعة وفن بناء السفن نجدهما فى تقهقر مستمر . وربما كان هذا أضعف جانب فى البناء العام للدول الإسلامية ، لأن هذا الضعف البحرى هو الذى حال بين المسلمين وبين القضاء على بيزنطة منذ زمن مبكر ، فبقيت عقبة كؤوداً فى سبيل التوسع الإسلامى سياسياً ودينياً . ومن ناحية أخرى نجد أن العالم الإسلامى الغربى إنما أتى من جانب البحر قبل أن يؤتى من جانب البر ، وكان ضعف البحريات الإسلامية المنظمة من آكد الأسباب فى ضياع الأندلس وجزائر البحر ثم فى انهيار دول المغرب بعد ذلك . وهذه كلها ملاحظات نبديها سراعاً ، إذ لا يتسع المجال لبحثها فى هذا المقام بحثاً مطولا . وبحسبنا أن نضعها تحت أنظار الباحثين للتأمل والدراسة .

سيطر المسلمون على البحر الأبيض ولكنهم لم ينتفعوا به الانتفاع الواجب ، ظل فى نظرهم دائماً حداً أوساحة قتال دون أن يستطيعوا تحويله إلى طريق سلام وانتقال وتبادل تجارى وغير تجارى . ملكوا عنان البحر ولكنهم لم يستعملوه استعماله الصحيح ، فضاعت عليهم الفوائد التى كان يمكن أن تعود عليهم لو أنهم حولوا هذا البحر إلى أداة اتصال وتقارب كما كان على عهود الرومان وكما سيصبح فى العصور الحديثة . والبحر الأبيض ليس مجرد مساحة مائية ، وإنما هو همزة وصل بين ثلاث قارات ، وأداة طيبة جداً للسلطان والجاه والغنى ، ومهد لحضارات إنسانية كبرى ؛ والاتصال به والانتفاع منه بركة كبرى على من يستطيع ذلك ، ولكنه نقمة على من لا يستطيع . ولم يدرك المسلمون هذه الحقائق الهامة إلا بعد فوات الأوان ، وانتقال البحر الأبيض إلى أيد غير أيديهم .

حسين مؤنس

مراجع البحث

(ا) أصول :

ابن الأثير : الكامل ، ط تورنبرج ١٨٦٧ ــ ١٨٧٦ ، والقاهرة ١٣٤٨ .

أمارى ، ميكيلى : المكتبة الصقلية ، ١٨٥٤ ، ٣ مجلدات .

البلاذرى : فتوح البلدان ، ط القاهرة ١٩٣٢ .

ابن حوقل : صورة الأرض ، ط كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

ابن حيان : المقتبس ، ط ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ .

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ط لايبسيك ١٨٦٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٣٦ .

« « : المقدمة ، ط بيروت ١٨٨٦ .

الطبرى : تاريخ ، ط دى خويه ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تورى ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠ ــ ١٩٥٢ ، حـ ٢ .

ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ط ليڤى پروفنسال ، القاهرة ــ لايدن ١٩٣٨ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ط دوزى ، لأيدن ، حـ ١ و ٢ ، وطبعة ليڤى بروفنسال وكولان ، لايدن ، ج ١ .

الكندى : القضاة والولاة ، ط روفن جست ١٩١٠

المسعودى : التنبيه والإشراف ، لايدن ١٨٩٤ .

المقرى : نفح الطيب ، ط لايدن ١٨٥٥ ــ ١٨٦١ ، والقاهرة ١٩٤٧ .

المقريزى : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ .

« : النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، القاهرة ١٩٣٧ .

النويرى : نهاية الأرب : ط جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٩ ، ج ١ و ٢ .
ابن هشام : سيرة الرسول ، ط محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .
الواقدى : مغازى ، ط فون كريمر ، كلكتا .
أبو يوسف : كتاب الخراج ، ط المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٠٢ .

(ب) أبحاث :

إبراهيم العدوى : المسلمون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٢ .
حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ج ٢ عدد ٢ — ١٩٤٩ .
سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .
شارل ديل : البندقية ، ترجمة عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧
شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا .
عبد الرحمن زكى : السلاح فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ .
عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، القاهرة ١٩٥٣ .
فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ح ١ ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥١ .

(ج) مراجع غير عربية :

AMARI, MICHELE. *Storia dei Musulmani di Sicilia* (2'. éd de Nallino, Cattane 1933).

CAETANI, L. *Annali dell Islam* (Milan 1905-1910) vols 1-3.

CANARD, M. *Expéditions des Arabes contre les Byzantins*. Journal Asiatique, Mars 1926.

CHALENDON. *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile*, Paris 1907.

CHEIRA, M.A. *La Lutte entre les Byzantins et les Arabes*, Alexandrie, 1942.

DE GOEJE. *Memoire sur la conquète de la Syrie* (dans ses Memoires d'histoire et de géographie orientale) 2 vols. Leyde 1886.

DOZY. *Musulmans d'Espagne*, éd. Lévi Provençal, Leiden, 1932, 3 vols.

GASPAR RIMERO, MARIANO. *Cordobeses.*

GAUTIER. *Le Passé de l'Afrique du Nord*, 2'. éd. 1937.

GAY. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin depuis l'avènement de Basile 1er. jusqu'à la prise de Bari par les Normands.* Paris, 1907.

GROHMANN, A. *From the World of Arabic Papyri*, Cairo, 1951.

HEYD, W. *Histoire du commerce du Lévant au Moyen-Age*, trad. fr. 2'. éd. Leipzig 1923.

HITTI. *Origins of the Islamic State*, New-York 1916.

MOSS, H. ST. L.B. *The Birth of the Middle Ages.* London 1946.

PIRENNE, HENRI. *La civilisation occidentale au Moyen-Age* (Paris 1933) Hist. Génerale de Glotz, vol. VIII.

PIRENNE, HENRI. *Mahomet et Charlemagne.* Paris, Bruxelles 1937.

PROVENÇAL, LEVI. *Histoire de l'Espagne Musulmane*, 1er. éd. Le Caire, 1944.

PROVENÇAL, LEVI. *La Peninsule Iberique au Moyen-Age.* Leiden 1938.

RUNCIMAN. *Byzantine Civilisation.* Oxford 1935.

SCHAUBE, ADOLF. *Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmurs gebietes bis zum Ende der Kreuzzuge.* Munchen-Berlin 1906.

VASILIEV. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols (Paris 1932).

WUSTENFELD. *Die Kampfe der Araber mit den Romern* (Nachrichen d. K. Ges. Gottingen) 1901.

المسلمون فى حوض البحر الأبيض

إلى الحروب الصليبية

صفحة

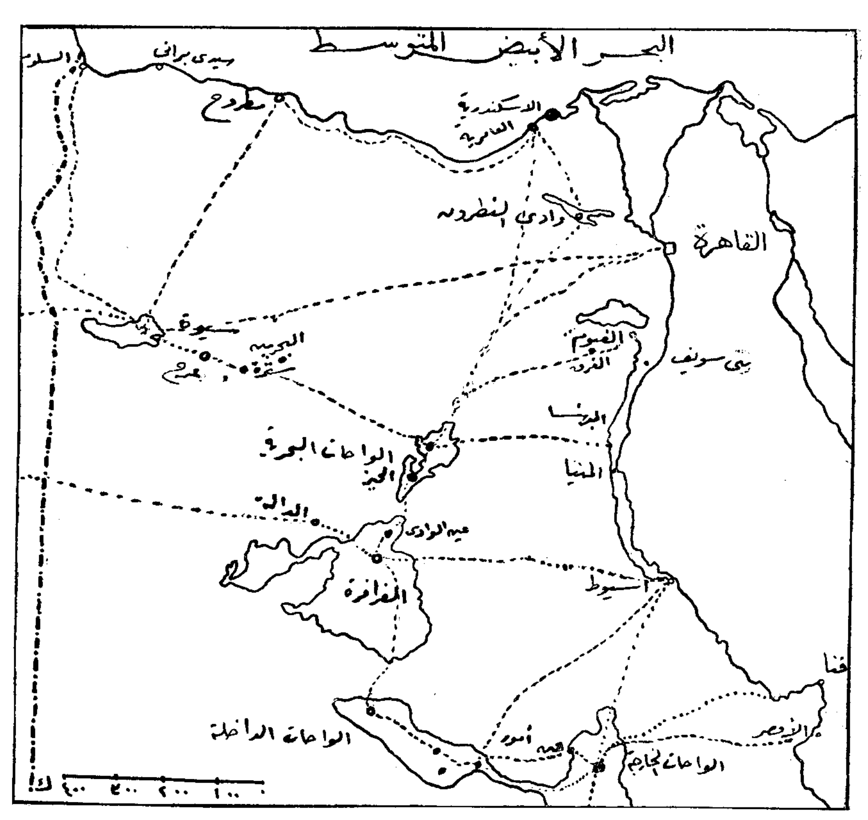
صفحة

الواحات المصرية فى التاريخ

يقص علينا الرحالة المصرى القديم . « خوفو حر » فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد أنه خرج رحلته الثالثة للسودان من منطقة أسوان واتخذ طريق الواحات ، ولو تتبعنا رحلته فى تفاصيلها لأدركنا أنه سار فى الطريق المعروف الآن وهو محاذاة ضفة النيل الغربية إلى قبيل وادى حلفا عند مكان يقال له « ساقية العبد » ثم سار فى الدرب الموصل إلى واحة « سليمة » على درب الأربعين الموصل إلى دارفور . وذكر خوفو حر لكلمة الواحات هو أقدم ما وصل إلينا فى النصوص المصرية ولكنا نعرف من الأبحاث العلمية أن مناطق الصحراء الغربية فى عصر ما قبل الأسرات كانت عامرة بالسكان وترى بقايا حضارة أهلها من آلات الظران فى جميع الواحات وفى مناطق أخرى أصبحت الآن جزءاً من الصحراء بعد انقطاع المياه عنها . وقد أثبتت دراسة هذه الآلات والأدوات صلة سكان الواحات منذ أقدم العصور بسكان وادى النيل كما أثبتت أيضاً صلتهم بحضارات أخرى فى شمال أفريقية وجنوب أوربا وشرق أفريقيا أيضاً .

وليست آلات الظران هى كل ما وصل إلينا من هذا العصر إذ يوجد عدد كبير من رسوم الحيوانات على درب الغبارى الموصل من الخارجة إلى الداخلة اكتشفها هاردنج كنج فى عام ١٩٠٨ ، كما عثرتُ فى عام ١٩٣٨ فى أحد شعاب جبل الطير شمال بلدة الخارجة فى درب مهجور على رسوم وكتابات كثيرة قبطية وديموتيقية وهيروغليفية ولكن أقدمها كلها رسوم لحيوانات متعددة من عصر ما قبل الأسرات شبيهة بما نجده من هذا العصر رسوماً على الصخر فى وادى النيل .

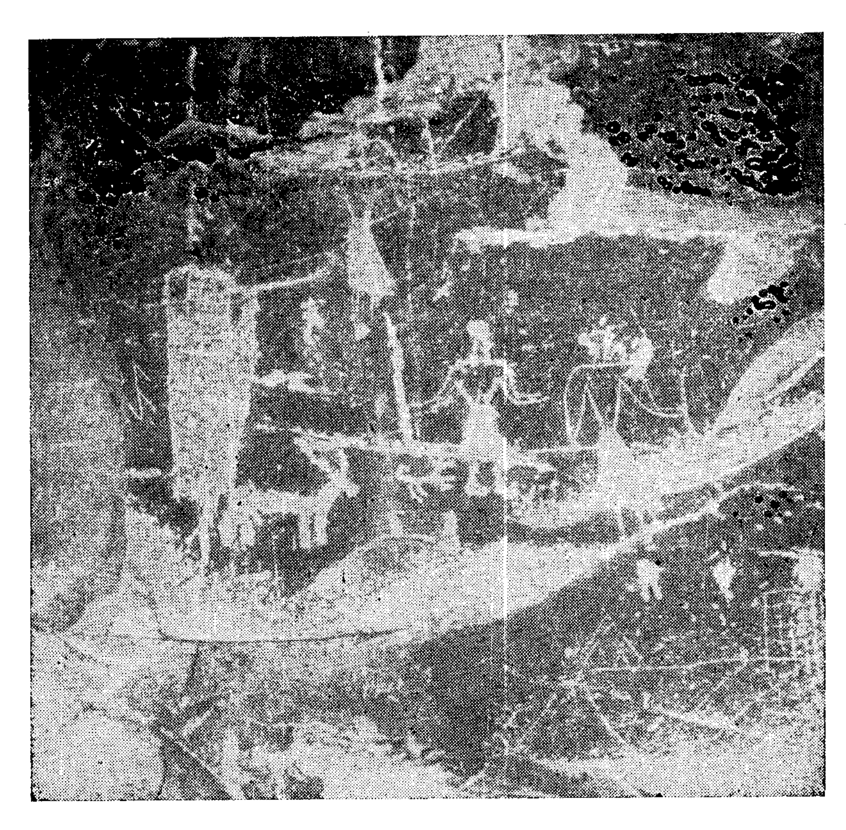
كانت الواحات — وما زالت — هى القنطرة بين ليبيا وبين وادى النيل ولعبت دوراً هاماً فى الحروب وفى التجارة وفى نقل الثقافة والحضارة فى مختلف



١ – خريطة تبين موقع الواحات من نهر النيل وأهم الطرق فى الصحراء الغربية

العصور ولهذا كان من الضرورى أن نتوقع أن يختلف سكان الواحات عن سكان الوادى إذ أنهم خليط من البربر والبدو وسكان مصر وأواسط السودان . ومجموع سكان الواحات حسب تعداد ١٩٣٧ هو ٣٩٥٤٧ منهم ٤٠٤٤ يعيشون فى سيوة ويتكلمون لغة خاصة بهم وهى اللغة السيوية إحدى لهجات التغناغ ولهم عاداتهم التى تتصل بعادات البربر القديمة ولا تشبه عادات الواحات الأخرى ، أما الواحات البحرية والفرافرة فإنهما تكونان مجموعة واحدة ويتكلمون العربية وعاداتهم بعضها يشبه عادات أهل مديرية المنيا وبعضها خاص بهم وتعداد السكان فيهما ٦٣٩٤ ، أما أهالى الخارجة والداخلة وعددهم ٢٩١٠٩ فإنهم يختلفون فى لهجتهم وماداتهم عن أهالى البحرية والفرافرة وترى فيهم أثراً كبيراً من دم البربر وعاداتهم لهذا صارت دراسة عادات أهل الواحات من أهم المواضيع التى يجب دراستها قبل أن يقضى انتشار استعمال السيارات فى الصحراء على هذه العادات ، كما أن دراسة الآثار فى تلك البلاد تكشف لنا الكثير من الصلة بين مصر والبلاد الواقعة غربها وتوضح لنا مدى تأثر الواحات بما كان فى ليبيا من حضارات .

ونعرف من آثار الأسرة الأولى أن قبائل التحنو كانت تسكن غرب مصر بما فى ذلك الواحات وأنها كانت تغير من آن لآخر على غرب الدلتا وكان هؤلاء التحنو قريبى الشبه بالمصريين من حيث الجنس والمظهر ولكنهم اختلطوا مع مرور الأيام بجنس آخر وفد إلى بلادهم من شمال أوربا ويرجح العلماء أنها قبائل جرمانية عبرت من أسبانيا إلى الشاطىء الأفريقى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ثم انتشرت بعد ذلك على الشاطىء . ويلوح أن بعض هذه القبائل الجرمانية استقر فى الواحات أو فى غربى الدلتا وقد تزوج الملك خوفو أميرة منهم أصبحت أماً لفرع من العائلة المالكة المصرية ونرى رسم هذه الملكة ورسم ابنتها « مرسوعنخ » فى مقبرة الأخيرة شرقى الهرم الأكبر ونراها ترتدى ملابس تختلف عن ملابس المصريات هى بيضاء لون البشرة زرقاء العينين شقراء الشعر . وفى مبدأ أيام الأسرة الثانية عشر نلمح أثر اهتمام الملك امنمحات الأول بتطهير بلاده من أثر الفوضى السابقة وتأمين حدودها فأقام بعض الحصون



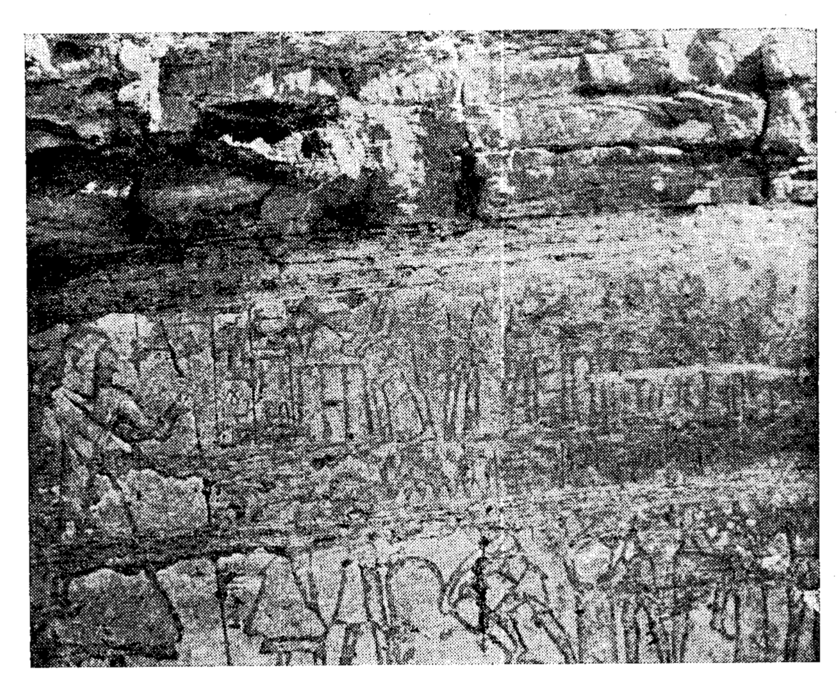
٢ — فى أحد شعاب جبل الطير شمال بلدة الخارجة توجد نقوش كثيرة خلفها المسافرون فى هذا الطريق ويرجع بعضها إلى عصر ما قبل الأسرات . وأكثرها من العصور التاريخية حتى العصر القبطى

على الحدود الغربية ما زال بقايا أحدها قائمة فى وادى النطرون . وعندما مات امنمحات سار ابنه سنوسرت الأول على سياسته ولدينا بعض لوحات من عصره تشير إلى قيام بعض الموظفين بالمرور على الواحات ومعهم جنود لتأمين الطرق وإعادة الهاربين كما نعرف من ألقاب بعض الموظفين اهتمام هذا الملك بالصحراء وإدارتها . وبالرغم من أن أكثر المناطق الأثرية فى الواحات ما زالت تنتظر من يقوم بحفرها فقد وصل إلينا القليل مما يثبت أنها بدأت تصطبغ بصبغة الحضارة السائدة فى وادى النيل ابتداء من الأسرة الثانية عشر فقد رأى المرحوم الأستاذ جولينيشف بعض الآثار الصغيرة مع الأهالى وخاصة جعارين بأسماء ملوك الأسرة الثانية عشر وذلك أثناء رحلته إلى الخارجة عام ١٨٨١ كما عثرت فى عام ١٩٤٣ فى الواحات البحرية على جعران باسم الملك سنوسرت ونعلم من قصة الفلاح الفصيح أن التجارة بين وادى النيل والواحات وخاصة الفرافرة كانت متصلة فى عهد ملوك أهناسية أى فى الأسرة العاشرة وعندما تولى الملك تحتمس الثالث عرش مصر وبدأ فى تنظيم إدارة البلاد دخلت الواحات فى عهد جديد وأصبحت كمقاطعة قائمة بذاتها ولكنها تتبع حاكم أبيدوس . وكان المصريون فى ذلك العهد يعتبرون هذه البلاد كأنها ليست جزءاً من مصر لأننا نرى فى مقبرة رخمارع وفى مقبرة چويمرع وكلاهما فى طيبة ومن عصر الملك تحوتمس الثالث مناظر تمثل أهل الواحات وهم يحضرون الجزية إلى طيبة شأنهم شأن بلاد پونت وسوريا وكريت وغيرها . وفى هذه المناظر نلاحظ ما يأتى :

أولا : أنهم كانوا يعتبرون الواحات مقسمة وحدتين وهما الواحات الشمالية والواحات الجنوبية وفى رأيى أن الواحات الجنوبية تشمل الخارجة والداخلة معاً أما الواحات الشمالية فتشمل الفرافرة والبحرية وسيوة .

ثانياً : إن أهل الواحات يشبهون المصريين فى مظهرهم ولون بشرتهم ولا يختلفون عنهم إلا فى تركهم شعر رؤوسهم ينمو أكثر من سكان وادى النيل كما أن المئزر الملفوف حول الوسط كان مصنوعاً من قماش ملون ذى خطوط رأسية بينما لم يكن المصريون يلبسون إلا المئزر الأبيض .

ثالثاً : إن حاصلات الواحات هى الحصير والأوانى المصنوعة من الخوص

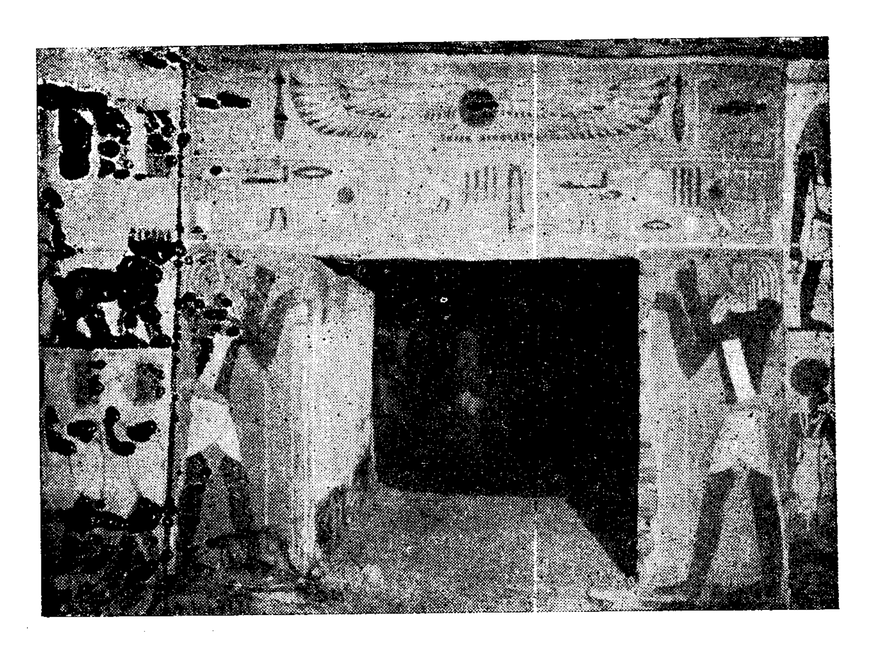


٣ – أقدم الآثار القائمة فى الواحات لا يرجع إلى عصر أبعد من الدولة الحديثة . وهذا أحد مناظر مقبرة أمنحتب حاكم الواحات البحرية وأقدم المقابر المنقوشة فى الصحراء الغربية ونراه واقفاً إلى اليسار ليشرف على أتباعه وهم يعبئون غرائر الغلال و يصفون أوانى النبيذ

ذات الغطاء المخروطى الذى ما زال يستعمله أهل الواحات ويسمونها المراجين ثم جلود الثعالب وأنواع النبيذ المختلفة .

وآثار الأسرة الثامنة عشر قليلة جداً فى الواحات ولم أعثر من هذا العصر إلى الآن على شىء غير جعران باسم الملكة حتشبسوت فى الواحات البحرية وبعض الخرز الذى أرجح نسبته إلى هذا العصر ثم مقبرة امنحتب حاكم الواحات البحرية التى من المرجح أنها ترجع إلى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشر أو أوائل التاسعة عشر . وهى مقبرة منحوتة فى الصخر ولا تقل نقوشها أو مناظرها عن مقابر وادى النيل . ونرى فيها صاحب المقبرة وهو يشرف على وضع أوانى النبيذ فى المخازن وتعبئة الغلال فى الغرائر . ونعرف من ألقاب امنحتب ومن نقوش المقبرة أنه من أهل الواحات البحرية وأنه أصبح حاكماً لها وهذا يدل على أن إصلاحات تحوتمس أتت بثمرتها وسرعان ما تقدم أهلها فأسند ملوك الأسرة الثامنة عشر مقاليد الأمور . إلى أحد أهلها . ولا تختلف هذه المقبرة فى أى شىء سواء فى مناظرها الدينية أو ملابس الأفراد عن أى مقبرة أخرى من هذا العصر فى وادى النيل .

واستمر ازدهار الواحات بل ازداد فى الأسرة التاسعة عشر ونرى أسماء سيتى الأول ورمسيس الثانى تحتل مكاناً بارزاً وفى معبد الأقصر نرى أسماء ثلاثة من الواحات وهى الخارجة والفرافرة والبحرية ضمن البلاد التى كانت ترسل بالمعادن المختلفة إلى الملك رمسيس . ولكن محاولة الليبيين غزو مصر فى عهد منفتاح عرض الواحات لمحنة من محن الحروب إذ بدأ الأعداء بمهاجمة الواحات واحتلوا البحرية والفرافرة كما تعرضت هذه البلاد مرة أخرى لخطر الغزو فى عهد رمسيس الثالث عندما هجمت قوات الليبيين على مصر من الغرب ومن البحر يؤيدهم حلفاؤهم من الشعوب البحرية التى وفدت من أوربا . وأخذ رمسيس الثالث بعد رده الخطر عن مصر بإصلاح ما أفسدته الحرب ، وكان للواحات نصيب من عنايته فإنه أخذ فى غرس حدائق الكروم فى كل من الواحات الشمالية والجنوبية لكى تقدم النبيذ إلى معابد أمون رع كما جاء فى بردية هاريس . واستمر من جاء بعد رمسيس الثالث فى العناية بالواحات وقد



٤ — مقبرة بانتيو — مدخل حجرة الدفن ١٠ بالواحات البحرية (الأسرة ٢٦)

كشفت الرياح منذ عام ونصف عن بقايا معبد من معابد الأسرة التاسعة عشر على مقربة من بلدة بلاط فى الداخلة ومن النقوش التى ظهرت نعرف أن الملك رمسيس التاسع أعاد بناء ما وجده قد تهدم من المعبد كما صنع أبواباً جديدة له . وتوجد على مقربة من هذا المعبد جبانة لم يقم أحد بحفرها إلى الآن ويرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة .

وفى الأسرة الواحدة والعشرين اتخذ الملوك الواحات الخارجة منفى لمن يغضبون عليهم من سكان طيبة الذين كانوا دائمى الثورة على الحكام فى ذلك الوقت وقد اضطر الملك منخبر رع إلى العودة من الشمال لإخماد إحدى الثورات التى قامت فى طيبة للمطالبة بعودة المنفيين فلم يجد أمامه من سبيل إلا النزول على إرادة الأهالى ولو أنه جعل هذا النزول أو التراجع كأمر إلهى من وحى أمون رع الذى أمر بعودتهم كما أمر فى الوقت ذاته بألا ينفى بعد ذلك أحد من أهل طيبة إلى الواحات .

وعلى ذكر هذا النص أود أن أشير إلى نفوذ كهنة أمون رع الذى بدأ يسيطر سيطرة تامة على كل شىء سواء فى حياة الأهالى أو فى شئون الحكومة إذ أصبح جواب الإله على أى سؤال كافياً لتبرئه أى مجرم أو إدانة أى برىء كما أن جواب الإله هو الكلمة الأخيرة فى تعيين شخص فى وظيفة أو حرمانه منها وبذلك أصبح للكهنة أو أصبح لأساليبهم السلطة التامة على حياة الشعب الذى كان يؤمن بصحة الوحى وصحة النبوءات وكان من أثر ذلك أن بعض كهنة أمون أسسوا فى بلاد اليونان وفى واحة سيوة نبوءة مثل نبوءة طيبة . وقد أصبح معبد أمون فى سيوة بعد وقت غير كثير أشهر مراكز الوحى والنبوءات فى شمال أفريقيا بل كان فى رأى سكان بلاد اليونان أنفسهم أصدق وأهم من أكثر النبوءات فى بلادهم .

وإذا كان الليبيون قد عجزوا عن غزو مصر بجيوشهم فى عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين فإنهم بدأوا يتسللون إلى مصر ويستقرون فيها ويخدمون ملوكها حتى آل إليهم الأمر فى الأسرة الثانية والعشرين ولكنهم استقروا قبل ذلك فى الواحات وهذا هو السبب الذى جعل ملوك هذه الأسرة يهتمون أكبر



٥ — تانفرت باست وابنتها فى مقبرة زوجها ثاتى
فى الواحات البحرية

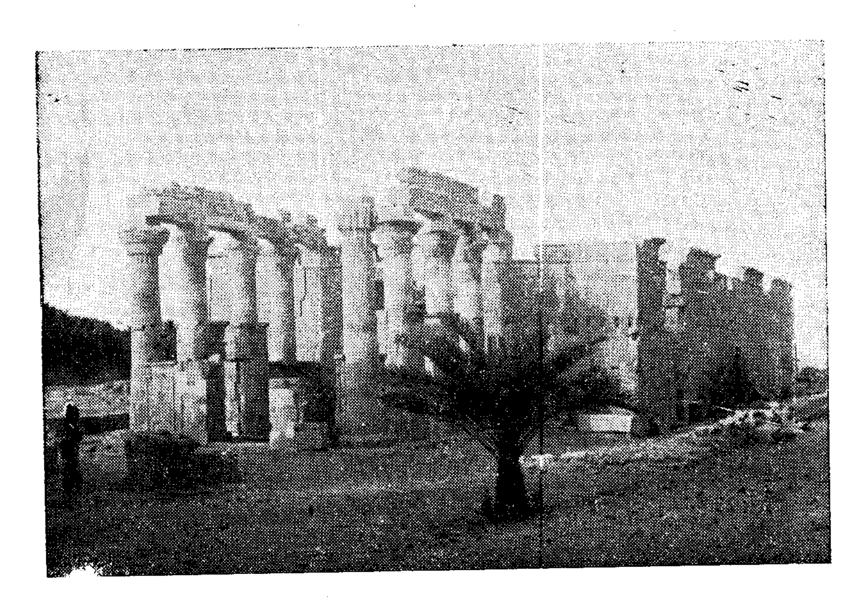


٦ — الإله « حا » إله الصحراء وعلى رأسه العلامة الخاصة
بالصحراء وأمسك فى يده حربة

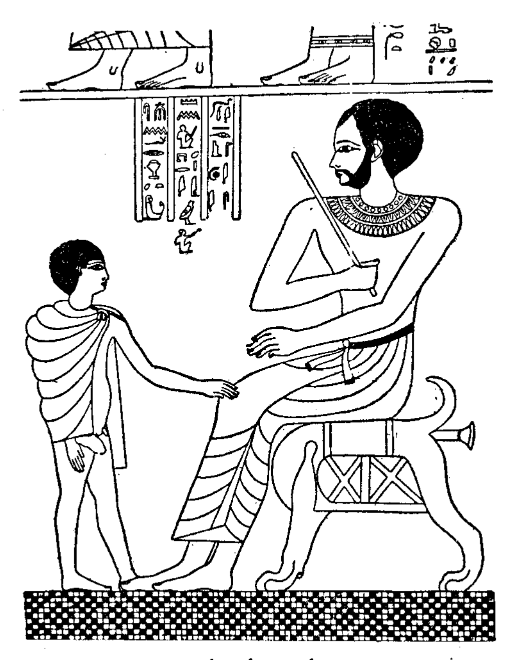
الاهتمام بموطنهم القديم فقد أرسل شيشنق الأول أحد موظفيه ليفحص حالة الواحات ويقترح ما يؤدى إلى عمرانها . ووصلت إلينا آثار كثيرة من الخارجة والداخلة من هذا العهد كما عثرت فى الواحات البحرية على لوحة مقامة على مقربة من هيكل وعليها اسم الملك شيشنق الرابع وفى عهد هذه الأسرة عاش شخص يسمى « إرعوا » فى الواحات البحرية أسس عائلة حكمت هذه الواحة التى بلغت أوج ازدهارها أحد أحفاده وهو كبير كهنة الواحات وحاكمها » « زد خونسو أوف غنخ » الذى عاش فى عهد الملك أحمس الثانى فى الأسرة السادسة والعشرين .

بدأت مصر عهداً جديداً فى الأسرة السادسة والعشرين واستيقظ الشعور القومى فغمرت البلاد موجة من موجات النهضة والإصلاح وظهر أثر ذلك جلياً فى الواحات . ففى سيوة بدأ تمصير المعبد الليبى القديم فى عهد أمازيس بأن أضاف عليه حاكم سيوة المسمى « سوتخ إروس » بعض العناصر المعمارية المصرية وأهمها الكورنيش كما نقش الهيكل برسوم تمثل أهم آلهة مصر وخاصة أمون رع وثالوثه . وفى الواحات البحرية كشفت عن بقايا معبد كبير من عهد أبريس ومعبداً آخر من عهد أمازيس وأربعة هياكل مستقلة للآلهة المختلفة غطيت جدرانها برسوم الآلهة المختلفة والمناظر الدينية كما نحت الموظفون لأنفسهم عشرات المقابر وزينوها بالرسوم وأهمها مقابر بدعشتر وثاتى وبانتنيو وزد أمون أوف عنخ . وفى الخارجة وضع أمازيس أساس معبد هيبس ولكن اضطراب الأمور فى البلاد لم يمكن ملوك هذه الأسرة من إتمام بنائه فلم يُبن أكثر أجزائه إلا فى عهد الفرس كما أنهم هم الذين أمروا بنقش جدرانه .

ويرجع السبب فى اهتمام الملك داريوس بالواحات وإتمام معبد هيبس إلى رغبته فى إرضاء المصريين ومحو الأثر السيئ الذى تركته أعمال قمبيز . وقد روى هيرودوت أن قمبيز سير جيشاً من طيبة لإخضاع واحة أمون وحرق معبده وقتل كهنته . وغادر الجيش طيبة ووصل إلى الخارجة التى كان يسميها اليونان جزيرة السعداء وبعد أن استراحوا وتزودوا للطريق تركوها فى طريقهم إلى سيوة ولكن لم يصل أحد من جنود قمبيز إلى تلك الواحة كما لم يعد أحد منهم



٧ — منظر عام لمعبد آمون بالخارجة الشهير باسم معبد هيبس ويرجح العلماء أن الذى بدأ فى عمارته هو الملك أحمس الثانى من ملوك الأسرة ٢٦

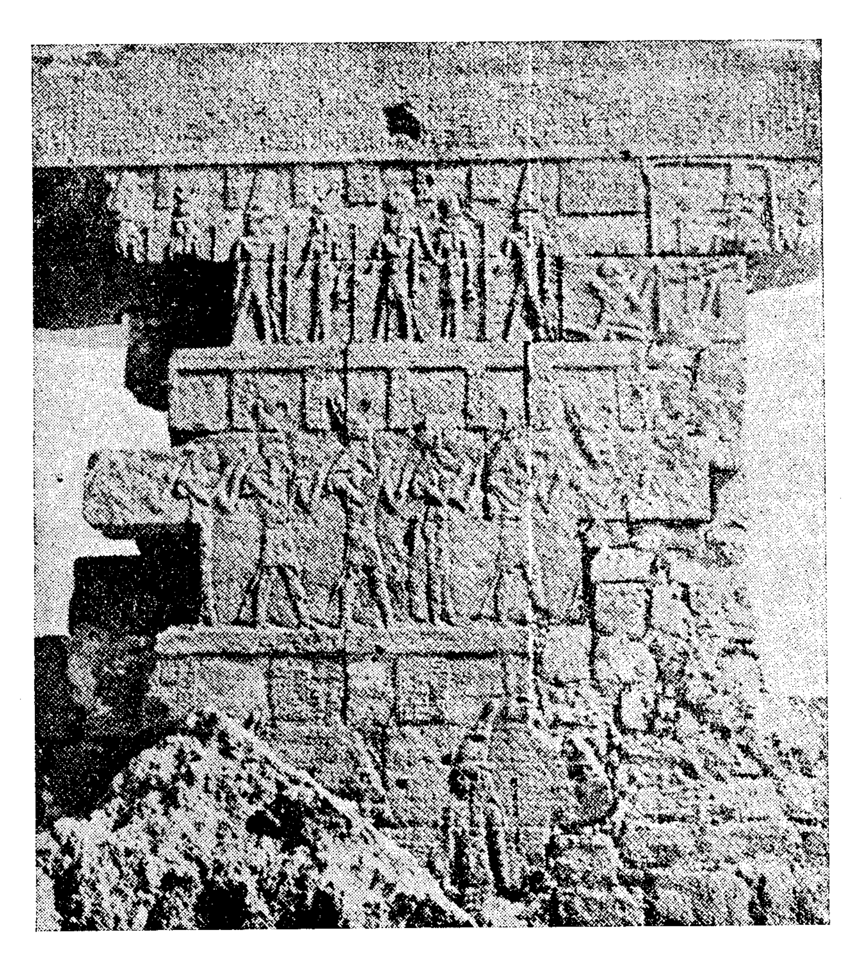


٨ — رسم يمثل «سا أمون» أحد أصحاب المقابر فى سيوه

إلى الخارجة ولما سئل كهنة أمون عن ذلك أجابوا بأن إلههم انتقم من أعدائه وأن الجيش كان فى منتصف الطريق عندما هبت عليه عاصفة رملية عند استراحته وقت الظهيرة دفنتهم جميعاً . وما زال مكان دفن هذا الجيش سراً من أسرار الصحراء الغربية وطالما ألهبت فكرة العثور على هذا الكنز خيال بعض الرحالة فى الوقت الحاضر فقامت بعثات عديدة قبل الحرب الأخيرة بالسيارات كما استخدم البعض طائرة للبحث وكل منهم يداعبه خيال الملايين من الجنيهات التى يمكن الحصول عليها من بيع أسلحة خمسين ألف جندى وما معهم من عتاد .

كانت شهرة نبوءة سيوة هو السبب الذى دعا قمبيز إلى إرسال حملة فلما عرف الناس ما حاق بالجيش زادت شهرة هذه الواحة وإلهها وأخذت وفود ملوك البلاد الإغريقية وكبار رجالها يحجون إلى سيوة ليسألوا كهنتها عما يخبئه لهم الغيب . وكانت هذه الشهرة العظيمة هى التى حملت الإسكندر الأكبر على القيام برحلته الشهيرة كما كان صدق نبوءات الكهنة هو الذى جعل البطل المقدونى يخلص لأمون إلى آخر أيام حياته حتى أنه طلب من صديقة الحميم « أريديوس » وهو فى سكرات الموت ألا يدفنه إلا على مقربة من أبيه أمون فى سيوة ولكن تدخل بطليموس وتصميمه على دفنه فى الإسكندرية حال دون تنفيذ هذه الرغبة . ومن الغريب أننا لم نعثر على اسم الإسكندر إلى الآن فى واحة سيوة والمعبد الوحيد الذى أبقت عليه الأيام من عهده فى الواحات هو المعبد الذى عثرت عليه فى البحرية عام ١٩٣٩ .

وازدهرت الواحات فى أيام البطالمة وخاصة فى أوائلها ونجد من هذا العصر جبانات كثيرة فى سيوة وفى البحرية أهمها كلها مدفن طيور ألايبيس فى البحرية ومقبرة « سا أمون » فى سيوة . وقد كشف عن هذه الأخيرة وثلاثة أخرى منقوشة أهالى سيوة بين شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٤٠ عندما أغارت الطائرات الإيطالية عليهم وأمطرتهم بقنابلها ففزعوا إلى جبل الموتى هرباً من الموت وأخذ من لم يجد قبراً يأوى إليه فى البحث فى جوانب التل عن قبر جديد . ويظهر أن سا أمون من أصل إغريقى استوطن سيوه وتزوج من مصرية ودان بديانة



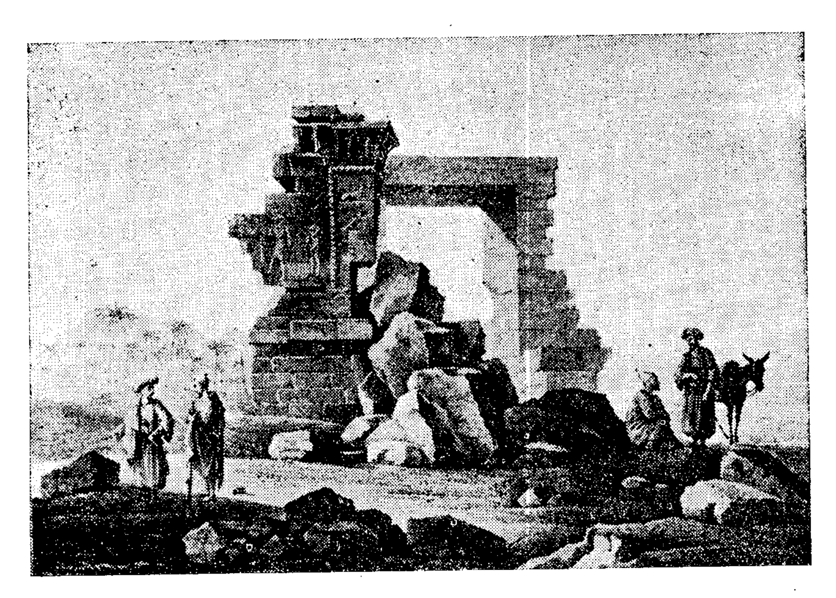
٩ — معبد آمون فى جهة أغورمى أو معبد أم عبيدة ويرجح تاريخ هذا المعبد إلى عصر الملك نختنبر الثانى من ملوك الأسرة ٢٦

المصريين وكون لنفسه ثروة مكنته من عمل هذه المقبرة العظيمة التى لا جدال فى أنها أجمل ما ظهر من مقابر فى الصحراء الغربية . ونرى فى هذه المقبرة وفى غيرها أثر امتزاج الفنين المصرى واليونانى . ونرى فى الواحات الخارجة من أيام البطالمة بعض الآثار أهمها كلها معبد قصر الغويطة على مقربة من بولاق .

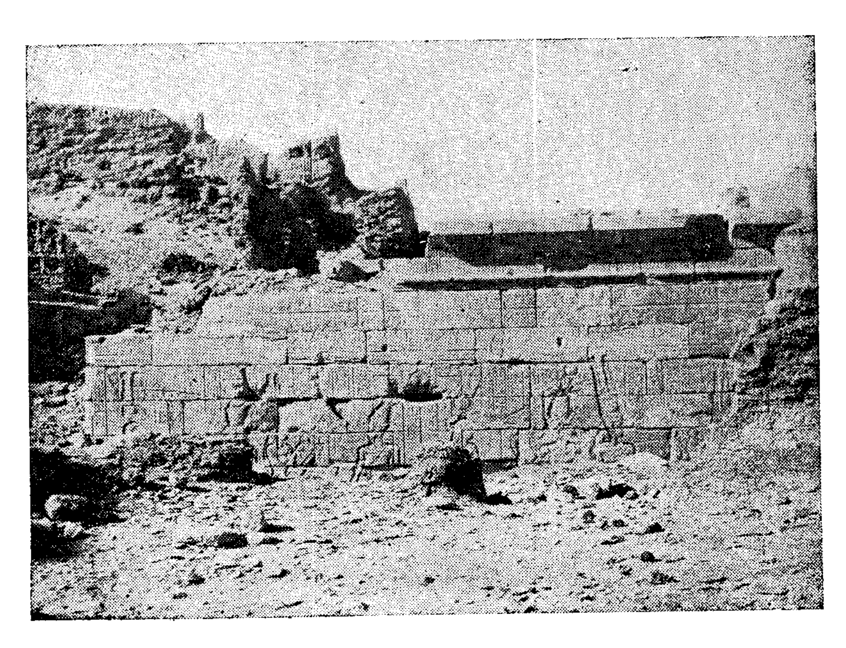
وجاء العصر الرومانى فدخلت الواحات فى عهد جديد من الرخاء لم تره منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين إذ اهتموا بتعمير الصحراء وحراسة دروبها لتشجيع التجارة كما اهتموا بالزراعة إلى أبعد الحدود فنظفوا عيون المياه القديمة كما حفروا عيوناً جديداً وعملوا الصهاريج لتخزين مياه الأمطار كما استحدثوا فى الواحات نظاماً فريداً للحصول على المياه فى المناطق التى لم يمكن فيها حفر العيون إذ كانوا يحفرون سراديب فى الصخر تسير كيلومترات عديدة ولها منافذ من آن لآخر توصلها بسطح الأرض وتسير هذه السراديب بانحدار فتتجمع المياه وتندفع إلى أن تصب فى مكان واطىء وتصبح كالعين ويمكن الاعتماد المطلق عليها فى الرى وخير مثال لهذه السراديب التى ما زالت مستعملة إلى الآن نراه فى الباويطى ، فى الواحات البحرية وأهم منه ما نراه فى المنطقة المعروفة باسم أم الدبادب فى شمال الخارجة .

ولو أردنا أن نحصر المناطق الأثرية من عهد الرومان فى جميع الواحات لوجدنا أنها تبلغ المئات لأنهم اهتموا بكل مكان ونرى اليوم آثار مبانيهم ومقابرهم فى بعض الواحات المهجورة مثل البحرين والنواميسة وخاصة واحة الأعرج بين سيوة والبحرية وكلها غير مأهولة الآن كما نرى آثار مبانيهم فى الدالة وأبو منقار بين الفرافرة والداخلة ويكفى أن أشير إلى اثنى عشر منطقة فقط وهى معابد الناضورة وزيان ودوش والحصن الرومانى المعروف بالدير فى الخارجة ثم معبد عين أمور بين الخارجة والداخلة وجبانة بشندى ومعبد القصر بالداخلة ثم حصن الفرافرة ومنطقة الحيز ثم قصور محارب فى البحرية وقريشت وبلاد الروم فى سيوة .

ولما انتشرت الديانة المسيحية فى وادى النيل سار بها المبشرون إلى الواحات فلقيت إقبالا كبيراً وساعد على انتشارها بعد الواحات عن مضطهدى الكنيسة



١٠ — كان جزء كبير من هذا المعبد قائماً حتى عام ١٨٩٣ ولكنه تهدم قبل عام ١٨٩٨
(عن مؤلف لفون مينوتولى قنصل ألمانيا فى مصر فى عام ١٨٢٠)



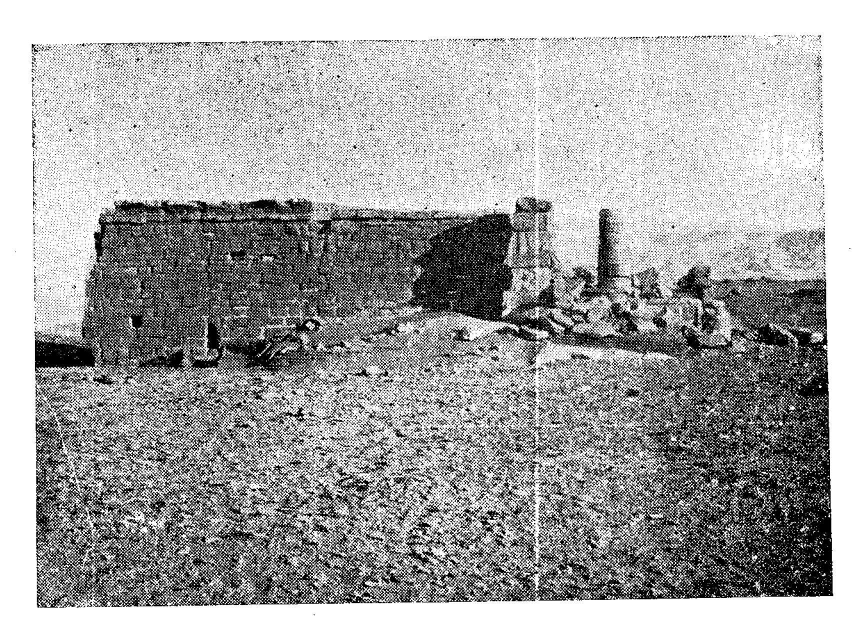
١١ — معبد قصر دوش ويرجع تاريخه والمدينة التى حوله إلى عصر البطالمة

ونعرف تمام المعرفة أنه فى منتصف القرن الثالث الميلادى كانت توجد جالية مسيحية كبيرة فى الخارجة يقيمون فى جنوبها وكان خير عون لإخوانهم فى الدين الذين يهربون من الاضطهادات أو ينفيهم الرومان إلى تلك البلاد .

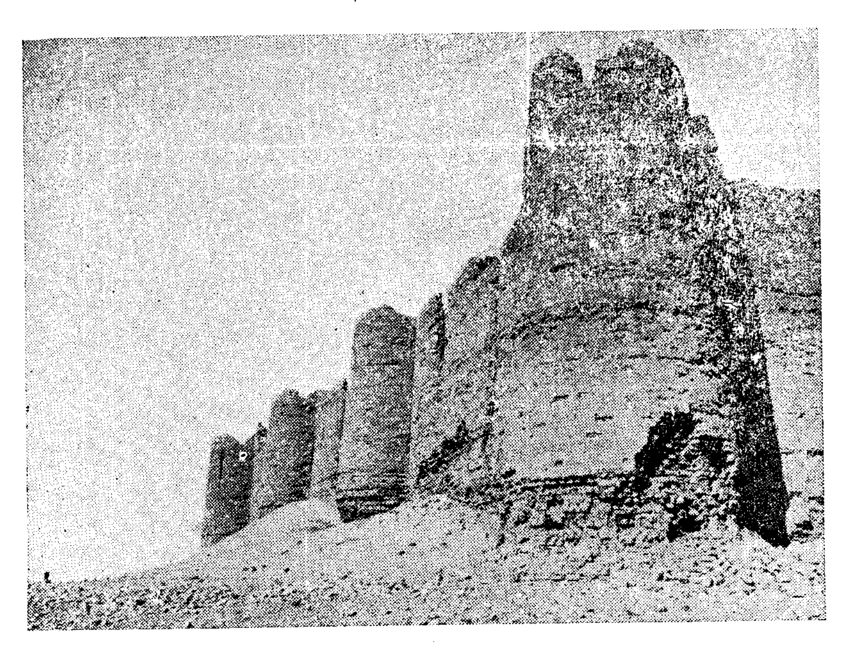
وقد عثرت منذ عامين فى الواحات البحرية على منازل بعض المسيحيين ووجدت فيها آثاراً أثبتت أنها كانت عامرة فى القرن الرابع الميلادى . وفى الواحة الصغيرة المعروفة باسم واح الحيز توجد كنيسة من أقدم الآثار القبطية إذ يرجع تاريخها إلى القرن الرابع وما زالت حافظة لكيانها إلى الآن .

وقبل بناء هذه الكنيسة اتخذ المسيحيون فى هذا المكان النائى فى الصحراء من أحد القصور الرومانية مكاناً حولوه إلى كنيسة ورسموا على جدرانه كثيراً من الرموز المسيحية كما أقاموا فى وسط الحجرة مذبحاً . وقد عثرت فى العام الماضى على هذا المكان وأعتقد أنه يرجع فى تاريخه إلى الزمن بين منتصف القرن الثالث أو أوائل الرابع .

وكانت الواحات فى أيام التناحر بين اليعقوبيين والنسطوريين منفى يرسلون إليه من يغضبون عليه من آباء الكنيسة ولهذا جاء إليها الكثيرون وربما كان ذلك هو السبب الذى مكن المسيحيين من أهل الواحات من إقامة جبانتهم المعروفة تحت اسم البجوات على هذه الصورة العظيمة من الفخامة والرقى فى العمارة إذ أنها تعتبر بحق من أهم وأقدم الآثار المسيحية فى العالم . وتشبه هذه الجبانة بشوارعها وهياكلها القائمة مدينة مهجورة إذ تحتوى على ٢٦٣ هيكلا أكثرها مزخرف من الخارج ويغلب عليها أثر الطراز البيزنطى كما احتفظ خمسة منها بزخارفها الملونة وأهم هذه الهياكل الملونة اثنتان إحداهما يرجع تاريخها إلى القرن الرابع وقبتها ملأى بمناظر مختلفة من التوراة والقليل من المناظر المسيحية وأهم مناظرها منظر خروج بنى اسرائيل من مصر يتقدمهم سيدنا موسى ويتبعهم فرعون وجنوده . أما القبة الأخرى فهى بيزنطية الطراز ومناظرها الملونة على جانب كبير من الدقة وهى تمثل بعض مناظر مما جاء فى قصص التوراة ولكن يوجد بينها مناظر مسيحية صرفة مثل رسم السيدة العذراء وقد جاءتها البشارة ورسم القديسة تكلا وأمامها القديس بولس .



١٢ — منظر عام لمعبد القصر فى الواحات الداخلة ويرجع تاريخه إلى أوائل أيام حكم الرومان فى مصر



١٣ — أحد الحصون الرومانية المقامة على طول درب الأربعين وكان مقر إحدى الحاميات ويطلق عليه الأهالى الآن اسم الدير

وهذه الجبانة مصدر من أهم المصادر لدراسة فن البناء بالطوب وخاصة فى إقامة العقود والأنواع المختلفة من القباب ويوجد فى العشرات من هياكلها آلاف الكتابات باللغات اليونانية واللاتينية والقبطية والعربية وبعض هذه الكتابات له أهمية تاريخية غير قليلة .

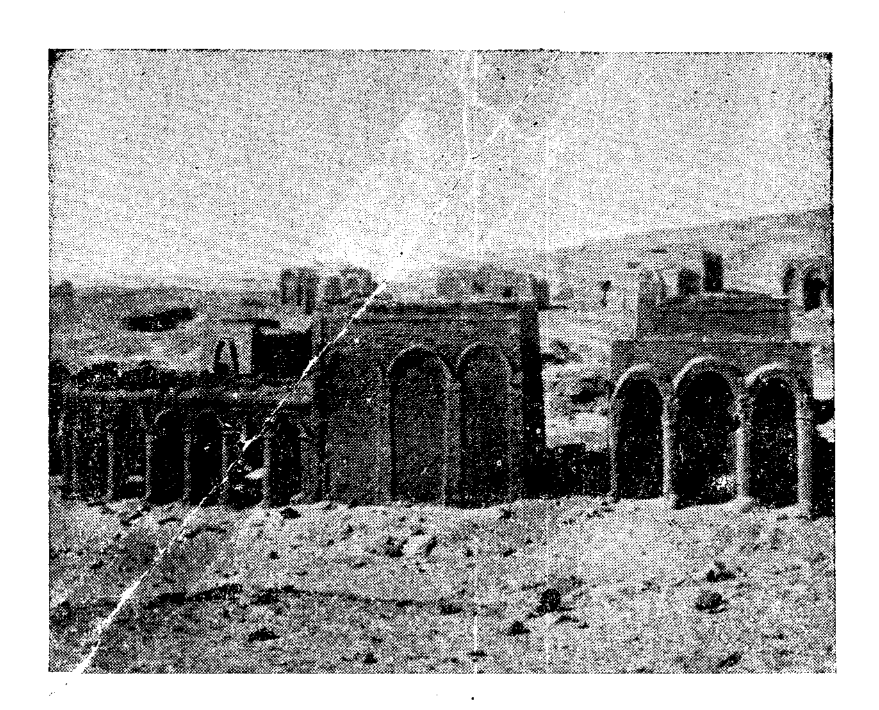
وبمناسبة ذكر هذه الجبانة أود أن أشير إلى حقيقة لها أهميتها فإن أكثر الباحثين يعتقدون أن آخر مكان استمرت فيه عبادة الآلهة المصرية القديمة هو جزيرة فيلة حتى جاء الإمبراطور جوستنيان فأغلق المعابد فى عام ٥٢٥ ميلادية. ولكنى أعتقد أن عبادة أمون وعبادة الشمس استمرت فى سيوة بعد هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة لأننا نعرف من تاريخ حياة القديس صمويل أن أهل الواحة التى حملوه إليها كانوا يعبدون الشمس ولم يكن بينهم مسيحيون وتقهقرت الواحات فى العصر العربى وأخذت الحمى وهجمات البدو تفتك بمن فيها حتى كادت تقفر من ساكنيها فلما مر بها الإدريسى فى القرن الثانى عشر لم يجد أحداً من السكان فى الواحات البحرية ولكنه ذكر أن سيوة كان يقطنها مسلمون . وفى عهد المقريزى أى فى القرن الخامس عشر كان تعداد سكان سيوة نحو ستمائة شخص فقط . وقد دخلت الواحات منذ فتحها فى عام ١٨٢٠ فى عهد جديد .

هذا عرض خاطف للواحات المصرية فى التاريخ رأيتم فيه شيئاً قليلا من آثارها وإذا كانت دراسة مناطقها الأثرية ما زالت فى المهد فإنى أرجو أن يحين اليوم الذى تقص فيه رمال الواحات ما مر عليها من أحداث فتضيف إلى علم الآثار وإلى تاريخ وادى النيل كثيراً مما نحن فى حاجة إليه[١] .

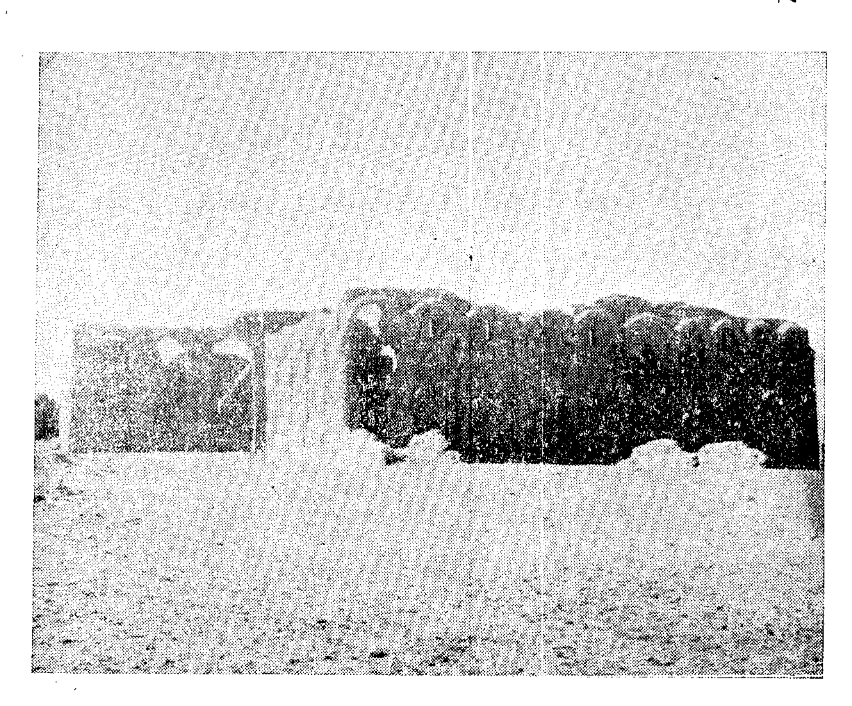
أحمد فخرى

---

(١) عرضت الصور بالفانوس السحرى وكان مجموعها ستين صورة انتخبنا منها أربعة عشر صورة فقط لنشرها مع هذا البحث لإعطاء فكرة عن بعض ما فى الواحات من آثار . [محاضرة ألقيت فى دار الجمعية التاريخية]



١٤ أ —



١٤ ب —

رسمان لبعض هياكل جبانة البجوات فى الخارجة وهى من أهم الآثار المسيحية القديمة فى العالم
ومن أهم المصادر لدراسة فن العمارة البيزنطية

نهاية السلاطين المماليك فى مصر

بعض أجزاء هذا الموضوع معروف جيد المعرفة ، وبعض آخر منه جديد منبعه مؤلفات حديثة لمؤلفين أخصائيين ، فى نواح معينة من تاريخ الشرق الأوسط ؛ ومن أولئك وتلك وشي وستربلنج وكاهن ولين وفشر . وهذا الجديد هو معالجة الوضع التاريخى — والوضع الجغرافى كذلك — لنهاية سلطنتا لمماليك ، فى مصر والشام ، وسائر ممتلكات هذه السلطنة بالشرق الأوسط ، أى من الناحية العالمية ، أو بعبارة أخرى — الناحية الدولية — من باب التجوز فى استعمال مصطلح حديث لشرح مرحلة صاخبة من مراحل الحوادث الخاتمة على العصور الوسطى ، قبل أن يكون للدولية معنى فى مصطلح التاريخ والسياسة . ذلك أن انتهاء سلطنة المماليك باستيلاء العثمانيين على الشام ومصر ، وسائر الممتلكات السلطانية المملوكية أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، حدَثٌ چيوبوليتيكى ذو أهميات بالغة فى السياسة الجغرافية ، وهذا قبل أن يكون للسياسة الجغرافية معنى فى مصطلح التاريخ والسياسة . وأول هذه الأهميات أن انتصار العثمانيين على المماليك نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية لأول مرة فى التاريخ من غرب آسيا وشمال أفريقيا إلى ركن استراتيجى عظيم ، بأقصى الجنوب الشرقى من أوربا — أى مدينة القسطنطينية — وهى ركن جعلت منه الدولة البيزنطية عاصمة لها ، ومركزاً لحضارتها وثقافتها ، ورمزاً لسلطتها الأرثوذكسية على معظم بلاد المسيحية الشرقية ، وذلك لمدة ألف سنة تقريباً ، قبل أن يحلّ العثمانيون بالقسطنطينية محلّ البيزنطيين . ثم إن استيلاء العثمانيين على القاهرة ، وهذا هو موضع الأهمية الثانية ، لم يغير من محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية فحسب ، بل نقل المذهب الفقهى الرسمى فى المجتمع المصرى من الشافعية إلى الحنفية ، وهذا كذلك حدَثٌ عميق الأثر فى جوف المجتمع المصرى ، وفى الحركة العلمية فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ولا سيما العراق ، بعد أن

صار العراق كذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وثمة أهمية ثالثة أن مطالع القرن السادس عشر الميلادى فى الشرق الأوسط كشفت عن تنافس عنيف بين السنة والشيعة من أجل السيادة الإسلامية العليا ، فى سلسلة حروب دامية بين العثمانيين والصفويين فى إيران . واعتقدت سلطنة المماليك أنها سوف تفيد من هذه الحروب شيئاً ، لأنها ذات مصلحة كبيرة فى مسألة السيادة الإسلامية العليا ، بوجود الخلافة العباسية بالقاهرة ، أو فى قوص ببطن الصعيد ، منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . غير أن سلطنة المماليك لم تفد من هذه الحروب ، ولم ينلها من مراحل المنافسة العثمانية الصفوية سوى ذهابها هى من مسارح التاريخ إلى كتبه ، وأخيلة المؤرخين .

لم يقع ذلك إلا سنة ١٥١٧ م ، أى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . غير أن المتتبع لحوادث الشرق الأوسط من أوائل القرن الخامس عشر إلى أواسطه لا يستطيع أن يجد فيها ما يدل على احتمال وقوع هذا الأمر الفاصل فى التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، ولم يدُر فى خلد سلاطين المماليك أنفسهم أن العثمانيين بعد احتلالهم البلقان ودويلات آسيا الصغرى ، سوف يمدون أبصارهم نحو السلطنة المملوكية المهيبة الجناب ، ونحو غيرها من البلاد الإسلامية ، ليكون لهم السلطان الفعلى فى العالم الإسلامى كله ، بعد أن وسعوا رقعته فى شرق أوربا ، وبعد أن جعلوا من العاصمة الأرثوذكسية المسيحية عاصمة للمسلمين . ولم يكن باستطاعة سلاطين المماليك أن يروا شيئاً من ذلك قبل وقوعه ، بل كثيراً ما احتفل أولئك السلاطين بالقاهرة — حتى سنة ١٤٦١ م على الأقل — بانتصارات الدولة العثمانية أينما تكون ، كأنما هى انتصاراتهم . ودأب المؤرخون المصريون المعاصرون على إطراء كل سلطان من سلاطين "ابن عثمان" عند وفاته ، أو الإشادة بفاخر أعماله الحربية وغير الحربية مدة حياته ، فى أسلوبهم الطافح بالمحسنات اللفظية من بديع وبيان ، مما يشجى الأديب ، ويستريح إليه الواعظ ، ويتملّح به المؤرخ الذى لا يرى التاريخ إلا خليطاً من الأدب والوعظ والأخبار . ثم إذا اعتلى العرش فى إحدى الدولتين المملوكية والعثمانية سلطان جديد — فى القاهرة ، أو فى بروصة حيث أقام العثمانيون عاصمتهم

قبل إقامتها فى أدرنة ثم القسطنطينية فيما بعد — تبادلت العاصمتان المملوكية والعثمانية رسائل التهنئة والتبريك ، وإذا اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح قريب — أو بعيد — امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة ، مثلما حدث حين سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين على عهد السلطان محمد الثانى ، وأصبحت منذئذ عاصمة أمبراطوريتهم الإسلامية التركية، فى أوربا وآسيا وأفريقيا .

وبقيت الصداقة متبادلة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ما بقيت أطرافهما ومنافعهما متباعدة ، فى مسافات جغرافية تكفل لهما عدم الاصطدام الاقتصادى ، أو السياسى . ثم أخذت هذه الصداقة تتحول إلى مغايرة وتحاسد من بعد سنة ١٤٦١ م ، ثم إلى مباغضة ومعاداة لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة سنة ١٤٨٣ م . وظلت هذه الحرب المملوكية العثمانية ثمانية أعوام حسوماً طويلة ، ولم يكن السلام الذى أعقب هذه الحرب وامتد من سنة ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م ، سوى نفحة من نفحات الهدوء قبل العاصفة ، حتى إذا هبت هذه العاصفة هبوبها المنتظر اكتسحت المماليك وإمبراطوريتهم وسلطنتهم ، وأزالتهم وأزالتها من الوجود السياسى .

أما النذير الأول لهذه العاصفة الكاسحة ، فهو ما وصل إلى القاهرة أواخر سنة ١٥١٥ م ، من أنباء تخبر بأن السلطان سليما يعمل جاداً فى إعداد دار الصناعة العثمانية بالقرن الذهبى لبناء أسطول جديد ، وأنه يتجهز للهجوم على السلطنة المملوكية فى البرّ والبحر . ولم يكذب السلطان قانصوه الغورى هذه الأنباء التى يبدو أنها جاءت مصدقة لما عنده من معلومات سابقة ، فأخذ من ناحيته يستعد للحرب حتى جعل القاهرة تموج بالاستعداد ، وبات الناس ولا حديث لهم فى طول البلاد وعرضها إلا اقتراب يوم الفصل بين السلطان المملوكى وابن عثمان ، على قول المعاصرين .

هذا مجمل ما كان من تطور العلاقات بين سلطنتى المماليك والعثمانيين ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن التالى له . أما تفصيل هذا التطور ، فيتضح منه أنه لم يكن للاصطدام بين الدولتين بدّ — إن عاجلا

أو آجلا – وذلك على الرغم مما قام بينهما من علاقات المودة والوئام زمناً غير قصير . فى عهد السلطان برسباى (١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) بدت العلاقات بين الدولتين غاية الصفاء ، بفضل عداوة شاه رخ بن تيمورلنك لكل من برسباى ومراد الثانى، وابنه محمد الأول من قبل . وجاء رسل عثمانيون إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ م ، يحملون تهنئة السلطان العثمانى باعتلاء برسباى عرش السلطنة المملوكية فى العام السابق ، واغتبط برسباى بمقدمهم وبما أحضروه معهم من هدايا ثمينة ، ردّ عليها بأثمن منها حسبما يتطلبه الآيين المملوكى . لكن هذه الهدايا لم تصل إلى ابن عثمان ، إذ وقعت فى أيدى المتجرمة فى البحر الأبيض من أهل قبرص، وأخوانهم فى القرصنة وقتذاك . غير أن ذلك لم يمنع السلطان مراداً الثانى أن يبعث سنة ١٤٢٦ م إلى برسباى هدايا فخمة صحبة رسل عثمانيين مرة أخرى ، من باب التهنئة على ما أحرزت حملتان مملوكيتان من نصر فى جزيرة قبرص . وأقام أولئك الرسل بالقاهرة حتى عادت حملة مملوكية ثالثة من قبرص سنة ١٤٢٧ م ، مكللة بآيات النصر ، وفى ركابها عدد من الأسرى بينهم ملك القبارصة نفسه، وهو جانوس الثانى لوزنيان . وعندما جيء بهذا الملك عارى الرأس مكبلا بالسلاسل، كانت حضرة السلطان بالقلعة مزدانة بأولئك الرسل العثمانيين، وغيرهم من القصاد الذين صادف وجودهم بالقاهرة، وبذا شهد القريب والبعيد ما فعلت بسالة الجنود المملوكية خدمة للإسلام . ولعلّ الغيرة التى أثارها هذا المشهد هى التى أدت بالسلطان مراد الثانى أن يرسل إلى برسباى سنة ١٤٢٨ م خمسين أسيراً مسيحياً، بعد استيلائه على إحدى الإمارات البلقانية التى سمى العينى أهلها باسم الأنكيروز . وفى سنة ١٤٣٣ م ، وفد على برسباى بحلب اثنان من أبناء أخى مراد الثانى ، أحدهما صبى اسمه سليمان ، والآخر صبية اسمها شاه زاده ، فأنزلهما السلطان منزلا حسناً ، واصطحبهما معه إلى القاهرة ، وأسكنهما الدور السلطانية بالقلعة ، وأجرى عليهما الأرزاق اللائقة . وترك السلطان مراد الثانى أمر الصبيين إلى صديقه برسباى ، واطمأن إلى إقامتهما عنده بالقاهرة ، ولا سيما بعد أن علم أن برسباى خطب شاه زاده ليتزوج منها عند بلوغها سنّ الزواج ، وأن سليمان أخاها التحق

بحاشية يوسف بن برسباى. ثم تزوّج برسباى من شاه زاده الصغيرة سنة ١٤٣٦، وغدا مراد الثانى آمنا ، بدليل ما أرسل حين ذاك من هدايا سنية لنسيبه برسباى .

ثم جاء ارتقاء جقمق عرش السلطنة المملوكية (١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) عاملا إضافياً فى ازدياد الصداقة بين المماليك والعثمانيين ، ففضلا عما اشتهر به السلطان الجديد من الدين واللين نحو جميع إخوانه من ملوك المسلمين ، فإنه أثار إعجاب مراد الثانى بصرامته وصلابته فى أمور الشرع الإسلامى ، كما أثار محبته بالزواج من شاه زاده بعد وفاة زوجها الأول ، والمحافظة على أخيها سليمان بالقاهرة بعد وفاة يوسف بن برسباى. ولذا امتلأت رسالة التهنئة بالسلطنة، وهى التى بعث بها مراد الثانى إلى جقمق سنة ١٤٣٩ م ، بعبارات كلها تبجيل وإجلال ، وفاتت هديته جميع الهدايا الواصلة إلى القاهرة من عند " ابن عثمان " زمن السلطان برسباى . ومنذئذ توثقت عرى المحبة بين السلطانين ، ودأب كل منهما على مبادلة صاحبه بنعوت الأخوة ، كما تبودلت الهدايا الفخمة بين البلاطين . وحينما انتصر العثمانيون سنة ١٤٤٤ م عند مدينة ڤارنا ببلغاريا الحالية على جيوش لادسلاس ملك المجر ، وهنيادى نائب ترانسلڤانيا ، أنفذ مراد الثانى عدة من أسرى هذا الانتصار ، ليدل بهم على ضخامة مغانمه وأسلابه وأنهابه ، وليبرهن للسلطان جقمق على مبلغ ما حقق الإسلام من فتوح على يد العثمانيين .

وغدا السلطان جقمق موضع إجلال محمد الثانى بعد مراد الثانى ، بدليل هديته التى أرسلها إلى القاهرة عند اعتلائه الأول للعرش العثمانى سنة ١٤٤٥ م ، حتى إذا اعتلاه نهائياً سنة ١٤٥١ م بعد وفاة مراد الثانى، أسرع جقمق بالرد على هذه الهدية بما هو أحسن منها ، مع وفد خاص للتهنئة . وتوفى جقمق بعد ذلك بسنتين ، أى سنة ١٤٥٣ م ، وخلفه إينال على العرش المملوكى فى شهر مارس من تلك السنة ، وهو الشهر الذى أتم فيه محمد الثانى معداته لحصار القسطنطينية . ولذا لم يستطع السلطان العثمانى أن يوفد أحداً لتولية إينال سلطنته إلا بعد سقوط العاصمة البيزنطية فى أيدى العثمانيين . على أن إينال استقبل رسل محمد الثانى عند وصولهم القاهرة أحسن استقبال ، وأعلن

الفرح لسماعه بسقوط القسطنطينية ، بل أمر فنادى أن تحتفل القاهرة بذلك النبأ العظيم ، فأزينت الأسواق والحارات ، وأوقدت الشموع فى الشوارع والمآذن ، ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام . وفى سنة ١٤٥٦ م وصلت إلى القاهرة سفارة عثمانية ثانية ، برسالة تنبيء بانتصار محمد الثانى على الصربيين ، فى وقعة نوفوبردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوجوسلافيا الحالية . وتحدثت هذه الرسالة بما أفاءت الجرأة العثمانية على الإسلام من نصر مبين ، فى نثر مسجوع ، تتخلله سطور من القرآن ، وأبيات من شعر المديح والتفاخر ؛ وأرسل إينال رداً مشابهاً . وقبل أن يتحرك الأمير المملوكى قانى بك ، وهو الذى كلفه إينال أن يحمل هذا الرد إلى البلاط العثمانى — شاع بالقاهرة نبأ بوفاة محمد الثانى ، ثم ظهر كذب النبأ ، فأمر إينال بدق البشائر السلطانية بالقلعة ثلاثة أيام . ثم سافر قانى بك إلى القسطنطينية ، ورجع سنة ١٤٥٧م محملا بالهدايا الكثيرة .

غير أنه منذ آلت السلطنة سنة ١٤٦١ م إلى خشقدم اليونانى الأصل ، أخذت سحب العلاقات الصافية بين المماليك والعثمانيين تقتم وتظلم وتحتك بعضها ببعض ، دون أن تدل عليها راعدة لبضع سنين . ذلك أن الدولة العثمانية منذ تمت لها السيطرة فى البلقان — بمهادنة إسكندر بك زعيم ألبانيا ، وإتمام الاستيلاء على شبه جزيرة المورة — بدأت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات آسيا الصغرى ، وأهمها إمارتا قرمان ودلغادر التركمانيتان المشمولتان بحماية السلطنة المملوكية ، وعليهما تعتمد السلطنة المملوكية فى شئون الأمن والدفاع فى أطرافها الشمالية . ولذا لم تلبث علامات التنافر بين العثمانيين والمماليك أن وضحت من أجل هاتين الإمارتين ، ولا سيما حين توفى إسحاق أمير قرمان وسليمان بك دلغادر سنة ١٤٦٥ م . ذلك أن الدولة العثمانية نصرت فى كل من الإمارتين شخصاً مخالفاً لمن قامت الدولة المملوكية بنصرته ، وفاز محمد الثانى فى الحالين على خشقدم ، بقيام پير محمد فى إمارة قرمان ، وبداق بك فى إمارة دلغادر ، لا لشيء سوى أنهما من صنائع ابن عثمان . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد الخطير ، بل زاده خطراً أن السلطان العثمانى أوى فى بلاطه كثيراً من رجال الدولة المملوكية

الذين فرّوا إليه استياءً من خشقدم ، وليس عجباً أن يدأب السلطان المملوكى بعد ذلك على مناوأة الحركات العثمانية بالجنوب الشرقى من آسيا الصغرى .

ولم يكن قايتباى الذى خلف خشقدم فى السلطنة المملوكية، سنة ١٤٦٧ م، أقلّ من سلفه مناوأة ومعارضة لتدخل العثمانيين فى شئون قرمان ودلغادر ، بدليل أن العلاقات بين الدولتين لم تتحسن إلا بعد أن اتفق الطرفان على الكف عن التدخل فى شئون هاتين الإمارتين . وبحسب هذا الاتفاق ظلت السلطنتان المملوكية والعثمانية فى وئام ظاهر ، فعاد محمد الثانى إلى إرسال الرسل إلى القاهرة وأخبار الانتصارات العثمانية فى أوربا ، كأيام إينال ، ووصل من عنده سنة ١٤٧٠ م رسول يخبر باستيلائه على عدة من الجزر التابعة للجمهورية البندقية بالأرخبيل اليونانى ، وغزو سفنه منطقة فريولى ومناطق أخرى للبنادقة على ساحل البحر الأدرياتى . وبينما تسير الجنود المملوكية بقيادة يشبك الدوادار فى طريقها من الشام إلى شمال العراق سنة ١٤٧٣م، لحرب أوزون حسن أمير ديار بكر ، جاء رسول عثمانى إلى المعسكر المملوكى يعرض استعداد السلطان محمد الثانى للاشتراك فى تلك الحرب . على أن انتصار الجنود المملوكية على أوزون حسن تمّ وشاعت أنباؤه فى مصر والشام، قبل أن يسهم العثمانيون بجيش أو بعض جيش، مما وعدوا به للمساعدة ضدّ عدوّ ذى خطر على المماليك والعثمانيين، سواء بسواء . ومع هذا لم يسع قايتباى إلا أن يرسل إلى محمد الثانى مبعوثاً خاصاً يشكره على استعداده لمساعدة الدولة المملوكية، وهكذا بقيت العلاقات الطيبة قائمة بين السلطنتين ، كما بقيت رسل المودة تتبادل بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى سنة ١٤٨١ م ، وقيام بايزيد الثانى فى السلطنة العثمانية .

لم يكن هنالك ما يدعو إلى الظن بأن العلاقات الطيبة بين السلطنتين توشك على النهاية، بعد قليل من السنين . غير أنه كان للسلطان بايزيد الثانى أخ صغير اسمه چم ، واعتزم هذا الأخ منازعة بايزيد الثانى على العرش بعد أن أفلت من براثن العملية الدموية (blood bath) التى دأب البلاط العثمانى على إتمامها، قبيل قيام كلّ سلطان جديد . وجمع چم جموعاً بغرب

آسيا الصغرى لإعلان الخروج على بايزيد الثانى ، ثم ما لبث أن لحقته الهزيمة ، فنجا بنفسه وأهله إلى مدينة قونية التى عرفته وأحبته منذ ولايته عليها فى سابق السنين ، ولكنها لم تجرأ على نجدته ضدّ بايزيد الثانى . ثم توجه چم أخيراً إلى القاهرة ، مع أمه وحريمه ، فرحب به قايتباى ، وبالغ فى إكرامه ، وأمده بجميع ما احتاجه من المال لتأدية فريضة الحج ، مما أغضب بايزيد وأثار حفيظته على الدولة المملوكية . وعلى الرغم من خرس المراجع هنا — عن إشارة تساعد على شرح تطور العلاقات المملوكية العثمانيةعلى هذا النحو — فالواضح أن مسألة الأمير چم لم تكن كل ما هنالك من أسباب الجفوة ، بدليل إمعان قايتباى فى معونة هذا الأمير فيما عزم عليه منذ رجوعه من الحج ، إذ زوّده بالمال ،وأغراه بمفاوضة بايزيد الثانى فى أمر رجوعه إلى إسطنبول ،بشرط تعيينه سلطاناً على جزء من الدولة العثمانية ، أو مشاركته فى السلطنة دون حاجة إلى تجزئة أو تقسيم . غير أن بايزيد الثانى رفض المساومة فى هذا أو ذاك رفضاً باتاً ، وكتب إن إقصى ما يعدُ به أخاه چم إذا رجع إلى وطنه أن يعين له راتباً سنوياً لائقاً ، وأن يضمن له العيش فى أمان واطمئنان . أما شيعة چم ومؤيدوه بآسيا الصغرى ، فظلوا على إلحاحهم فى تحريضه مرة بعد مرة ليعود إليهم ، وليعلن الحرب على أخيه من قونية أو غيرها من البلاد العثمانية . ونزولا على إلحاح أولئك المؤيدين رحل چم عن القاهرة أوائل سنة ١٤٨٢ م ، دون أن يأخذ معه أحداً من أهله . وسمح له قايتباى بالرحيل على كره منه ، لأنه آثر بقاءه عنده ليضايق به بايزيد الثانى ، ولذا أذن له بالإقامة ما شاء بحلب حتى يجهز حملته الابتدائية المرجوة،للزحف بها نحو إمكانيات مساعدته . غير أن هذه الحملة لم تكد تتحرك من حلب حتى باءت بفشل ذريع ، فتركها چم وأبحر إلى جزيرة رودس ،حيث أضافه رئيس الاسبتارية (Hospitallers) دوبوسون . ثم تلت هذه التطورات الفجائية مفاوضات بين بايزيد الثانى ودوبوسون ، وتمّ الاتفاق على أن يدفع السلطان العثمانى للاسبتارية مبلغاً قدره خمس وأربعون قطعة ذهبية بندقية سنوياً ، مقابل احتفاظهم على الأمير چم ورقابة حركاته . ولم يلبث دوبوسون أن أرسل چم إلى فرنسا ،ليقيم بأحد البيوت

الاسبتارية بها ، فوصل إلى ڤيلا فرانكا، وظلّ بها حتى أواخر سنة ١٤٨٨ م .

ولم يكد بايزيد الثانى يفرغ من أمر أخيه چم على هذا النحو الشائن حتى أخذ يعدّ العدة لحساب السلطنة المملوكية على مؤازرتها للأمير المنكود ، وزاد فى إصراره على حسابها أن قايتباى رفض السماح لبايزيد بإصلاح قنوات المياه بشوارع مكة ، وأنه لم يحرك ساكناً لمعاقبة جماعة من لصوص ميناء جده ، لنهبهم بعثة هندية تحمل متجراً للسلطان العثمانى ، فضلا عن خنجر ثمين ، وجملة من طرائف كريمة أخرى . ولذا أعلن بايزيد عزمه على إمداد علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على السلطنة المملوكية وقتذاك ،وأمدّه سنة ١٤٨٣ م بجنود عثمانية استخدمها علاء الدولة إلى جانب جنوده فى الإغارة على نيابة ملطية التابعة لدولة المماليك بآسيا الصغرى . غير أن هزيمة هذه القوات المشتركة على يد المماليك سنة ١٤٨٤ م ، وعودة الجيوش المملوكية إلى قواعدها فى حلب يتلوها رتل من الأعلام العثمانية التى وقعت فى قبضتها ، زادت فى إصرار بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى ، وأرسل إلى علاء الدولة يحثه على مواصلة الحرب ، ويعدُه بالمساعدة اللازمة لذلك من المؤونة والرجال والمال .

أما السلطان قايتباى فأخذ يسعى لترضية بايزيد ، وذلك منذ علم بموقفه من علاء الدولة ، واستشار أمراءه فى أقرب الطرق والمسالك المؤدية إلى تحقيق هذه الترضية ، فقرّ الرأى على إرسال السياسى المملوكى القديم جانى بك حبيب إلى إسطنبول . وحمل حبيب معه إلى بايزيد الثانى هدية فخمة، ورسالة ودّية ، فضلا عن الخنجر الهندى الثمين ، وتقليد خليفى ، ورسالة شخصية من عند الخليفة العباسى . غير أن بايزيد رفض المصافاة ، بل أساء استقبال حبيب عامداً ، ولم تلبث جنود عثمانية أن هجمت على الحدود الشامية فى فجأة دون إنذار ، حتى إنها استولت على طرسوس وأذنه ومدن أخرى ، قبل أن يرتدّ حبيب إلى القاهرة خائب المسعى . وطير نائب حلب أخبار هذا الهجوم العثمانى إلى قايتباى ، فأنفذ حملة تضم من الجند أكبر عدد مستطاع ، بقيادة الأمير إزبك . وزحفت الحملة المملوكية فى سرعة إلى حيث وصل العثمانيون من الأطراف الشامية ، وأنشبت حرباً عنيفة ظلّ ميزانها مضطرباً بين الجانبين

حتى رجحت كفة المماليك، بعد معركة حامية قرب أذنة . ورجع إزبك إلى القاهرة فى موكب طويل من رءوس القتلى من العثمانيين ، بالإضافةإلى عدد كبير من الأسرى ، بينهم القائد العثمانى هرسك أحمد ، مكبلا فى أغلال المنتصرين .

غير أن هذه الهزيمةالتى لحقت العثمانيين زادت نار العداوة المملوكيةالعثمانية ضراماً ، إذ أججت الانتقام فى نفس بايزيد الثانى ، وأدّت به إلى إعداد حملة كبيرة وصلت أخبارها إلى قيتباى أربعة أشهر قبل وصول إزبك بجنوده المنتصرة إلى القاهرة . ولذا أرصد قايتباى جميع جهوده لإنفاذ حملة مماثلة للحملة العثمانية ، بل أعلن أنه سوف يقود هذه الحملة بنفسه . وإذ أفرغت مصاريف الحملات السابقة خزانة السلطان ، عمد قايتباى إلى جمع ما سوف يحتاج إليه من الأموال بطرق غير عادية ، فاستخلص من أراضى الأوقاف والأراضى الحرة المملوكة للأفراد دخل شهرين ، وأرغم أولاد الناس (وهم فئة أبناء الأمراء المتوفين ، وعليهم تأدية الخدمة الحربية فى الجيش المملوكى مقابل إقطاعاتهم الصغيرة) أن يدفعوا بدل خدماتهم مبالغ معينة ، كما ضرب على اليهود والمسيحيين وكبار التجار من المصريين المسلمين ضرائب استثنائية مختلفة . وبينما هذه الاستعدادات العسكرية تأخذ مجراها ، جاء الخبر إلى القاهرة بأن العثمانيين أخذوا يقرعون أبواب مدينة أذنة مرة أخرى ، ويهجمون على أسوارها من كل ناحية ، وأن مدينة أياس سلمت للجيش العثمانى ، دون قتال . غير أن حملة قايتباى كانت على وشك المسير فى أهبة واستعداد ، ولذا استطاع السلطان أن ينفذها من القاهرة منتصف مايو سنة ١٤٨٦ م ، بقيادة الأمير إزبك ، فجاءت حسب تقدير المعاصرين أكبر حملة برحت الديار المصرية منذ قيام الدولة المملوكية الثانية .

وعلى الرغم من ذلك كله يحتمل أن قايتباى لم يكره وقتذاك أن ينتهى ما بينه وبين بايزيد الثانى إلى صلح مقبول ، بدليل أنه أطلق سراح القائد العثمانى هرسك أحمد ، وعدداً من الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، كما أوعز بنشر الأخبار عن اعتزامه القيام بإرجاعهم إلى وطنهم سالمين مكرمين . لكن هذه الحركة وما انطوت عليه من دبلوماسية لم تأت بنتيجة ، لأن قايتباى حاول من ناحية أخرى أن

يتسلم الأمير چم من ملك فرنسا لويس الثامن ورئيس الاسبتارية دوبوسون ، كي يستخدمه في الضغط على بايزيد الثاني . ولم ينجح قايتباي في محاولته هذه ، إذ جاءه رسولٌ من عند ملك فرنسا ، وليس معه سوى هدية فاخرة ، وكان وصول هذا الرسول الفرنسي إلى القاهرة في يونيه ، سنة ١٤٨٨ م .

وفي ذلك الشهر وردت الأخبار إلى قايتباي من حلب تنبئ بأن العثمانيين على بلدتي أذنة وأياس ، وأنهم يقتربون من إسكندرونة ميناء حلب ، في أسطول عدته ستون سفينة ، ابتغاء النزول في خليجها بجند يقطعون بها خط السير على إزبك وجيشه . غير أن عاصفة هبت على الخليج ، فأفسدت محاولة العثمانيين ، وبذا استطاع إزبك أن يزحف شمالا في غير صعوبة حتى ضرب الحصار على أذنة ، وهي التي احتشدت عندها معظم الجنود العثمانية . وظل ذلك الحصار ثلاثة أشهر حتى سلمت أذنه للمماليك ، بعد أن أخلاها العثمانيون . وعاد إزبك عودة الظافر إلى القاهرة ، في فبراير سنة ١٤٨٩ م ، وفي ركبه عدد من الأسرى الذين رضوا بعدئذ أن يدخلوا في خدمة قايتباي ، وتقبلهم السلطان قبولا حسناً ، وأحلهم القلعة في ثكنات سماها " العثمانية " ، نكاية في بايزيد الثاني .

أما بايزيد ، فاعتزم المضي في هذه الحرب إلى النهاية ، فلم يكد إزبك يبرح الشام إلى مصر حتى تحركت حملة عثمانية ثالثة جنوباً ، صوب الحدود المملوكية بأطراف آسيا الصغرى . ولذا أنفذ قايتباي فرقة لحماية نيابة حلب ، على أن يتلوها بجيش كبير إذا اقتضت الحال . غير أنه مما لا يدعُ مجالا للشك أن قايتباي ظلّ برغم ذلك كله يعلل النفس بالآمال في الصلح مع بايزيد الثاني ، لسوء حال الخزانة السلطانية . من الدليل على ذلك السوء ما أفضى به قايتباي حين ألحفت العساكر العائدة من أذنة في طلب النفقة المعتادة ، إذ قال إن مصاريفه الحربية من سنة ١٤٦٧ م إلى سنة ١٤٨٩ م بلغت ٧,١٦٥,٠٠٠ دينار ، وأن الفرقة التي أنفذها أخيراً لحماية حلب كلفته وحدها ١٥٠,٠٠٠ ديناراً ، حسب تقدير ديوان الجيش . من ذلك يتضح كيف كان وصول رسولٌ عثماني من قبل داود باشا وزير بايزيد الثاني ، في مايو سنة ١٤٨٩ م ، مدعاة إلى الأمل في الصلح . على أن قايتباي لم يشأ أن يقبل ما نصح به هذا

الرسول العثمانى من إرسال وفد مملوكى للمفاوضة فى إسطنبول ، نظراً لأنه هو الجانب الظافر ، ولأن مفاتيح القلاع والمعاقل التى استولى عليها العثمانيون لا تزال عند السلطان بايزيد الثانى ، ولا سبيل إلى صلح إذا لم يتسلم قايتباى هذه المفاتيح . ورأى قايتباى وقتذاك أن يدعم موقفه من بايزيد بمحاولة جديدة لإعادة الأمير جم إلى القاهرة ، وفاوض من أجل ذلك البابا إنوسنت الثامن الذى تسلم الأمير حديثاً من فرنسا . لكن قايتباى أخفق مثل إخفاقه الأول ، برغم استعداده لتلبية جميع ما يطلبه البابا ، ولو تعدّى ذلك إلى النزول عن بيت المقدس للبابوبة ، أو فرنسا .

وكيفما كان الأمر ، فليس من المعروف أن الوزير العثمانى داود باشا أعلم السلطان بايزيد الثانى بالشروط التى جعلها قايتباى أساساً للصلح ، وإنما المعروف أن جنوداً عثمانية تجمعت قرب قيصرية الروم بآسيا الصغرى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، وأن علاء الدولة دلغادر أرسل إلى السلطان قايتباى يعيّره بوصول فرقة من العثمانيين إلى بلدة كولك على مقربة من الحدود المملوكية . ولذا لم يمض على هذه الأخبار بضعة أسابيع حتى أنفذ قايتباى حملة كبيرة بقيادة الأمير إزبك ، على أن يقوم الأمير أولا باستطلاع ما تبقى من أمل فى الصلح . على أن قايتباى لم يغفل تصميم بايزيد على حرب ثالثة، رغم ما يبدو من مشورة وزيره داود ، فأعد بالقاهرة جيشاً احتياطياً أعلن فيه على رءوس الأشهاد أنه سوف يقود ذلك الجيش بنفسه إلى الشام ، عند أول إشارة من إزبك بطلب المدد .

أما إزبك فسار بجيشه صوب الشمال ، حتى إذا صار على مقربة من الأطراف المملوكية بعث ماماى الخاصكى إلى معسكر الفرقة العثمانية عند كولك ، لمعرفة ما هنالك من أخبار الصلح . لكن العثمانيين قبضوا على ماماى وسجنوه ، وملّ أزبك الانتظار ، فتوجه بجيشه أخيراً صوبهم وأجلاهم عن كولك ، ثم زحف منها نحو قيصرية الروم ، حيث هزم الحامية العثمانية هناك هزيمة منكرة ، وأسر الكثير من قادتها . ثم انتهب إزبك قيصرية نفسها وأحرقها ، وأنزل بكثير من ضياعها وقراها مثلما أنزله بها من التخريب . ثم رجع إزبك بجزء من جيشه

نحو ماونده دون أن يشتبك فى قتال ، وعاد إلى مصر، ودخل القاهرة دخول الظافر المثلث الظفر ، فى نوفمبر سنة ١٤٩٠ م .

لم يطمئن قايتباى لتلك النتيجة السريعة الفاجئة ، إذ خشى مما سوف تثيره هذه الهزيمة الثالثة فى السلطان بايزيد الثانى من عزم على الانتقام ، وأوجس مما لدى العثمانيين من موارد عسكرية طائلة ، فعقد مجلساً بقبة يشبك (القبة الفداوية الحالية) فى يناير سنة ١٤٩١ م ، وشرح الموقف شرحاً وافياً بقوله للحاضرين : " إن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة مصر " حتى ينتقم لشرفه انتقاماً شافياً ، واقترح أن يتأهب للحرب بإعداد الرجال والمال . ولذا طلب قايتباى إلى قضاة القضاة الأربعة أن يوافقوه على جباية أجرة سنة كاملة عن جميع الأوقاف والأملاك الحرة بالقاهرة ومصر ، فوافقوه على جباية أجرة خمسة أشهر فقط ، بالإضافة إلى عدة جبايات أخرى بسائر مصر والشام . وانفض هذا المجلس ، وامتلأت القاهرة بأخبار الحرب ، واعتزم السلطان أن يخرج بنفسه على رأس الجيش المملوكى هذه المرة .

وبينا تجرى الألسنة بحديث الحرب المقبلة ولا ريب ، وقع ما لم يكن فى الحسبان ، وذلك فى أبريل سنة ١٤٩١ م ، حين عاد إلى القاهرة ماماى الخاصكى الذى أرسله إزبك رسولا إلى معسكر العثمانيين قرب قيصرية الروم . وجاء بصحبة ماماى قاضى قضاة بروصة ، وهو الشيخ على چلبى ، يحمل تفويضاً لعقد الصلح ، وبيده مفاتيح القلاع التى اشترط قايتباى إرجاعها إليه قبل أية مفاوضة . على أن قايتباى لم يشأ أن يظهر فرحه بهذا التطور نحو الودّ والصداقة بين الدولتين العثمانية والمملوكية ، بعد هذه السنوات الجافية ، واكتفى بأن أخذ فى إطلاق سراح الأسرى العثمانيين بالقاهرة ، ولم يدّخر وسعاً لترحيلهم إلى بلادهم فى أحسن حال . ثم أنفذ قايتباى الأمير چانبلاط — وهو الذى أصبح سلطاناً فيما بعد — إلى بايزيد الثانى ليؤكد له عزمه على إنهاء ما بين الدولتين المملوكية والعثمانية من عداء . أما الشيخ على چلبى فبقى ضيفاً على قايتباى حتى تمّ ترحيل جميع الأسرى العثمانيين ، واتفق الفريقان فى تلك الأثناء على شروط الصلح ، ولم يبرح الشيخ القاهرة إلاّ أواخر سنة ١٤٩٢ م ، صحبة الأمير

ماماى الخاصكى . ورضى بايزيد الثانى بالصلح وشروطه ، لانصرافه وقتذاك إلى مشروع الاستيلاء على مدينة بلغراد .

وفى غضون سنة ١٤٩٤ م ، ذهب إلى إسطنبول رسول مملوكى من عند السلطان قايتباى ، وهو الشيخ عبد المؤمن الفارسى ، لتمكين حسن العلاقات السائدة بين الدولتين العثمانية والمملوكية بهدية حافلة ، من محتوياتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون . ولم يعد الشيخ عبد المؤمن إلى القاهرة إلا أواخر السنة التالية ، لأنه رافق الرسل العثمانيين إلى مدينة نابلى ، حيث استقبلهم شارل الثامن ملك فرنسا غداة استيلائه على تلك المدينة الإيطالية ، وأخبرهم بوفاة الأمير جم فى منفاه الفرنسى .

ثم توفى قايتباى ، وصارت السلطنة لابنه محمد ، فرعى له بايزيد الثانى صداقة أبيه ، وشمل رسوله خاير بك الذى حمل النبأ بالسلطنة الجديدة إلى إسطنبول ببالغ الحفاوة والإكرام . وخاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة العظمى التى أدت إلى زوال الدولة المملوكية على يد العثمانيين فيما بعد ، وربما كانت إقامته فى إسطنبول هذه المرة أول عهده بالدور الخائن الذى كلف مصر استقلالها ومركزها فى الشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى كله لعدة قرون .

وقبل أن يبرح خاير بك إسطنبول ، أوائل سنة ١٤٩٨ م ، وصلت أخبار تنبئ بقتل السلطان محمد بن قايتباى على يد فئة من الأمراء المماليك ، بموافقة خاله قانصوه الذى خلفه فى السلطنة باسم قانصوه الأول . ويبدو أن بايزيد علم بهذه الأخبار وخاير بك فى حضرته يستأذنه السفر ، فصرفه فى غير مجاملة كأنما اتهمه بالمشاركة فى مؤامرة القتل ، وهدد بشن الحرب على السلطان الجديد ، لموافقته على قتل ابن صديقه قايتباى . غير أن قانصوه الأول أرسل رسولا لتبرئة نفسه عند بايزيد ، حتى إذا رجع ذلك الرسول إلى القاهرة صيف ١٥٠١ م كان قانصوه الأول مخلوعاً من السلطنة . ثم جاء إلى السلطنة المملوكية جانبلاط ، ثم طومان الأول ، ثم قانصوه الغورى ، وكل أولئك فى مدة لا تعدو ثمانية عشر شهراً . لكن شاءت المقادير أن يظل قانصوه الغورى على عرش السلطنة المملوكية مدة خمس عشرة سنة ، وأن تشهد السنوات الأولى من عهده انقلاب

الصداقة العثمانية مرة أخرى إلى عداء مستحكم الحلقات .

ومن مطالع ذلك الانقلاب أن قاصداً مملوكياً لم يذهب إلى إسطنبول لإعلام بايزيد الثانى بسلطنة قانصوه الغورى ، وأنه لم يأت أحد من عند بايزيد إلى القاهرة للتهنئة والتبريك بالسلطنة الجديدة ؛ وهذا وذاك على غير المألوف بين دولتين صديقتين . ومرجع ذلك — فيما يبدو — فرار الأمير دولتباى نائب الشام إلى البلاط العثمانى ، عند سماعه بخلع قريبه طومانباى الأول على يد قانصوه الغورى . على أن الغورى لم يحرك ساكناً فى طلب دولتباى ، مما أثار بعض حفيظة بايزيد ، بدليل وصول رسول عثمانى إلى القاهرة أواخر سنة ١٥٠٢ م بشكاية من المتاعب التى يلقاها التجار العثمانيون بالإسكندرية على يد على بن الجود وكيل السلطان ، واهتمام الغورى بتلك الشكاية اهتماماً أدى به إلى إقالة وكيله بالثغر ، وتجريده مما عداها من الوظائف والأموال ، فضلا عن ترضية التجار العثمانيين بإزالة أسباب متاعبهم . وفى مقابل ذلك تسلم الغورى نائبه دولتباى ، وبدت العلاقات العثمانية منذئذ إلى نهاية عهد بايزيد الثانى سنة ١٥١٢ م على أحسن ما تكون من الصفاء ، برغم ما سبق ظهوره فى الأفق السياسى من كدر ، حين صارت السلطنة إلى قانصوه الغورى .

ثم اعتلى سليم الأول عرش بنى عثمان ، وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وفى عزمه توسيع الإمبراطورية العثمانية فى الشرق على حساب الدول المجاورة . ولم يكد ينتهى سليم من بعض المراسيم الدموية التى دأب العثمانيون على تنفيذها ، بقتل أخويه الكبيرين قرقد وأحمد ، وأولادهما وأولاد أخواتهما كذلك تأميناً لعرشه ، حتى اتجه إلى محاربة إسماعيل الصفوى شاه إيران ، لتصفية ما بين العثمانيين والصفويين من مختلف المشاكل ، وهى تصفية لا بد منها لاختلاطها بمسائل السنة والشيعة والسيادة الإسلامية العليا . ووقع المصاف بين العثمانيين والصفويين فى أغسطس سنة ١٥١٤ م ، عند سهل تشالدران الواقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية ، حيث حطم سليم جيش إسماعيل ، وأعقب انتصاره بالاستيلاء فى العام التالى على تبريز ، فضلا عن كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين ، وتبليس وحصن كيفا ، وديار بكر وأورفه ، وماردين والجزيرة ، وجميع الأراضى الجنوبية حتى

الرقة والموصل ، وهى بلاد ذوات علاقات اقتصادية وسياسية قديمة بدولة المماليك. لكن ذلك كله لم يهدم مقاومة الصفويين ، بل ظلت المناوشات بين العثمانيين والصفويين بضع سنين . على أن موضع الأهمية هنا أن هذه الاستيلاءات جعلت العثمانيين قاب قوسين أو أدنى بكثير من أطراف الدولة المملوكية بشرق الشام وغرب الفرات ، وهما ناحيتان هامتان لدولة المماليك فى مصر والشام ، لاعتبارات سياسية واقتصادية ، فضلا عن اعتبارات دينية .

ثم كان أن قضى سليم ، سنة ١٥١٥ م ، على علاء الدولة دلغادر أمير الدولة الدلغادرية المشمولة بحماية السلطنة المملوكية ، إذ استولى على جميع أراضيه بما فى ذلك عاصمته أبلستين ومرعش وغيرهما من البلاد ، وبات العثمانيون على مقربة من الأطراف المملوكية كذلك من ناحية آسيا الصغرى ، أى أن دولة المماليك أمست معرضة للهجوم من ثلاث جهات . وأحسّ السلطان الغورى بالخطر المهدد لإمبراطوريته تهديداً مثلثاً وشيكاً ، على حين كان الشاه إسماعيل يعمل على الثأر من سليم الأول ، ويبحث عن حليف يستعين به ضدّه بين الدول المسيحية والإسلامية سواء ، حتى وجد من السلطان الغورى استعداداً لمؤازرته فى تحقيق أمنيته ، بناء على كتاب ورد إليه من القاهرة على يد الشيخ الشانجقى العجمى نديم الغورى . وحدث وقتذاك أن أحد أولاد الأمير أحمد أخى سليم ، واسمه قاسم ، هرب إلى حلب بناء على اتفاق — أو غير اتفاق — سابق مع نائبها المملوكى ؛ فآواه الغورى . ومن ثم انقلبت الصداقة المشوبة بين العثمانيين والمماليك إلى عداوة واضحة ، وأضحى كل من سليم الأول وقانصوه الغورى يتربص بصاحبه الدوائر ، هذا لاستخفافه بالحماية المملوكية على إمارة دلغادر وضمها إلى إملاكه ، دون مجاملة أو اعتبار ، وذاك لعطفه على الشاه إسماعيل وإيوائه أميراً عثمانياً عنده ، برغم ما فى ذلك من تهديد للعرش العثمانى .

ولا أهمية بعد هذا هنا لمناقشة الآراء المختلفة حول تاريخ التفكير العثمانى فى الهجوم على الدولة المملوكية ، بالقياس إلى أهمية الأخبار المتواترة أوائل سنة ١٥١٦ م بأن إسطنبول قائمة على قدم وساق ، استعداداً لحرب الصفويين فى البرّ والبحر . وصدّق الناس تلك الأخبار على علاتها ، ما عدا الغورى الذى زكن بأن دولة

المماليك هى المقصودة بتلك الاستعدادات ، وأن سليما الأول أذاع قصة إزماع الحرب ضدّ الصفويين من باب التعمية وذرّ الرماد ، فضلا عن الدعاية بأن الدولة العثمانية تعمل دائماً على حرب الشيعة ودولتهم فى إيران . ولم يكن الغورى بعيداً عن كبد الحقيقة فى زكنه وحسابه ، لأنه لا يستقيم عقلا (ولا بد أن خطر له هذا الخاطر) أن يعدّ سليم الأول قوات هائلة فى البرّ والبحر ، وتكون بلاد الصفويين — أو ما تبقى منها — هى المقصودة بتلك الاستعدادات المزدوجة. لذا أخذ الغورى منذ أوائل سنة ١٥١٦ م يعدّ العدة من جانبه ، فطفق أولا على تنظيم مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية ، من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء ، بسبب تأخر رواتبهم. وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة ، مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى ، بسبب استحواز البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها ، منذ أواخر أيام قايتباى . وضاق الغورى ذرعاً بتلك الفتنة ، حتى أنه هجر الدور السلطانية بالقلعة ، واحتجب بقصر المقياس بالروضة ثلاثة أيام ، ولم يرجع إلى القلعة إلا بعد أن تدخل الأمراء بينه ومماليكه ، على قاعدة دفع الرواتب المتأخرة . غير أن الأمور لم تتعدل لمصلحة المماليك السلطانية نتيجة ذلك التدخل ، فعمدوا إلى التهديد بالثورة مرة أخرى ، وغضب الغورى من تلك الحركات الصبيانية والعثمانيون على الأبواب ، فدعا إليه أغاوات الطباق ، وهم رؤساء الثكنات المملوكية بالقلعة ، ووبخهم بقوله " . . . لا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب . . . " .

وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار إلى القاهرة تنبئ باعتزام العثمانيين الهجوم على الأطراف المملوكية ، فلم يبق لدى الغورى ألا أن يترضى مماليكه بصرف المتأخر من الرواتب . ومن ثمّ عكف على الاستعداد للنفير العام ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش ، وفرّق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب ، وأنفذ إلى قلعة قايتباى بالإسكندرية مائتى مكحلة وعدداً كبيراً من المدافع والصوان ، لرمى الأسطول العثمانى إذا هو اقترب من الساحل ، ومقاومة الجيوش العثمانية إذا هى استطاعت أن تنزل إلى البرّ .

وفى السادس من مارس سنة ١٥١٦ م ، وهو الموافق لليوم الأول من صفر من السنة الهجرية (٩٢٤ هـ) ، طلع الخليفة العباسى والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد على العادة ، فطلب إليهم أن يستعدّوا للسفر معه على رأس الجيش إلى حلب . ثم أخذ الغورى فى استعراض العسكر ، فلم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية ؛ وجمع إليه الأمراء ، فلم يستثن من الخدمة منهم إلا الأقلين من الشيوخ والعواجز . وغادر القاهرة أواخر ذلك الشهر أخو علاء الدولة دلغادر وأولاده الذين جاءوا إلى مصر فى حماية السلطان ، منذ وفاة علاء الدولة ، فتوجهوا إلى بلادهم لجمع العساكر من التركمان ، والانضمام إلى الجيش المملوكى عند وصوله إلى حلب . وقبيل رحيل هؤلاء أرسل السلطان إلى مشايخ العربان بأعمال مصر والشام ، ليطلب إليهم المدد من العشير والفرسان للخروج معه .

وبينا يستكمل السلطان تلك الإجراءات التى جعلت أحوال القاهرة تبدو فى نظر ابن أياس " مثل يوم القيامة " ، وصلت رسالة توجب الالتفات من عند خاير بك نائب حلب الذى يرجع اتصاله بالسلطان سليم الأول إلى زمن قبل ذلك لم تستطع تحديده المراجع ، وهو على أية حال ليس أول اتصال من نوعه بين خاير بك والعثمانيين . وملخص هذه الرسالة أن السلطان مخدوع فيما لديه من الأخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، وأنه ليس ثمة شك (وعند خاير بك الخبر اليقين) أن سليما الأول يستعد لحرب الشاه إسماعيل الصفوى . وأضاف خاير بك — من باب السبك لأكذوبته الخائنة — وصفاً طويلا لتاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين ، وذيّله بمعلومات مفصّلة عن القوات التى أعدّها إسماعيل لدفع الزحف العثمانى . لكن الغورى لم ينخدع برسالة خاير بك ، بل استدعى مجلسا حربيًّا لتقليب الأمر مع أمرائه قبل الشروع فى السفر ، وظل المجلس منعقداً منذ الصباح الباكر إلى الظهر ، وانجمع الرأى فى وجوب إرسال حملة كبيرة إلى حلب على أية حال ، استعداداً لما عساه أن يكون ، على أن يصحبها السلطان بنفسه ، ويبقى على رأسها لمراقبة ما سوف تتمخض عنه الحرب (إن حرب وقعت) بين سليم وإسماعيل ، إذ المعقول المنتظر أن يتحول الظافر فيها إلى الهجوم على الأراضى المملوكية بأطراف الشام . وبعد ذلك بأيام وردت على الغورى رسالة من عند

الأمير سيباى نائب دمشق تشير بأنه لا حاجة إلى مسير الجيوش المملوكية إلى حلب ، لأن سليما متجه فعلا بقواته لمحاربة الشاه إسماعيل ، وهو بلا شك بعيد عن التفكير فى الهجوم على الأراضى المملوكية . وسرّ هذه الرسالة أن خاير بك اتصل قبلا بالأمير الطيب القلب سيباى ، حتى أقنعه باستحالة تفكير العثمانيين فى معاداة المماليك غداة تجهزهم لحرب الصفويين ، فرأى الأمير الأمعة النقوع أن يكتب ما كتب إلى السلطان حرصاً على المصلحة العامة . غير أنه لما كان الغورى سيئ الظن بالأمير سيباى ظلماً منذ سنين ، أضافت هذه الرسالة إلى ظنه سوءاً على سوء ، كما أكدّت شكوكه فى نوايا العثمانيين . ولذا لم ينتصف شهر مايو من تلك السنة حتى كانت الجيوش المملوكية على أهبة للخروج إلى الريدانية — بظاهر القاهرة — استعداداً للمسير بقيادة السلطان الغورى إلى الشام .

وقبيل رحيل الغورى إلى المخيم السلطانى بالريدانية ، وصل نديمه العجمى الشانقجى إلى القاهرة ، وأخبر بوصول الفيلة التى كلفه السلطان بمرافقتها إلى حلب لاستخدامها فى القتال ، ولا بد أنه أخبره كذلك بمصير الكتاب السّرى الذى أمره بإيصاله إلى الشاه إسماعيل . غير أن المراجع التى تستمدّ منها هذه الحقبة من التاريخ المصرى لا تذكر شيئاً عن هذا الكتاب السرّى ، أو عن ردّ الصفوى . وإذا كان من المقبول عقلا أن الغورى وعد إسماعيل فى كتابه بالمساعدة إن توجهت الجيوش العثمانية نحو بلاده ، فليس من المعروف ما وعد به الشاه من ناحيته إذا اتجه سليم صوب الأراضى المملوكية ، وهو ما حدث فعلا ، وذلك دون أن يحرك إسماعيل ساكناً من قريب أو بعيد .

ثم لبث الغورى بالريدانية بضعة أيام على العادة قبل الرحيل ، ووصلته هناك رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب ، ومعها كتاب من السلطان سليم الأول . وجاء فى رسالة خاير بك أن رسولاً عثمانياً وفد عليه ونزل فى ضيافته انتظاراً لوصول رغبة السلطان إلى المفاوضة فى الصلح . واشتمل كتاب سليم الأول على كثير من العبارات التى تكفل إدخال السرور إلى قلب الغورى وأمرائه ، وتبعث فى نفوسهم الأمل فى السلام ، لو أن الغورى وامراءه اختاروا أن يكونوا من زمرة البسطاء المجانين . وخلاصة هذا الكتاب العثمانى بعد السلام والإكرام ، وذكر

ألقاب السلطان الغورى وتلقيبه بالوالد ، والدعاء له بطول العمر ، أن سليما لم يهجم على أراضى علاء الدولة دلغادر إلا بإذن السلطان ، وأن علاء الدولة أصل النزاع بين بايزيد الثانى وقايتباى ، مما أدى إلى ما وقع بين الدولتين العثمانية والمملوكية من حروب سابقة ؛ وتسببت عنه أضرار كثيرة لبلاد السلطان ، ولذا فإن موته أجدى على السلطان من بقائه على قيد الحياة . أما على بك دلغادر الذى أقامه سليم بعد علاء الدولة ، فإنه يترك أمر إبقائه أو عزله بين يدى السلطان . وأما تجار الأجلاب المملوكية ، وهم الذين شكا السلطان الغورى من تعويقهم ببعض بلاد آسيا الصغرى ، فالسلطان سليم لم يعوقهم أو يمسهم بأذى ، وإنما هم الذين تضرروا من التعامل بنقود مصر من الذهب والفضة لفسادها وزيفها ، وأنهم هم الذين رفضوا الذهاب بمشترياتهم من الأجلاب إلى القاهرة . ثم ذكر سليم فى كتابه أنه مستعد لإرجاع الأراضى التى أخذها من علاء الدولة ، وأنه يرحب بتلبية جميع ما يطلبه إليه السلطان . غير أن الحوادث دلّت على أن هذه السطور المعسولة لم تكن سوى سلسلة من الأكاذيب التى دبّر نسجها سليم الأول ، وصنيعته الخاسر خاير بك ، ولم يمض يومان على وصول ذلك الكتاب حتى سار الغورى إلى الشام ، بعد أن خلع على طومانباى الدوادار خلعة النيابة عنه فى السلطنة بالقاهرة ، مدة غيبته .

وعند غزة علم السلطان لأول مرة بخيانة خاير بك ، فرفض تصديق التهمة ، بل ردّ صاحبها — وهو سيبباى — ردًّا جافياً ، لأنه لم ينزل عن التشكك فى إخلاصه. ثم وصل السلطان إلى حلب فى يوليه سنة ١٥١٦ م ، واتخذت الجيوش المملوكية من بيوتها مساكن ضاقت بهم وبالحلبيين معاً ، مما كان له أسوأ الأثر فى تطور الحوادث المستقبلة. وجاء إلى معسكر الغورى بحلب رسولان من معسكر سليم الأول بالأبلستين ، وانضما إلى الرسول النازل بضيافة خاير بك ، وطلب الجميع المثول بين يدى الغورى للمفاوضة فى الصلح . وكان سليم بالأبلستين منذ الشهر السابق لوصول الغورى إلى حلب ، وأراد المطاولة بحديث الصلح ريثما تنتظم قواته إلى قوات وزيره سنان باشا الصدر الأعظم . ولم يخف ذلك على الغورى ، غير أنه رأى أن يظهر شيئاً من الرغبة فى السلم ، فاكتفى بالتحدث إلى الرسل الثلاثة فى لطف العاتب على مولاهم إنه اعتدى

على منطقة النفوذ المملوكى ، بالاستيلاء على بلاد دلغادر ، وأن الصلح لا بد منه بين الدولتين العثمانية والمملوكية . وأجاب الرسل بأنهم أتوا من قبل السلطان سليم مفوضين لعقد الصلح الذى يرضى عنه السلطان ، والحقيقة أنهم أتوا لحبك الخطة التى دبرها سليم ، وهى إحاطة الغورى بجوّ من السلامة الزائفة ، حتى يأخذه العثمانيون على غرّة . ولذا تطوّر الحديث إلى الكلام فى هدف الجيوش العثمانية بعد الأبلستين ، فأكد الرسل للسلطان الغورى أن مولاهم لا يريد من الدنيا إلا تدمير قوة الشاه إسماعيل تدميراً نهائيًّا ، ولا يطلب من السلطان سوى البقاء على الحياد أثناء القتال . لكن الغورى بَصُر بما فى قرارة الحديث من غش وخديعة ، فرأى أن يخلع على الرسل خلعاً سنية ، وأن يردّهم إلى سلطانهم بكتاب يعرض فيه التوسط لإصلاح الأمر بين إسماعيل وسليم . وأعقب الغورى ذلك بإرسال الأمير مغلباى كاتم السرّ ، ليؤكد للسلطان سليم رغبته فى الصلح ، واهتمامه للتوسط بينه وبين إسماعيل . ثم ثنى الغورى بأمير آخر اسمه كرتباى ، وأرسل معه هدية فخمة للسلطان سليم ، كما أوعز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع خطبة الجمعة فى المسجد الكبير بحلب حول الأحاديث النبوية التى تحض على عدم النفرة بين المسلمين .

ومع هذا كله استدعى الغورى أمراءه جميعاً ، وحلّفهم على القرآن فى حضرة الخليفة العباسى ، بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة ، مما يدل دلالة واضحة على أنه توقع الشرّ من سليم . ثم أمر الغورى باستعراض الجند بكامل عدتهم الحربية ، وأخذ عليهم أغلظ الأيمان والمواثيق على طريقة المماليك ، بأن جعلهم يمشون فرقة بعد فرقة تحت السيوف المعروشة فوق الرءوس . وخلع الغورى بعد ذلك على قاسم بك ابن الأمير أحمد ، وأعلن حمايته له تحدياً للسلطان سليم .

ولم يكن السلطان سليم فى تلك المرحلة بحاجة إلى التحدى ، كما يكشف عن موقفه ، إذ وردت الأنباء بعد يوم من رحيل كرتباى بأن سليما لم يقبل أن يتوسط الغورى بينه وبين الصفوى ، وأنه ألقى القبض على مغلباى ووضعه مقيداً فى الحديد ، وأنه تحرك بجيشه نحو عينتاب بعد استيلائه على ملطية والبهنسا وكركر . وعلم كرتباى بذلك كله حين وصوله إلى عينتاب ، ورأى طلائع الجيوش العثمانية

وهى تقترب من ضواحيها ، فأسرع راجعاً إلى حلب . أما الغورى فإنه استدعى أمراءه وحلفهم مرة ثانية على الحرب حتى النهاية ، ولم يستطع سيباى أن يحتمل الموقف ، لعلمه أخيراً بأمر خاير بك ، فهجم على خاير بك وأمسك بتلابيبه . وصاح مناشداً الغورى بقوله " يا مولانا السلطان ، إذا أردت أن تنتصر على عدوّك بإذن الله ، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال ". فتدخل چانبردى الغزالى نائب حماة ، وهو شريك خاير بك فى الغدر والخيانة ، ونصح للسلطان بعدم الإصغاء إلى هذه التهم ، لئلا يفتّ ذلك فى عضد سائر الأمراء . ولم يكن الغورى بحاجة إلى النصيحة ، فإنه لم يعتقد ألبتة فى إخلاص سيباى ، وبذا ظل خاير بك حرًّا طليقاً ، ليتم دوره المشين .

وفى تلك الساعات الحرجة وصل مغلباى " فى حال نحس " ، على قول ابن إياس ، " بزنط أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على إكديش هزيل " . وأخبر مغلباى السلطان الغورى أن سليما رفض الحديث فى الصلح وقال له : " قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق " ، وأنه لم يكتف بوضعه فى الحديد فحسب ، كما وصل إلى مسامع السلطان ، بل قصد أن يحلق لحيته ، وقدمه إلى الشنق ثلاث مرات ، لولا شفاعة بعض وزرائه مرة بعد مرة ، ثم حمّله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، إمعاناً فى الإهانة . وكان الغورى قبل قدوم مغلباى لا يصدق أن رسوله تعرض لأنواع الإخراق على يد سليم ، فلما رآه فى هذه الحال علم أن لا مناص من الحرب ، وأصدر أمره بالزحف .

وأول من غادر حلب من الجيوش المملوكية قبائل التركمان بقيادة عبدالرزاق دلغادر الذى أعلنه السلطان أميراً على أبلستين وبلاد دلغادر كلها قبل الرحيل ، ثم تلا ذلك مشاة المماليك ، وتبعها معظم الوحدات الشامية بقيادة الأمراء مقدمى الألوف ، ومنهم سيباى وخاير بك وچان بردى الغزالى . وفى اليوم العشرين من أغسطس سنة ١٥١٦ ، تقدّم الغورى على رأس الحلقة السلطانية ، ولحق بالجيش عند جيلان ، وزحف الجميع صوب قرية زغزغين وتل الفار إلى دابق ، وهى كذلك قرية من قرى بلدة عزاز . وأخذ الجيش المملوكى يرتب صفوفه ، والسلطان الغورى يصدر أوامره استعداداً للمعركة حتى اليوم الثالث والعشرين

من الشهر . وعند مطلع الفجر من اليوم التالى رؤيت العساكر العثمانية على مسافة من دابق ، وفى مقدمتها عدد من المكاحل محمولة على عجلات تجرّها الجند . فلم يؤخذ الغورى على غرة ، بل خرج للقتال ممتطياً فرساً ، وعلى رأسه عمامة خفيفة ، وعلى كتفه عباءة من حرير ، وبيده طَبَر . وركب الخليفة عن يمينه فى ملابس مشابهة ، من عمة وعباءة وطَبَر ، وعلى رأسه علم الخلافة . ومشى حول السلطان جماعة من الأشراف يحملون على رءوسهم أربعين مصحفاً فى أكياس من الحرير الأصفر ، ومن ورائهم جماعة من مشايخ الطرق تحفّ بهم أعلامهم الخاصة . وإلى جانب الخليفة سار الأمير العثمانى قاسم بك تحت علم من الحرير الأحمر ، وعلى مسافة عشرين ذراعاً خلف الغورى رفرف العلم السلطانى ، ومشى تحته مقدم المماليك ، والقضاة الأربعة ، وأمير زردكاش . وكان على رأس الميمنة سيباى الطيّب المفترى عليه ، وعلى رأس الميسرة خاير بك الخائن ؛ وتولى القلب سودون العجمى .

ثم بدأت المعركة بهجوم خاطف قامت به جنود الميمنة والقلب بقيادة سيباى وسودون ضد العثمانيين الزاحفين ، فنزلت بالصفوف العثمانية خسائر عديدة فى الرجال ولا سيما رماة البندق . واستولى المماليك على سبعة أعلام ، وعدد من المكاحل النارية ، حتى إن السلطان سليما فكر فى التقهقر لتنظيم قواته من جديد . وفى هذه الساعة الحرجة أشاع خاير بك بين المماليك القرانيص — وهم الذين ثبتوا للمكاحل العثمانية حتى استولوا على عدد منها — أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسّر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ، ليجزيهم وحدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك كافياً لتثبيط الهمم . وبينا تعمل هذه المظنة عملها المشؤوم قُتل سيباى وسودون ، فولى جنود الميمنة والقلب الأدبار . وتبع ذلك فرار خاير بك من الميدان ، عملا باتفاقه السيئ مع السلطان سليم ، إذ تظاهر بالقتال مدة ، ثم تقهقر بجنوده بعد أن أشاع شائعة أخرى ، وهى أن السلطان الغورى مات قتيلا . وبذا انهارت قوة المماليك ، وتفرقت الجند شذر مذر ، تحت نيران المكاحل العثمانية الباقية . وعبثاً حاول الغورى أن يوقف تيار الفرار ، ونادى فى

الجنود المدبرة " يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة " ، لكن هيهات أن يسمع له أحد ؛ وسرعان ما وجد نفسه وسط المعمعة فى فئة قليلة من الخاصكية . ثم استطاع أمير زردكاش أن يشق طريقه إلى حيث وقف الغورى ، فأخذ العلم السلطانى وطواه وأخفاه ، خشية أن يستولى عليه العثمانيون . ثم تقدم أمير زردكاش إلى السلطان وقال له " يا مولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج بنفسك، وادخل إلى حلب " . وكان لهذه الكلمات وقع شديد فى قلب الغورى ، فأصيب بفالج أبطل جنبه الأيسر وأرخى فمه ، على قول ابن إياس . وطلب السلطان الغورى ماء ، فجاءوه به فى كأس ذهبية شرب منها قليلا ، ثم لوى عنان فرسه ليهرب ، وسار بضع خطوات سقط بعدها عن الفرس إلى الأرض ميتاً ، من صدمة الهزيمة .

وسرت أنباء الفاجعة سريان البرق بين العثمانيين ، فتقدموا فى سرعة قبل أن يستطيع أحد نقل جثة السلطان إلى مكان أمين ، وقضوا على الجنود الذى ظلوا إلى جانب الغورى حتى اللحظة الأخيرة . ثم تقدم السلطان سليم بجنوده واستولى على معسكر المماليك .

لم يبق لدى المماليك الفارين وقتذاك سوى أن يلتجئوا إلى حلب ، غير أن الحلبيين الذين أذاقهم المماليك أنواع الضيق والأذى والقسوة أثناء إقامتهم بحلب ، لم يسمحوا لهم بدخول المدينة ، بل طردوهم عن أبوابها ، ولذا تحولوا صوب دمشق ، فوصلوها حفاة عراة فى أسوأ حال ، وظلوا بها أياماً حتى لحقت بهم أمثالهم من الفلول والمناسر المنكوبة . ومن ثمّ توجهت جموع المماليك المهزومة — ماعدا الأمراء — إلى القاهرة ، فدخلوها أرسالا متقطعة أوائل أكتوبر سنة ١٥١٦ م . وقبل ذلك بشهر تقريباً وصلت أنباء دابق إلى مسامع القاهريين ، وجرت الألسنة بالشائعات والنوائب الداهمة ، وأخذ طومانباى نائب الغيبة يتنقل فى الأحياء والحارات لينشر بين الناس شيئاً من الطمأنينة ، ويدعوهم إلى حفظ الأمن والنظام ، كما لو كان سلطاناً . ثم تحققت أخبار مقتل الغورى من أفواه العائدين من دابق ، فبدا اختيار طومانباى أمراً لا محيص عنه ، واتفق الأمراء الموجودون بالقاهرة على اختياره ، دون أن يفكروا فى سلطنة محمد بن الغورى ، حسبما جرت به سنة المماليك

عند اختيار سلطان جديد . وتمنع طومانباى ثم قبل على العادة ، ونودى به سلطاناً ، فى ١١ أكتوبر سنة ١٥١٦ م .

وفى صباح اليوم التالى وصل چانبردى الغزالى فى فئة من الأمراء الذين تخلفوا قبلا بدمشق ، فاستاء لقيام طومانباى فى السلطنة . وعزم على إتمام الدور الذى بدأه الخائن الأول خاير بك .

وفى هذه الأثناء زحف السلطان سليم جنوباً ، واستولى على كثير من المدن فى غير عناء ، بعد أن شاعت أخبار دابق . فسلمت له حلب دون مقاومة ، وعسكرت جنوده بها ثمانية عشر يوماً فى قوق ميدان ، حيث عسكر الغورى من قبل . ثم استأنف سليم سيره إلى دمشق ، عن طريق حمص وحماة ، فسلمت له دمشق بعد مفاوضة قصيرة قام بها خاير بك نيابة عن العثمانيين . وأقام سليم بدمشق قرابة شهرين ، وأمر ببناء مسجد على قبر الشيخ الصوفى محيي الدين بن العربى ، ولم يترك دمشق حتى أكمله .

وانهالت أخبار هذه الانتصارات على رءوس أهل القاهرة ، وأرجفت الأنباء يوماً بعد يوم بقرب الزحف العثمانى صوب البلاد المصرية . ورأى طومان باى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بالشام ، قبل أن يصلوا إلى الحدود المصرية . لكنه لم يجد من الروح المعنوية بين الأمراء والجند ما يستعين به على تنفيذ هذه الخطة السريعة الرشيدة ، ولا سيما بعد أن صارت البلاد الشامية حتى دمشق بيد العثمانيين . ولذا لم تتحرك أية حملة حربية من مصر إلا فى الثالث من ديسمبر سنة ١٥١٦ م ، وإلا بعد وصول العثمانيين بقيادة سنان باشا الصدر الأعظم إلى قرب غزة — وكل ذلك بسبب المطالب الباهظة التى أصرّ الجنود المملوكية على إجابتها قبل السفر ، مما أدى إلى التأخر فى المسير من القاهرة ، فضلا عن قلة العدد الذى استطاع طومانباى ترضيته بالمال . وكان المأمول من تلك الحملة التى جعل طومانباى على رأسها چان بردى الغزالى أن تصل إلى غزة قبل أن تدهمها الطلائع العثمانية ، لكن العثمانيين وصلوا إليها قبله ، واستولوا عليها بين عشية وضحاها . وعرّج چانبردى عن غزة ، واتجه شمالا يريد بذلك سبك دوره فى الخيانة ، فلقى سنان باشا وانهزم منه بعد قتال هين ، قرب بيسان على مقربة من عين جالوت .

وعلم طومانباى بمصير غزة بعد ثلاثة أيام من رحيل جانبردى من القاهرة ، فعزم على الخروج بنفسه لدفع العثمانيين عن مصر ، وأمر فنادى " أن الزُعر والصبيان والشطار والمغاربة ، وكل من كان مختفٍ على قتل قتيل " يظهر للاندماج فى جيش السلطان ، أملا فى تجهيز أكبر عدد من الجند لهذه الحملة النهائية . وفى الثامن من ديسمبر استعرض طومانباى جنود هذه الحملة من المماليك ، ولم يعف سوى فئة قليلة من الطاعنين فى السن ، وتفقد ثلاثين مركبة خشبية تجرها الثيران وعليها رماة البندق ، كما استعرض جمالا تحمل دروعاً مستحدثة لحماية الرماة الراكبة على ظهورها من نار القذائف العثمانية ، فكان لرؤية تلك المعدات الجديدة أحسن الأثر فى قلوب الجنود .

وبينا تكتمل هذه الجهود الجبارة ، وصل إلى القاهرة رسول على حين غفلة من عند السلطان سليم يخبر برحيله عن دمشق إلى غزة ، ويعرض على طومانباى الصلح بشرط أن يعترف بالتبعية للعثمانيين . وجاء فى رسالة سليم مخاطباً طومانباى " وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا ، فاضرب السكة فى مصر باسمنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات : وإن لم تدخل تحت طاعتنا أدخل (أنا) إلى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة . . . ". ويبدو من الحوادث التالية لوصول هذه الرسالة أن طومانباى لم يكره أن يفاوض السلطان سليما على هذه القاعدة المقترحة ، برغم ما لقيه الرسول العثمانى وأصحابه من سوء المعاملة والإخراق بشوارع القاهرة ، بعد خروجهم من حضرة السلطان بالقلعة ، وبرغم ما امتلأت به أفواه بعض الأمراء — على مسمع من السلطان طومانباى — من عبارات حماسية فارغة جوفاء . وربما قصد طومانباى بذلك المظهر أن يكسب بعض الوقت لإتمام استعداداته للحرب ، أو أنه ضاق بانحطاط الروح المعنوية بين البعض من أمرائه ، على حين نادى البعض الآخر بوجوب الاستعداد للقتال ، فرأى هو أن يتخذ من ذلك الموقف سبيلا إلى إشاعة الحماسة فى القلوب . ذلك أنه ليس من المعقول أن يكون طومانباى جاداً فى إظهار الميل للصلح ، على حين قامت الاستعدادات للحرب بإشرافه على قدم وساق ، كما أنه ليس من المعقول

أن يوافق طومانباى على قتل الرسول العثمانى — وهذا ما حدث فعلا — وفى قلبه ميل إلى الاتفاق على شىء مع السلطان سليم .

أما العجب العجاب هنا ، فهو أن المماليك أظهروا فى تلك الأيام العصيبة جهلا واستهتاراً بخطورة الموقف ، إذ أخذوا فى مساومة السلطان حول النفقة المعتادة غداة الخروج للقتال ، ولم يردهم إلى شىء من العقل سوى منظر إخوانهم العائدين بعد هزيمتهم المحزنة شمالى غزة فى أسوأ حال إلى القاهرة ، أواخر ديسمبر . ومما ساعد على إثارة الأمراء إلى تقدير خطورة الموقف ، أن أخبار وردت بأن أهل غزة هجموا على الحامية العثمانية هناك ، اعتماداً على أنباء كاذبة تخبر بانتصار المماليك لا هزيمتهم فى بيسان ، وأن السلطان سليما انتقم لتلك الفعلة بذبح عدد كبير من الغزيين . ثم وصلت الأخبار بمسير العثمانيين صوب الأراضى المصرية ، فعم الفزع أهل القاهرة ، وخرج طومانباى إلى الريدانية ، وفى نيته السير عنها فى سرعة إلى الصالحية ، على أن يستعرض عندها الجند قبل الزحف لملاقاة العثمانيين ، بعيداً عن القاهرة . غير أن الأمراء أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية والتربص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره ، فأخذ فى تحصين مراكزه عند هذه الضاحية القريبة كل القرب من القاهرة ، وأمر بحفر خندق على طول الخطوط الأمامية من سبيل علان إلى الجبل الأحمر من ناحية ، وإلى آخر غيطان المطرية من ناحية أخرى . ونصب طومانباى على هذا الخندق عدداً من " الطوارق والمكاحل المعمرة بالمدافع " ، على قول ابن إياس ، وصفّ حولها العربات الخشبية التى حملت رماة البندق ، ولابد أنه رتب الفيلة التى بعثها خصيصا من القاهرة ، وجعلها فى مكان صالح للاشتراك فى دفع العثمانيين إلى الوراء...

وفى يوم السادس ... ١٥١ م جاء الخبر إلى الريدانية بأن العثمانيين وصلوا إلى ... ، وهى أول البلاد المصرية . وتتابعت الأنباء بزحف ... تى إذا كان اليوم التاسع

الصالحية، أملا فى مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن الأمراء غلبوه على أمره مرة ثانية، ظنًّا منهم فيما يبدو أن خندقهم فى الريدانية سوف يعصمهم من الهزيمة . ثم ورد الخبر فى الثانى والعشرين باستيلاء العثمانيين على بلبيس والخانكة ، ووصولهم إلى بركة الحاج شمالى الريدانية ، فدبت الحركة فى العسكر المملوكى ، ونادى السلطان بالنفير استعداداً للقتال . غير أن قتالا لم يحدث فى ذلك اليوم لأسباب يعلمها السلطان سليم ، ولم يعلمها طومانباى إلا صبيحة اليوم التالى ، وهو الثالث والعشرين ، حين رؤيت العساكر العثمانية وهى تتحوّل عن الريدانية صوب القاهرة، وحين اضطرت المماليك إلى التحوّل سريعاً للحاق بهم . ونشبت بين الفريقين معركة حامية، اشترك فيها كل من طومانباى وسليم . وثار الغبار حتى عميت الأبصار ، فذبح طومانباى بيده سنان باشا الصدر الأعظم،وفى ظنه أنه قتل السلطان سليما الأول . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك وفرار طومانباى ، بعد أن بقى فى الميدان حتى النهاية . ثم إنه لم يكن ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جانبردى كان متصلا بالخائن خاير بك ، ولم يقنع بإفشاء الخطة المملوكية عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم،مما أدى إلى اجتناب العثمانيين تحصينات الريدانية، بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين .

هذه هى وقعة الريدانية التى قررت مصير الإمبراطورية المملوكية تقريراً ، وليس يوجد فى قصة النهب والسلب ،وما إلى ذلك من الحوادث التى اقترنت بدخول العثمانيين القاهرة بعد ساعات من هذه الوقعة،ما يستحق الذكر ،إلا دفاع طومانباى وكفاحه ضدّ المصير المحتوم . غير أن [illegible] اً عن أن يقوم بشىء لنفسه ، أو لتخفيف الوطأة الع [illegible] مارت القاهرة تحت رحمة العثمانيين ، بل لم يبق [illegible] السلاطين من جنس

من الشاميين المصريين ، ولا سيما البدو من العربان الذين لم يكن بينهم وبين الدولة المملوكية كلها منذ قيامها فى مصر سوى حب مفقود . ومع هذا كله لم يتطرق اليأس إلى قلب طومانباى ، بل ظل يقارع المقادير ، وتواصى بالصبر والشجاعة ، مما جعل أيامه الأخيرة قصة من أروع قصص البطولة فى العصور الوسطى .

أما الجيوش العثمانية ، فإنها دخلت القاهرة صحوة يوم الريدانية (الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م) ، دون أن تلقى مقاومة ، ولكنها أعملت فى أرجائها السيف والنار والدمار . وبينا تعج الشوارع والدروب والحارات بصخب الجنود وتهالكهم على السلب والنهب فى ذلك اليوم ، سمع المصلون خطباء الجمعة يدعون للسلطان العثمانى سليم الأول من منابر القاهرة ، حيث ترجم له بعض الخطباء فى خطبته ، فقال : "وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ..". ومن الواضح أن هذا الدعاء – إن صح جريانه على ألسنة بعض خطباء هذه الجمعة – اشتمل على ما سوف يقوم به العثمانيون من الفتوحات بعد استيلائهم على مصر والشام ، مما يدل على أنه ربما أوحى به إلى الخطيب للدلالة على ما عزمت السلطنة العثمانية على تنفيذه ، أو أن ابن إياس لم يكتب حوادث الفتح العثمانى فى تاريخه الكبير إلا بعد سنين .

وفى اليوم الخامس والعشرين من يناير سنة ١٥١٧ م نقل سليم معسكره من شمالى الريدانية إلى جهة بولاق ، مفضلا إياها على القلعة ، وجعل مركز قيادته قرب الموضع الذى تقوم عليه المطبعة الأميرية فى العصر الحاضر . ثم دخل سليم القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر ، فشق المدينة فى موكب حافل يتقدمه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين . وسار الموكب حتى باب زويلة (بوابة المتولى الحالية) ، ثم عرج من تحت الربع عائداً إلى بولاق . غير أن طومانباى لم يدع صاحبه طويلا ، بل بغت المعسكر العثمانى ذات ليلة مظلمة ، تمهيداً لمعركة أعد لها ما استطاع أن يجد من بواقى المقاومة المملوكية . لكن سليما أفسد عليه خطته ، وأخرجه منهزماً فاراً من القاهرة ، فى اليوم الحادى والثلاثين ، بعد قتال ظل محتدماً بين الفريقين ثلاثة أيام ؛ وهذه هى وقعة الصليبة . ثم

أعقب العثمانيون هذه الوقعة بحرائق ومذابح هائلة فى أنحاء القاهرة ، وهى حرائق ومذابح سماها ابن إياس " المصيبة العظمى " التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان . والتجأ طومانباى إلى البهنسا فى الصعيد، وأخذ منه التعب كل مأخذ، ففكر فى الصلح ، وأرسل إلى السلطان سليم يعرض عليه استعداده للاعتراف بالسيادة العثمانية ، مع دفع الجزية التى يطلبها إليه السلطان، على شرط أن يجلو العثمانيون عن البلاد حتى الصالحية ، " وإن كنت ما ترضى بذلك اخرج ولاقينى (كذا) فى بر الجيزة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء منا " .

ولم يكن السلطان سليم معترضاً على الصلح بهذه الشروط فيما يبدو ، أو أنه أراد – بعد أن استقرّ أخيراً بالقلعة وتحصن بها – أن يمدّ لطومانباى حتى يلقى بنفسه إلى تهلكة . وكيفما تكون الحقيقة، فإن السلطان سليما كلف الخليفة والقضاة الأربعة أن يذهبوا مع وفد عثمانى برياسة رسول اسمه مصلح الدين لمفاوضة طومانباى فى الصلح ، وأمدهم بصورة أمان ومطالعة جاء فيها على لسان سليم إلى طومانباى : " ولا تحسب إنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز . . . ؛ وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين " . غير أن الخليفة لم يشأ أن يسهم فى ذلك السعى ، فأناب عنه دواداره للذهاب مع المفاوضين . أما طومانباى فإنه سمح للأمراء بالتغلب عليه فى السلم، كما تغلبوا عليه قبلا فى الحرب ، وشككه أحدهم واسمه شادى بك فى نيات سليم ، حتى إنه ترك الأمراء يفعلون ما يشاءون . وترتب على ذلك أن حيل بين المفاوضين وطومانباى ، إذ اعترضتهم طائفة من جند المماليك ، فقتلت العثمانيين وأحرقت بالدوادار الخليفى والقضاة الأربعة إحراقاً شنيعاً . وانتقم سليم لتلك الفعلة بقتل عدد من الأمراء الذى سلموا له بالأمان عند دخوله القاهرة ، وأقسم أنه سوف يسير إلى طومانباى ويقتفى أثره، ولو كان " فى آخر الدنيا " .

ولم ينتظر طومانباى ما سوف يقوم به السلطان سليم بعد وصول أخبار وفد الصلح ، بل تقدم نحو الجيزة كما أنذر إذا فشلت المفاوضات، فوصلها فى جمع كبير . ووجد طومانباى أن العثمانيين معسكرون عند بركة الحبش فى الجهة المقابلة منها للنيل ، وعلم أنهم يتأهبون للعبور إلى برّ الجيزة ، فعزم على

إغراق المعادى العثمانية كلما وصلت واحدة منها إلى البرّ ، وأنزل بها خسائر فادحة فعلا ، حتى أمر سليم بإيقاف العبور . ثم تلا ذلك معركة ترامى فيها الفريقان من ضفتى النيل بالنبال ورصاص البنادق . وفوجئ طومانباى أثناء ذلك بهجوم البدو على مؤخرته، فاضطر إلى التقهقر إلى طريق الأهرام . عند ذلك عبر العثمانيون النيل على جسر من القوارب ، والتقوا أخيراً بجيش طومانباى على مقربة من وردان ، أول إبريل سنة ١٥١٧ م ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ظلت يومين ، وكاد الأمير شادى بك يوقع الهزيمة بفرقة من العثمانيين ويلقى بها إلى الماء ، غير أن هذه المعركة انتهت بانتصار العثمانيين .

وتمكن طومان من الهرب لثالث مرة ، والتمس الحماية لدى شيخ من شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية اسمه حسن بن مريم ، لما له عليه من يد بيضاء حين أخرجه من غيابة السجن من الغورى . لكن حسناً هذا جحد الفضل القديم ، وأخبر عن دخيله طومانباى خوفاً من العاقبة ، أوكرها فى المماليك ؛ ولذا لم يجد طومانباى مفرّاً من التسليم . ووصلت أنباء ذلك إلى أتباعه ففقدوا الأمل فى مقاومة العثمانيين ، وتفرقوا بدداً . ثم جيء بطومانباى مقيداً فى الحديد إلى الحضرة السلطان العثمانية بالجيزة ، فقام له سليم عند دخوله ، وعتب عليه مقاومته الطويلة " ببعض كلمات " ، على قول ابن إياس ، ثم اتهمه بقتل المفاوضين إشارة لما سوف يلقى طومانباى كذلك من القتل . غير أنّ طومانباى لم يتهدم أمام سليم ، بل ظل رابط الجأش حافظاً لهيبته ، فنفى عن نفسه تهمة الاشتراك فيما وقع للمفاوضين ، وشرح عدالة موقفه فى غير خوف أو خشية ، كما تكلم فى واجبه الحربى وشرف استقلال بلاده ، حتى ملأ السلطان سليما إعجاباً به ؛ وبدا للحاضرين كأنما يكاد سليم يأمر بالإبقاء عليه ، أو كما قال ابن إياس . وسرت بين الناس بعد ذلك إشاعة أن السلطان يفكر فى أن يأخذ طومانباى معه إلى القسطنطينية ، أو يرسله منفياً إلى مكة مدة حياته ، لكن خايربك وجانبردى أقنعا السلطان بأنه طالما بقى طومانباى على قيد الحياة ، فسوف يظل الحكم العثمانى بمصر والشام فى خطر شديد ، فانصاع سليم لتلك المقالة ، وأمر بإعدام طومانباى .

وفى اليوم الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٥١٧ م — وهو يوم الخماسين

تلك السنة ، أخرج طومانباى من سجنه ببرّ إنبابة فى حرس عدته أربعمائة من الجند ورماة النفط ، فحمل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة . وأخبره أحد الجند صبيحة ذاك اليوم عند باب السجن بقرار السلطان ، فلم يظهر خوفاً أو اهتماماً ، بل سار وسط الحرس رافع الرأس ، وجعل يسلم على الناس طول الطريق ، حتى إذا وصل إلى باب زويلة ، وأنزله الحرس عن الفرس ، وأرخى له المشاعلى حبل المشنقة ، دعا طومانباى للملأ أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثاً ، وبسط يده إلى السماء وقرأ عن نفسه فى صوت مسموع ، وقرأت الناس معه . والتفت طومانباى بعد ذلك إلى المشاعلى وقال له " اعمل شغلك ". ثم وضعت الحية فى رقبة طومانباى ، وشُدّ الحبل ، ولكنه انقطع ، فسقط آخر سلاطين مماليك مصر والشام ميتاً على عتبة باب زويلة . وقيل انقطع به الحبل مرّتين ، وهو يهوى إلى الأرض ثم يعلّق حتى مات . وظلت جثة طومانباى معلقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان قانصوه الغورى لنفسه .

ولابن إياس فى وصف الأيام الأخيرة من حياة طومانباى عبارات ملؤها الحزن على ما صارت إليه مصر من التغير ، بعد ذهاب الدولة المملوكية ومجىء العثمانيين ، على أنه لم ير فى ذلك التغير شيئاً إلا ما جرت به المقادير التى ليس لإنسان عليها سلطان ، وإنما حزّ فى نفسه أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله " أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحامى مُلك مصر الذى افتخر به فرعون . . . ".

محمد مصطفى زيادة

السودان والحبشة

لقد ساءلت نفسى كثيراً عن الموضوع . . . هل أتناول السودان والحبشة من الناحية الجغرافية وهو أمر طبيعى من متحدث أنفق نصف عمره أو أقل قليلا فى الجغرافية دراسة وتدريساً . . . أم أتحدث عن تاريخ السودان والحبشة ؟! وهذا ما ينتظر فى جلسة علمية تدعو إليها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ثم هبنى تحدثت فى الجغرافية أو التاريخ ؟ أو هبنى تناولت الناحيتين معاً فأى الحبشة تعنينى ؟ هل هى الحبشة كإقليم له شخصيته الجغرافية المستقلة وله من الخصائص والمميزات ما يعزز هذه الشخصية — أم هى الحبشة كوحدة سياسية تمتد خارج حدودها الطبيعية حيناً وتقصر دونها أحياناً ؟ ثم أى الوحدات السياسية أقصد . . . هل هى الدولة الحبشية بحدودها الراهنة أم هى الدولة الحبشية تتغير حدودها فى فترات التاريخ ؟ وأى سودان . . هل هو السودان كما نعرفه الآن — أم هو السودان فيما قبل الاحتلال البريطانى وقد امتد فشمل جهات تدخل اليوم فى حدود الأراضى الحبشية وجهات أخرى فيما وراء تلك الحدود — أم هو السودن القديم قبل أن تقوم فيه دولة موحدة على عهد محمد على تجمع بين أطرافه وتوحد بين جهاته ؟

كل هذه أسئلة طافت بذهنى — وحاولت أن أجيب عليها فتلخص جوابى فى أمر واحد هو الاحتماء بواو العطف التى تبيح ولا تقيد — وتوسع ولا تضيق — فكان حديثى فيه من هذه النواحى جميعاً — أمسها مساً خفيفاً وأتناولها بمقدار . أتناول الجغرافية والتاريخ ولا أهمل السياسة أو الاقتصاد .

* * *

ولابد لنا أن نقدم بين يدى هذه الموضوعات جميعاً حديثاً موجزاً عن جغرافية الحبشة الطبيعية ومعذرة إذا امتاز هذا الحديث بالجفاف والخشونة — فما كانت الجغرافية الطبيعية — مهما أدبناها — مما يستساغ محاضرة أو يستطاب حديثاً .

ولكن يهون علينا أن سنكتفى بإعطاء صورة عامة عن الأرض التى عليها الحبشة دون أن نوغل فى التفصيل أو نسرف فى وصف التضاريس .

والمظهر الطبوغرافى للحبشة مما يلفت النظر . فهى هضبة تمتد بين خطى عرض ٤° و ١٨° شمالاً وبين خطى طول ٣٤° و ٤٠° شرقاً . وهى فى مجموعها ليست عظيمة التضرس بل أن سطحها أقرب إلى الاستواء وأن تكون بعض جهاته قد ترتفع فتكون جبالا عالية وخاصة فى الأجزاء الشمالية من إقليم « سمين » حيث توجد جبال أبو جريد وبواحيث ورأس داشان وتتجاوز جميعاً الأربعة آلاف متر فى الارتفاع . وبين بحيرة تانا ونهر الآباى تمتد هضبة الشوك التى يبلغ متوسط ارتفاعها نحو الألفى متر . وطبيعى أن تختلف أشكال هذه المرتفعات باختلاف الصخور المكونة لها — فهى قمم عالية وعرة الانحدار إذا كانت صخورها نارية أركية — وهى أقل ارتفاعاً وجوانبها ألطف انحداراً إذا كانت صخورها رسوبية أو متحولة .

ومن أهم الظاهرات الجغرافية فى الهضبة بحيرة تانا التى تقع على مستوى ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر . ولا تتوسط الهضبة بل تقع قريباً من حافتها الغربية التى يبلغ علوها ٢٣٠٠ متراً . ومن ثم كان لابد للمسافر من بحيرة تانا إلى السودان أن يرقى هذا الارتفاع بعد مسيره بضعة كيلومترات ثم يهبط بسرعة إلى ارتفاع ١٢٠٠ متراً — وبعد ذلك يتدرج فى الهبوط إلى سهول السودان .

ويحيط بالهضبة الحبشية إطار جبلى يمكن تتبعه بوضوح فى الناحية الشرقية فى سلسلة من الجبال تبدأ من جنوب سواكن بنحو ١٥٠ ك.م. وتمتد لمسافة ٣٢٠ ك.م. على طول ساحل البحر الأحمر حتى مصوع ثم تنحرف إلى الجنوب لمسافة ٧٠٠ ك.م. تقريباً حتى تصل إلى منطقة أديس أبابا . هذا الحائط الجبلى ينحدر من ارتفاع ٢٠٠٠ أو ٢٥٠٠٠ متر إلى البحر إلى سهول الدناكل . وفى جنوب أديس أبابا لا يظهر هذا الحائط واضحاً ولكنه على العموم يستمر فى اتجاهه الجنوبى حتى يصل إلى بحيرة رودلف أو قريباً منها . . . ويجابه هذا الحائط فى الشرق كتلة جبلية أخرى تكون بلاد العروس ومنها تمتد سلسلة جبلية هى جبال هرر التى تمتد شرقاً حتى خليج عدن وتنحدر تدريجياً إلى

سهول الصومال حيث تكون الحدود الشمالية للصومال الإيطالى « سابقاً » .

أما فى الغرب فيحيط بالهضبة قوسى جبلى طرفه الشمالى فى منطقة البحر الأحمر والجنوبى فى منطقة بحيرة رودلف وظهره إلى أراضى النيل وينحدر على شكل مدرجات غير منتظمة حتى ينتهى إلى الأراضى النيلية ولكنه على أى حال ألطف من الانحدار فى الشرق حيث يكون الانتقال من الهضبة الحبشية إلى منخفض الآقار وأراضى الصومال انتقالا فجائياً .

ولما كان انحدار الهضبة بصفة عامة إلى الغرب فإن معظم مياهها تنصرف فى هذا الاتجاه . ولا يوجد سوى نهر واحد ينحدر شرقاً هو نهر « هواش » الذى يجمع مياهه من منطقة أديس أبابا ثم يشق طريقه إلى خليج عدن ولكنه يضعف عن أن يصل إليه فينتهى به المطاف إلى المنافع التى تقع إلى القرب من جيبوتى ... ولا ينحدر من الهضبة إلى الجنوب سوى نهر واحد أيضاً هو نهر « أومو » الذى يصب فى بحيرة رودلف . وهناك نهران آخران لا ينبعان من الكتلة الحبشية الرئيسية وإنما من مرتفعات العروسى ويتجهان جنوباً وهما نهر جوبا الذى يصل إلى المحيط الهندى ونهر وبى شبيلى Webbe Shibeli الذى يقطع مرحلة طويلة ويوازى الساحل لمسافة بعيدة ولكنه يعجز عن الوصول إلى المحيط فيفقد نفسه فى الرمال غير بعيد من الساحل .

ولكن أهم الأنهار الحبشية فى الواقع هى التى تنحدر إلى الشمال الغربى فتدخل فى حوض النيل وهى تكازى فى الشمال ويحمل اسم عطبرة فى مجراه الأدنى والسوباط فى الجنوب وبينهما أهم الأنهار الثلاثة وهو نهر الأباى أو النيل الأزرق ويخرج من بحيرة تانا ثم يكون قوساً كبيراً حتى يخرج إلى سهول السودان . . . وهناك نهر رابع ينحدر من الهضبة ولكنه لا يستطيع أن يحمل مياهه إلى النيل الأعظم فيلقى بها وبما تحمل من رواسب فى السهول التى تشرف عليها الهضبة فى الشمال الغربى مكوناً دلتا فيضية مروحية حول كسلا .

ولقد أدى ارتفاع هضبة الحبشة إلى تمتعها بمناخ معتدل بالرغم من قربها من خط الاستواء . فهى أقل حرارة إذا قورنت بسهول الدناقل أو الصومال التى تحف بها من الجنوب والجنوب الشرقى — ومن صحارى النوبة أو منخفضات

النيل الأعلى التى تحدها من الشمال الغربى والغرب . كذلك أدى بها الارتفاع ونظام الرياح السائدة إلى أن تتمتع بقسط وافر من المطر الأمر الذى يميزها مرة أخرى عن الجهات المحيطة بها فبلاد الدناكل والصومال أراضى جافة أو شبه جافة — أما بلاد النوبة فصحراء حقيقية تتمثل فيها بجلاء كل مميزات المناخ الصحراوى . ولا توجد منطقة مما يحيط بالحبشة وتدانيها إلى حدما فى كمية المطر الساقط سوى جهات النيل الأعلى إلى الجنوب الغربى من الهضبة .

واضح من هذا أن مظاهر التضاريس فى الهضبة الحبشية وظروف المناخ السائدة فيها تجعلها تختلف كل الاختلاف عن جميع الأقطار المحيطة بها وتمنحها شخصية جغرافية مستقلة تقوى فيها الشعور بالعزلة وتطبع تاريخها بطابع خاص مميز . ففى العصور القديمة كانت الهضبة صعبة المنال إلى حد كبير ولم يكن وصول الناس إليها سهلا ميسراً — وبصفة خاصة أولئك الذين يقصدونها بسوء — ولم يكن فى استطاعة التجار أن يتوغلوا فيها إلا برضاء أهلها وبمعونتهم . وكان فى مقدرة الأحباش دائماً أن يقضوا على أى دخيل وهو يجتاز إلى بلادهم الممرات الضيقة أو يرتقى المنحدرات الوعرة . وكانت الهضبة أشبه بالحصن المنيع حوائطه السلاسل الجبلية والحافات العالية ذات الجوانب الرأسية القائمة فى معظم الأحوال والتى لا يقطعها إلا عدد من الممرات لا يدرى بخباياها إلا الأحباش أنفسهم — الذين كان فى استطاعتهم أن تهبط الآلاف منهم بسهولة إلى السهل الساحلى على البحر الأحمر فى الشرق أو إلى أراضى سهول السودان فى الغرب . وبعد أن يتموا الوطر من إغاراتهم يعودون فى سهولة ويسر إلى قواعدهم فى المرتفعات دون أن يستطيع أحد أن يتعقبهم .

ولقد عاش الأحباش طويلا فى جبالهم الوعرة المنعزلة . وكان طريق اتصالهم الوحيد مع مراكز الحضارة القديمة فى حوض البحر الأبيض هو موانى البحر الأحمر . ولم يكن الطريق البرى الذى يعبر صحراء النوبة ذا أهمية تذكر وعن طريق موانى البحر الأحمر كانت الحبشة تصدر حاصلاتها الطبيعية أو حاصلات الأقطار المتصلة بها تصدر الذهب والعاج والتوابل وتصدر عطور الصومال ورقيق النيل الأعلى ثم البن فى عصر أحدث من إقليم كافا موطنه الأصلى فى مرتفعات الجنوب .

وعن طريق موانى البحر الأحمر كانت الحبشة تستورد المواد المصنوعة من بلاد البحر الأبيض المتوسط ومعها الإشعاعات الرئيسية للحضارات المحيطة بذلك البحر . وعن هذا الطريق جاء الغزاة الأول من بلاد العرب الجنوبية أولئك الذين حملوا اللغة والكتابة الحبشية — والذين أسسوا مملكة أكسوم أقدم الممالك الحبشية التى نعرف طرفاً من تاريخها — وعن هذا الطريق وصل النفوذ البطلمى فى القرن الثالث قبل الميلاد حينما أرسل بطليموس الثانى والثالث البعوث لارتياد سواحل البحر الأحمر فأنشأت بعض المراكز التجارية وكان من أهمها برينيس التى قام فى مكانها فيما بعد ميناء زولا Adulis المنفذ الرئيسى لمملكة أكسوم وحلقة الوصل بينها وبين مصر . وعن طريق هذا الاتصال وفدت المسيحية إلى سواحل البحر الأحمر ومنها تسربت إلى الحبشة على يد القديس فرومنتيوس Frumentuis الذى نجح فى نشرها فى أكسوم فى أواخر القرن الرابع .

ولكن هذا الطريق الوحيد أمام الحبشة لم يكن مأموناً دائماً — بل كثيراً ما انقطع واضطرت الحبشة إلى العزلة الكاملة عصوراً طويلة خصوصاً بعد ظهور الإسلام وعبوره إلى الشط الأفريقى ولم يكد ينتهى القرن الثامن حتى كان الساحل الحبشى كله تحت السيطرة الإسلامية . وأصبحت الهضبة جزيرة مسيحية فى وسط عالم مسلم أو وثنى ولم يعد لها مجال للتوسع إلا فى الجنوب حيث تضعف الحواجز الجبلية بعض الشيء فانتشرت المسيحية فى هذا الاتجاه إلى كوجام ولستا Lesta وأجهرة وشوا . غير أن هذا الباب الجنوبى الأقل مناعة كان الطريق الذى سلكته عناصر الجالا فى هجراتها المتعددة إلى الهضبة منذ القرن الرابع عشر كما سلكته الغزوات الإسلامية التى قام بها الأمير محمد الغرنى فى القرن السادس عشر .

وعن طريق البحر الأحمر أيضاً اتصلت الحبشة بأوربا فى القرن الخامس عشر وأصبح لها علاقات دبلوماسية مع البرتغال ووفد عليها الرحالة والمستكشفون . ولكن العزلة الطويلة التى عاشت فيها الحبشة تركتها تنظر إلى هذه الاتصالات نظرة ريبة وحذر ولذلك ظلت وأبوابها مغلقة أمام الأجانب إلى حد كبير .

فلا غرابة إذن أن يظل الأحباش يفخرون بأن بلادهم لم تغز . وقد ظلت لهم هذه المنعة حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حينما هزمهم الإنجليز فى مجدالا سنة ١٨٦٧ . ولكنهم استردوا فخرهم فيما بعد حينما هزموا الطليان فى عدوة هزيمة منكرة . . .

هذه الأمثلة الكثيرة والشواهد العديدة التى سردتها أردت أن أوضح بها حقيقة عامة هى أن التوجيه الجغرافى للحبشة كان دائماً نحو الشرق أى نحو البحر الأحمر ولم يكن نحو الغرب إلا فى النادر وظلت الحبشة دائماً تولى ظهرها نحو حوض النيل . ولكنها وإن تكن قد نجحت فى هذا السبيل من الناحية البشرية إلا أنها لم تكن كذلك من الناحية الطبيعية فقد لعبت المياه المنحدرة منها دوراً خطيراً فى حياة النيل وبالتالى فى حياة السودان أكبر الأقطار الممثلة فى حوضه فوادى النيل وإن يكن قديماً نسبياً فى مصر إلا أنه لم يكن على صلة بالمياه الحبشية وبما تحمله من طمى ــ وإنما تم هذا الاتصال فى وقت متأخر لا يرجع إلى أكثر من ٣٠ ألف سنة ــ ولا يعنينا هنا أن نتناول الطريقة التى تم بها هذا الاتصال بقدر ما تعنينا النتائج الخطيرة التى ترتبت عليه إذ كان اتصال النيل الأزرق بالنيل النوبى المصرى أهم مرحلة فى تطور نهر النيل على الإطلاق ترتب عليها التطور الذى شهدته أراضى السودان ومصر كمناطق يمكن أن يعيش فيها الإنسان وأن تقوم فيها الحضارة ولو لم يتم هذا الاتصال . لظل النيل النوبى ــ المصرى يستمد مياهه من مرتفعات البحر الأحمر حتى إذا ما قلت مياه هذه المرتفعات كما هو حادث فعلا جف النهر وأصبح وادياً كالأودية الجافة الكثيرة التى تحرقها فى صحراء مصر الشرقية ــ ولظلت سهول الجزيرة قلب الحياة الاقتصادية فى السودان إما تحت مياه بحير السد فى رأى ــ أو منطقة جافة أو شبيهة بالجافة تكمل سهول دارفور وكردفان .

ولا تزال الهضبة الحبشية تلعب دورها الخطير فى مائية النيل حتى يومنا هذا ــ فالإيراد السنوى للنيل الأزرق يبلغ ٥٠ مليارم٣ ــ وللسوباط ١٤ مليار وللعطبرة ١٢ مليارم٣ ــ أى أن هضبة الحبشة تمد النيل سنوياً بـ ٧٦ مليار متر مكعب أى نحو ٧٢ ٪ من إيراده العام .

وللهضبة الحبشية تأثيرها على مناخ السودان وخاصة فيما يتعلق بكمية المطر — وهو عامل اجتماعى له أثره العظيم فى التنظيم الاجتماعى وفى الحياةالاقتصادية . والناظر إلى خريطة خطوط المطر المتساوية فى السودان أو خريطة لأقاليمه النباتية يجد أن هذه الخطوط تسير متوازية من الغرب إلى الشرق حتى تجابه الهضبة الحبشية فتتجه إلى الشمال متأثرة بالظروف المناخية السائدة فى الهضبة — وتظهر هذه الحقيقة حينما تقارن بين بلدين على خط عرض واحد إحداهما على حدود الحبشة والأخرى فى وسط السودان . فكسلا والخرطوم على خط عرض واحد ولكن أمطار كسلا ٣٢٧ م.م فى السنة بينما أمطار الخرطوم ١٦٣ م.م والقضارف وواد مدنى — أمطار الأولى ٦٨٥م.م والأخرى ٤٠٤ م.م والروصيرص والرنك — الأول ٧٦٨ م.م . والأخرى ٥١٣ م.م. . وهذه الأرقام جميعا تؤكد مبلغ تأثر مطر السودان الشرقى بظروف الهضبة الحبشية .

ولكن هضبة الحبشة لم تلعب مثل هذا الدور الخطير فى الجغرافية الحبشية لسكان السودان بل على العكس كان موقفها سلبيا أكثر منه إيجابى . . . فالسودان الآن تتنازعه السلالات القوقازية من الشمال والسلالات الزنجية من الجنوب . وهذه العناصر الأخيرة أقدم فى أفريقية وقد وصلت على دفعات . ونحن وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد من أين جاءت هذه العناصر الزنجية وما هى أوطانها الأساسية إلا أنها على أى حال كانت فى مكان ما فى أطراف الجزيرة العربية الجنوبية . ثم دخلت أفريقية عن طريق باب المندب وهنا بدأت هضبة الحبشة بظروفها الطبيعية تلعب دورها فتحول دون توغل هذه العناصر إلى الشمال وتحتم عليها أن تتوجه جنوباً فتنتشر فى أفريقية الوسطى والجنوبية ولا تصل إلى أراضى حوض النيل إلا فى فترة متأخرة بعد أن استقر بها الحال فى تلك الأوطان الأفريقية الجديدة .

ثم كانت الموجة الكبرى الثانية التى وصلت إلى أفريقية والتى جاءت أيضاً عن طريق باب المندب وحملت العناصر الحامية فعمرت بها بلاد الصومال والجلا والدناكل وامتدت فى شرقى أفريقية وإلى إقليم بحيرة رودلف وفى الفترة التى انقضت بين دخول الزنوج ودخول الحاميين كانت الأجزاء الشرقية من بلاد

الحبشة أو بمعنى آخر منخفضات أريتريا قد جفت مستنقعاتها مما سهل على هذه العناصر أن تتجه نحو الشمال إلى جهات البحر الأحمر ووادى النيل الأدنى الأمر الذى لم يتيسر للعناصر الزنجية من قبل كما استطاعت أيضاً أن تصل إلى الهضبة الحبشية نفسها . . . معنى هذا أن بلاد الحبشة التى حاولت دون توغل الزنوج فى السودان ووقفت فى سبيل ذلك موقفاً إيجابياً نجد أنها تقف موقفاً سلبياً فيما يختص بالحاميين — فلا هى حالت بينهم وبين الانتشار فى السودان — ولا كانت وسيلة ساعدتهم فى هذا الغرض . . . لقد داروا حولها فى الشرق والشمال حتى وصلوا إلى السودان وتركوا آثارهم فى جماعات البيجاة وفى النوبيين .

ومضت قرون عدة — ثم حدث أن وفدت عناصر سامية من بلاد اليمن عبرت البحر إلى أفريقية وكان من أهمها قبيلة الحبشات وجاء معهم أو ربما بعدهم عدد آخر من القبائل العربية . وقد وجدت هذه القبائل السامية أن العناصر التى توطنت أفريقية لا تزال على حالتها البدائية فحملت إليها نور الحضارة وبنوا المساكن بالأحجار وعلموهم طرقاً جديدة فى الزراعة بتدريج المدرجات وإقامة الخزانات لحجز المياه وهى مظاهر حضارية عرفتها من قبل سبأ وغيرها من من جهات الهضبة اليمنية التى لا تختلف إلا اختلافاً طفيفاً عن الهضبة الحبشية .

استقرت هذه العناصر فى الحبشة — ولم تفكر فى الانحدار إلى سهول السودان — ولو أنها أرادت ذلك لما تعذر عليها — فالهبوط من الهضبة سهل بعكس الصعود إليها — ولكن هذه الجماعات لم تكن فى حاجة ماسة إلى هذا الهبوط فأوطانها الجديدة أحسن جواً وأغزر مطراً وأخصب تربة من سهول السودان المجاورة — ومن ثم كانت هذه المؤثرات السامية بمعزل تام عن المؤثرات السامية الأخرى التى لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ السودان الجنسى . فلم تؤثر فى السودان ولم يتأثر بها السودان .

وكل من السودان والحبشة كوحدة سياسية حديث التكوين . فقد كانت الحبشة فى أوائل القرن التاسع عشر مسرحاً للحروب بين حكام المقاطعات الأربع المكونة لها (نيجرى — أمهره — جوجام — شوا) ولم يكد ينتصف القرن حتى اختفى من الميدان اثنان من هؤلاء الحكام هما على رأس جوندار وجوشو

Goshu رأس جوجام وكان المنتظر أن يصفو الجو لأحد الباقيين ولكن الذى حدث أن ظهر على مسرح الحوادث وجه جديد يمثله الرأس كاسا الذى أصبح فى سنة ١٨٥٤ حاكماً لجوندار وجوجام معاً ثم استطاع فى السنة التالية أن يتوج ملكاً للملوك الحبشة باسم ثيودور وأن يستولى على شوا فى سنة ١٨٦٠ وأن يخضع عناصر الجلا فى الجنوب – وبذلك توحدت الحبشة ولكن الانقسام عاد فتجدد فى السنوات التى تلت انتحاره فى مجدلا سنة ١٨٦٦ حينما تأكد من هزيمته أمام القوات البريطانية وانقسمت البلاد بين الإمبراطور يوحنا الرابع فى الشمال ومنليك ملك شوا فى الجنوب – فلما نقل الأول فى واقعة القلابات على عهد المهدية استطاع منليك أن يعلن نفسه إمبراطوراً على الحبشة الموحدة فى سنة ١٨٨٩ باسم الإمبراطور منليك الثانى .

ولا يختلف السودان عن ذلك كثيراً فقد قامت فيه دول وإمارات متفرقة كان من أهمها دلتا دارفور فى الغرب وسنار فى الشرق وتهمنا الأخيرة هنا أكثر مما تهمنا الأولى فقد كانت مشتركة فى حدودها مع الحبشة وقد حدث احتكاك بين الدولتين فى عهد بادى شلوخ إذا انحدر الأحباش من هضبتهم بقيادة مليكهم أياسوس الأول فى سنة ١٦٩٠ واكتسحوا أراضى شرقى النيل الأزرق ووصلوا قبالة عاصمة الفونج وكادوا أن يقضوا على الدولة لولا أن قيض الله لها أميراً دارفورياً كان قد لجأ إلى سنار فقاد الجيش واستطاع أن يرد الأحباش بعد أن كلفهم خسائر فادحة .

وفى عهد محمد على اتسعت مصر جنوباً فتوحد بمجهودها السودان لأول مرة فى تاريخه واعتبر السودان جزء من مصر ومن ثم فتاريخه السياسى فى هذه الحقبة وعلاقاته الخارجية ليست سوى جزء من السياسة المصرية العامة ولم يكن للسودان شخصية منفصلة عن مصر إلا فى عهد المهدية – فدراسة العلاقات الحبشية السودانية ليست فى الواقع سوى دراسة للعلاقات الحبشية المصرية – وهى علاقات قديمة يوطدها ارتباط الكنيسة الحبشية بالكنيسة القبطية فى مصر من جهة واعتماد مصر على الحبشة فى موارد مياهها – وقد اختلفت هذه العلاقات بين الصداقة والعداوة – ولسنا فى حاجة أن نتناول هذا الجانب إلا فيما يتصل اتصالا مباشراً بالسودان .

ولقد استطاع الخديو إسماعيل أن يتوسع بالإمبراطورية السودانية فى أراضى الحبشة والصومال فحصل من الباب العالى على مينائى سواكن ومصوع فى سنة ١٨٦٦ كما حصل على زيلع فى سنة ١٨٧٥ وبذلك تمت له السيطرة على ساحل البحر الأحمر الأفريقى وفى نفس الوقت عمل على مد نفوذه فى الداخل حتى يتمكن من القضاء على تجارة الرقيق التى شغل نفسه بها — فأرسل منزنجر فى سنة ١٨٧٢ بحملة إلى بوغوص فأخضعها واحتل كيرن عاصمتها وفى سنة ١٨٧٥ أرسل رؤف باشا إلى هرر وكان سلطانها الأمير محمد بن عبد الشكور قد استبد بأهلها وحكمهم حكماً قاسياً غاشماً فاستنجدوا بالخديو إسماعيل الذى استطاعت جيوشه أن تجتاز أرض العيسى وأن تخضع الجالا فى طريقها إلى هرر والتى سلم أميرها طوعاً كما سلمت قبائل كثيرة للحكم المصرى . وبذلك أصبحت الممتلكات المصرية فى شرق أفريقية وفى السودان تطوق الحبشة تماماً مما أثار أحقادها خصوصاً وقد كانت تدعى حقوقاً فى بوغوص وآيلت Ailet وأوشا فأكثرت من إغارتها على حدود الأراضى السودانية الأمر الذى أدى إلى قيام الحرب الحبشية المصرية التى انتهت بهزيمة الجيوش المصرية فى موقعة القرع فى مارس ١٨٧٦ .

ثم قامت الثورة المهدية فى السودان وساعدت الظروف جميعاً على نجاحها واضطرت مصر إلى إخلاء البلاد بناء على نصيحة الإنجليز . وتوحد السودان لأول مرة تحت حكم سودانى غير أن بعض الأجزاء النائية من الإمبراطورية ظلت مستعصية على نفوذ المهدى وهى مديرية خط الاستواء فى الجنوب ومديرية هرر فى شرق الحبشة وموانى سواكن ومصوع وزيلع وبربرة . . . كل هذه ظلت على ولائها لمصر ولكن إنجلترا كانت تحتم أن يشملها هى أيضاً قرار الإخلاء رغم ولائها . وفى هذا دليل على ما كانت تبيته وزارة الخارجية البريطانية لهذا الجزء من أفريقية .

وفى ١١ أغسطس سنة ١٨٨٤ أصدرت وزارة الخارجية البريطانية الأمر إلى الحكومة المصرية بأن تساعد دون إبطاء على إخلاء هرر التى تمكنت الحبشة من الاستيلاء عليها فيما بعد فى سنة ١٨٨٧ فضمت إلى أملاكها مساحة تزيد على مائتى ألف كيلومتر مربع . هذا فضلا عن إخلاء موانى ساحل الصومال .

ثم عادت فقررت بعد قليل أن تقوم مصر بأعباء نفقات الإخلاء . وقد استولى الإنجليز على زيلع فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ وأصبحت إدارة ساحل الصومال جميعه تابعة لحكومة الهند ومن العجيب أن ظلت الحكومة المصرية تدفع نفقات إدارة بلاد الصومال بعد أن احتلتها الجنود الإنجليزية ولقد استبقى الإنجليز عدداً من الجنود ورجال البوليس المصريين حتى ٥ أكتوبر ١٨٨٨ حينما أنزل العلم المصرى نهائياً .

وفى فبراير سنة ١٨٨٥ قررت إيطاليا بالاتفاق مع إنجلترا احتلال مصوع وكانت قد بسطت حمايتها من قبل على عصب — وبذلك تمت لها السيطرة على الساحل بين البلدين وكان هذا هو بداية قيام أرتيريا كمستعمرة إيطالية على حساب الأراضى السودانية والحبشية . ومن الغريب أن يقرر مؤتمر لوزان أن تستمر مصر فى دفع أتاوة زيلع ومصوع المقررة لتركيا رغم احتلال المدينتين بالجنود الإنجليزية والإيطالية .

ولقد وافقت إنجلترا فى معاهدة ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ التى عقدتها مع إيطاليا على وصل حد الصومال بالنيل الأزرق ، ومعنى ذلك إدخال أثيوبيا كلها وملحقاتها فى هرر وشوا وكافا فى منطقة النفوذ الإيطالى ولكن انتصار الأحباش على الطليان فى عدوة سنة ١٨٩٦ قضى على هذا التوسع الضخم .

ولما قامت الثورة المهدية فى السودان كان طبيعياً أن تحتك مع الحبشة المسيحية — وقد بعث المهدى بكتاب إلى يوحنا ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام والمهدية ويحذره من المخالفة — وأرسل فى الوقت نفسه رجلا من أعيان الأحباش كان قد لجأ إلى المهدى وآمن بدعوته هو محمد جبريل — أرسله يدعو المسيحيين إلى الإسلام ويبشر بمهدوية محمد أحمد — وقد أحنق هذا كله يوحنا فأخذ يضطهد مسلمى الحبشة حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة للسودان وأن يلتجىء إلى المهدية — وقد أقاموا لأنفسهم فى عهد الخليفة التعايشى حلة فى « عراديب » شمالى القلابات — وأطلقوا عليها اسم « تبارك الله » وولى عليهم الخليفة رجلا من أنصاره هو « النورواد فقراء » وكانت القلابات قد احتلها محمد واد أرباب فى مارس سنة ١٨٨٥ . أما على الحدود الشمالية فقد كتب عثمان دقنه بعد

سقوط كسلا يهدد الرأس « ألولا » الذى أجاب على التهديد بالهجوم على جيوش المهدية فى كوفيت وهزمها هزيمة منكرة .

وقد أخذ محمد ود أرباب والنورواد فقراء يشنون الغارات على الحدود الحبشية ومنعوا الناس فى القلابات من دفع الإتاوة للحبشة وكان الأحباش إذ ذاك مشغولين بمحاربة الطليان الذين أغاروا على الحبشة من الشرق وظلت منطقة الحدود الحبشية السودانية طوال أيام المهدية فى حالة اضطراب — فالفارون من الحكم الحبشى يلجأون إلى السودان . وكذلك الناقمون على المهدى وشيعته يفرون إلى الحبشة . . وقد حدث أن كتب الرأس عدار إلى محمد ود أرباب يسأله رد بعض اللاجئين الأحباش فلم يجبه إلى طلبه . فزحف فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٦ بجيش كبير ومعه بعض السودانيين اللاجئين أمثال صالح بك شنقه وعجيل الحمرانى فهزم واد فقراء فى تبارك الله ثم انقلب فى اليوم التالى على واد أرباب فقتله وفرق جيشه وأحرق القلابات وعاد بالغنائم والأسرى .

وبلغت الخليفة التعايشى أخبار الهزيمة فاضطرب لها وسارع بتجهيز جيش من عشرين ألف مقاتل عقد لواءه لواحد من خاصة أقاربه هو « يونس الدكيم » وأرسله عاملا على القلابات فى ١١ مارس سنة ١٨٨٧ وبعث إلى النجاشى بخطاب يدعوه فيه إلى الإسلام كما فعل المهدى من قبل . ويقول له أننا « قد كنا معك ملاحظين إشارة قول سيد المرسلين اتركوا الحبشة فاتركوكم ومن ثم فلم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصل منك التعدى البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب إلى بلدك المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة — بالقتل والأسر والنهب والضر — وصار يأوى إليك كل من يرتد عن دينه من المسلمين كصالح شنقة وعجيل وإدريس إلى جن ومضوى ومن معه من المرتدين . ولما لم يمكن تركها سدا على ذلك الحال — وتعين الالتفات إلى صدك عن هذا المجال عينا الجيوش الكفاية من الأنصار أهل النجدة والحماية إلى الإقامة بالثغر الموالى لجهتك صداً لما يتوقع منك » . واشترط الخليفة فى كتابه لمنع الغزو ثلاثة شروط هى :

١ — المبادرة بإرجاع جميع الأسرى المسلمين الموجودين لدى يوحنا .

٢ – تسليم اللاجئين من أمثال صالح شنقة وإدريس أبي جن وعجيل الحمرانى ومضوى ومن معهم إذا كانت لهم رغبة فى الرجوع إلى المهدية أما إذا « أصروا على ردتهم مختارين الكفر على إيمانهم » فليكتبوا إقراراً بذلك يرسل إلى الخليفة .

٣ – كف التعدى على بلاد الإسلام وعدم تجاوز الحدود .

ولكن النجاشى لم يرد على كتاب الخليفة – وكان يونس قد استرد القلابات واتخذها مركزاً يناوش منه الأحباش فى داخل حدودهم ويرسل الحملات تقتل وتأسر وتعود بالغنائم إلى القلابات – وكان رد النجاشى أن أمر الرأس عدار بتجهيز حملة للاستيلاء على القلابات وطرد الدراويش منها – وعلم يونس بأمر هذه الحملة قبل إعدادها فطير الخبر إلى الخليفة الذى سارع فأعد جيشاً من أربعين ألف مقاتل بقيادة خير قواده حمدان أبى عنجه يعاونه الزاكى طمل والنور عنقرة ووصل الجيش إلى القلابات فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٧ واستلم أبو عنجة القيادة من يونس الدكيم الذى عاد إلى أم درمان .

وأنفق أبو عنجه أسابيع يعد جنوده فإذا كان التاسع من شهر يناير سنة ١٨٨٨ بدأ الزحف على غندار عاصمة الحبشة القديمة فلما وصل إلى أبواب المدينة احتدم القتال بينه وبين الأحباش ثم انتهت المعركة بانهزام الحبشة تاركة فى ميدان المعركة ستة بين قتيل وجريح ودخل أبو عنجه غندار فنهبها وأحرق كنائسها وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب والأسرى إلى القلابات أرسل معظمها إلى التعايشى فى أم درمان واستبقى له القليل وبعث إلى الخليفة بخطاب طويل يشرح فيه أدوار الحملة من بدايتها حتى الانتهاء منها .

ولم تمض شهور حتى أغار أبو عنجه مرة أخرى على الحبشة فى يونية سنة ١٨٨٨ ثم عاد إلى قواعده فى القلابات وفى أواخر السنة وصله خطاب من النجاشى بالعربية وبالحبشية يدعوه فيه إلى الصلح وبعد أن ذكر له أمر ما كان بينهما من حروب وما ترتب عليها من « هلاك المساكين فى الباطل » ويطلب إليه ألا يتعدى أحدهما على حدود الآخر يدعوه إلى الاتفاق والتحالف فى سبيل رد الإفرنج فهم « أعداء لنا ولكم فإذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل أخربوا

دياركم وإذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك فالرأى الصواب أن نحاربهم ونغلبهم . فالأصوب لنا ولكم أن نكون ثابتين فى المحبة جسداً واحداً وشخصاً واحداً ضد أولئك الذين يحضرون من بلاد الإفرنج والترك وغيرهم الذين يريدون أن يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا — أولئك أعداؤكم وأعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم » .

ولكن هذه الدعوة إلى الدفاع المشترك لم تلق قبولا عند أبى عنجه الذى رد بخطاب شديد اللهجة يرفض فيه الصلح إلا إذا اعتنق يوحنا الإسلام ويصفه بضعف العقل وفراغ الذهن والسفه والجهل ويتحداه بقوله « إن كنت ذا قوة وشجاعة كما تزعم فأقدم علينا ولا تحجم إذ ما أخرك كل هذه المدة إلى شدة الخوف وإذا لم يكن ذلك فاثبت فى محلك فلا بد لك من الهلاك » .

كان معنى هذا التحدى أن الحرب واقعة لا محالة فقد صمم يوحنا على طرد الدراويش من القلابات وردهم حتى أم درمان لتنفيذ هذا جمع جيشاً يقدر بربع مليون مقاتل وسير معه من حكام البلاد الرأس عدار والرأس أولولا وهيلا مريم وصالح شنقة وغيرهم . وبدأ أبوعنجه يحصن القلابات استعداد للقاء جيش النجاشى ولكنه مات فى يناير ١٨٨٩ . وخلفه الزاكى طمل فأتم الاستعداد للمعركة التى بدأت فى ٩ مارس وانتصر الأحباش فى أول الأمر حتى أصيب ملكهم بجرح مميت فدب الفشل فى صفوفهم وأخذوا فى التقهقر فتبعهم الزاكى إلى نهر العطبرة حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة فقتل وغنم وسبى وعاد إلى القلابات وكتب للخليفة رسالة مطولة يشرح له ظروف المعركة فى كثير من التفصيل ويبالغ فى ذكر كرامات الخليفة التى أعانت جيوشه على النصر . كما أرسل إلى أم درمان رأس يوحنا وتاجه المرصع وأمتعته الخصوصية .

وبعد أن تم استرجاع السودان وبدىء فى تنظيم الإدارة الجديدة عقدت اتفاقية فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بين الحكومة البريطانية والإمبراطور منليك الثانى عينت خط الحدود بين السودان والحبشة فى مسافة يبلغ طولها نحو ١٥٠٠كم. وأصبح هذا الخط يسير من خور أم حجر حتى القلابات ثم إلى النيل الأزرق وبارد والبيبور واكوبو ثم إلى تقاطع خط عرض ٦° شمالا مع خط طول ٣٥°

شرقاً ثم ينحرف الخط جنوباً ويتبع الضفة اليمنى لنهر كيبش Kibish حتى بحيرة رودلف وبذلك بسطت الحبشة سيادتها على البلاد الواقعة بين نهرى بارو والجب واستولت فى الجنوب الشرقى من السودان على أراضى تبلغ مساحتها نحو ٣٦٠٠ ك.م.[٢] . وفى نظير هذا التنازل تعهد منليك الثانى ألا يسمح بإقامة أعمال إنشائية على النيل الأزرق أو بحيرة تانا تؤثر فى النظام الطبيعى لجريان المياه إلا بالاتفاق مع حكومة السودان كما وافق على إنشاء محطة تجارية على نهر بارو فى غمبيلا . ومنح الحكومة البريطانية الحق فى مد سكة حديد عبر الحبشة تربط بين السودان وأوغندة . ومنذ ذلك التاريخ استقرت الحدود الحبشية السودانية .

أما عن العلاقات الاقتصادية بين البلدين فقد سبقت الإشارة فى صدر هذا الحديث إلى العوامل التى جعلت التوجيه الجغرافى للحبشة إلى الشرق أكثر منه إلى الغرب . وقد ساعد على هذا أن الأنهار الحبشية التى تنحدر إلى سهول السودان لم تكن أداة وصل كما هى الحال فى معظم الأنهار ذلك لأن صلاحيتها للملاحة لا تبدأ فعلا إلا بعد أن تهبط إلى سهول السودان — فالنيل الأزرق لا يصلح للملاحة إلا فيما تحت الروصيرص أى بعد أن يقطع النهر شوطاً داخل الحدود السودانية . . أما السوباط فصالح للملاحة من مصبه حتى غمبيلا على رافده بارو فى المدة من نصف يولية إلى آخر ديسمبر وغمبيلا وأن تكن مدينة حبشية إلا أنها محطة تجارية سودانية وتعتبر أهم مركز للتبادل التجارى بين جنوب السودان والحبشة .

ولا يمكن ربط السودان بالحبشة بالسكة الحديد نظراً للنفقات الضخمة التى تتطلبها مثل هذه السكة والتى لا تتناسب مع ما يمكن أن يجنى منها من فائدة ولكى تقدر الصعوبة يكفى أن نعرف أن التقدير المبدئى لمد خط حديدى من القلابات على الحدود إلى أديس أبابا وهى مسافة ١٣٠ ك.م. يبلغ نحو ٥ ملايين من الجنيهات أى بمتوسط ٤٠,٠٠٠ ألف جنيه للكيلو متر الواحد .

ويقل من أهمية الارتباط الاقتصادى بين البلدين طبيعة غلات كلا منهما ومبلغ الحاجة إليها فى الجانب الآخر ويظهر ضعف هذه الناحية إذا عرفنا

أن البن يمثل ٩٥ ٪ من قيمة الصادرات الحبشية إلى السودان وهو فضلا عن كونه سلعة كمالية إلى حد كبير لا يمثل الحبشى منه إلا الجزء الأقل مما يستهلكه السودان أما معظم المستهلك فيستورد من أوغنده أو الكنغو البلجيكى . أما واردات الحبشة من السودان فقوامها الملح الصخرى والمنسوجات المعاد تصديرها ومن السهل أن تستوردها الحبشة عن طريق البحر الأحمر وهى فعلا تستورد معظمها عن هذا الطريق .

والخلاصة أن هناك حقيقتين يجب أن يشار إليهما فى الحديث عن الحبشة والسودان . الأول أن الهضبة الحبشية بظروفها التضاريسية المميزة وشخصيتها المناخية المستقلة لعبت دوراً خطيراً فى تكوين أهم المظاهر الطبوغرافية فى السودان وهو نهر النيل — كما أثرت فى مناخ الجهات المتاخمة لها من السودان . ولكنها لم تلعب نفس الدور فيما يختص بتعمير السودان بسكانه — فقد كانت فى هذه الناحية عاملا معطلا — أو وقفت على الحياد فى أحسن الظروف .

أما الحقيقة الأخرى فهى أن التوجيه الجغرافى للحبشة لم يكن أبداً فى اتجاه السودان فى كل عصور التاريخ — وأن العوامل الجغرافية بشكلها الراهن تعمل على أن يستمر الوضع كما هو — وأن يظل اتجاه الحبشة إلى الشرق لا إلى الغرب .[١]

محمد محمود الصياد

١ — محاضرة ألقيت بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى نوفمبر ١٩٥١

الربعى
فضائل الشام ودمشق

تحقيق

صلاح الدين المنجد

(مطبوعات المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٥٢ م)

إحياء الكتب العربية ركن من أركان النهضة القومية فى مختلف بلاد الشرق الأوسط ، سواء أكانت هذه الكتب ذوات عناوين وطنية واضحة ، مثل تاريخ دمشق لابن عساكر ، وفضائل بغداد للسرخسى ، والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن ، أو ذوات عناوين مسجوعة رنانة ، مثل الدر المنظوم فيما ورد فى مصر من موجود ومعدوم للجوهرى ، وذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه ، والطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للأدفوى . وهناك نوع ثالث من الكتب القديمة ، وهى من ذوات الصفة الدينية السياسية ، مثل فضائل الأنصار لابن وهب ، وفضائل محمد بن الحنفية للمدائنى . وبعض هذه الكتب مطبوع ، وبعضها الآخر مخطوط ، ومنها ما ليس من هذا أو ذاك ، بل غير معروف عنه شيئاً إلا عنوانه ، أو مقطوعة من متنه ، نقلها ناقل فى تأليفه ، بإشارة أو بغير إشارة إلى مؤلفها وصاحبها الأول .

وأقول إن هذه الكتب التى ينعتها بعض الناعتين بصفات جائرة ، ليست صفراء باهتة المعرفة ، كما يريدون أن يتقولوا ، بل تشفّ محتوياتها عن ألوان أخرى من معرفة العصور الوسطى وأهلها المدرسيين (الإسكولائيين) ، وهى معرفة الذين نحن أبناؤهم رغم النسيان ، أو الجهل . ولذا فهذه الكتب جديرة بالنشر والفحص والاستصفاء ، احتراماً لما قدّمت من سبب ، ولما فى نشرها من عرفان بالجميل ، ولما فى هذه الكتب نفسها من رطب ويابس ، وما بينهما من طعوم المعرفة ، فضلا عن أصول هى أصولنا ، ولا سبيل إلى إنكارها أو التنكر لها

أو جحودها، أو تصغير شأنها فى تكويننا . ذلك أننا نريد أن نلمّ بتلك الأصول إلمامة تامة مرّة واحدة فى غير اختصار ، أو مهل أو استصغار ، لنفهم منها صياغتنا الحاضرة ، ولنعدل من هذه الصياغة تعديلا توجبه متقضيات الحياة الحديثة القائمة على حقوق الإنسان ، من حيث الفردية العاقلة والديموقراطية المسئولة .

وربما يقول بعض القائلين إن مقتضيات الحياة الحديثة — والمستقبلة — تتطلب الاستمداد الثقافى من الغرب الأوربى والأمريكى فحسب ، لا من الكتب القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد . وهنا موضع الخلاف بينى وبين أصحاب هذا الرأى ، فى غير عنت أو تزمّت من ناحيتى ، إذ الطريق السوىّ عند العقليين هو النصفة الذى لا يهبط ولا يهوى إلى هذا أو ذلك ، بل يأخذ من كليهما أخذ الممعن الحاسب . بعبارة أخرى ينبغى على الشرق الأوسط أن يأخذ من الشرق والغرب معا ، على قاعدة الاختيار والاقتباس من المنبعين . ومن البديهى أن الاقتباس من المنبع الشرقى معناه إحياء الكتب القديمة فى مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم . ومن البديهى كذلك أن التنوع بالاستمداد من الغرب يجعل البناء الثقافى بالشرق على أساس غير مطمئن (maladjustment) ، وهو أخطر أنواع البناء عند أرباب علم النفس التربوى ، وأرباب علم النفس الاجتماعى كذلك .

ومن النوع الأول من أنواع الكتب التى أشرت إليها فى هذه الفاتحة الطويلة كتاب فضائل الشام ودمشق للربعى الذى سماه معاصروه أبو الهول ، لسبب لم يتضح لى بعد . والربعى مؤرّخ محدّث ، وهو سابق على ابن عساكر مؤلف تاريخ دمشق ، بما يزيد على قرن وربع قرن من الزمان ، وهو كذلك مرجع من مراجع ابن عساكر فى تاريخه الكبير . والمتتبع لأخبار كتاب الربعى يجدها كلها فى تاريخ دمشق ، على قول الناشر فى مقدمته . (ص ١٤) . والناشر مشكور لحرصه على تسجيل براهين هذه العبارة فى الملحق الأول من بحوثه التى ذيل بها هذا الكتاب ، وعنوان هذا الملحق الأول ما فى تاريخ دمشق (لابن عساكر) من أخبار كتاب الربعى . (ص ٨٣ — ٨٨) .

على أن موضع الأهمية فى الإشارة إلى سبق الربعى على ابن عساكر ،

ودراسة أزمنة المؤلفين وترتيبهم فى التأليف ، لا يقتصر على بيان الزمنية والمكانية والطاقة فى المعرفة ، فالسابقون السابقون ، واللاحقون اللاحقون . ولذا ينبغى أن يتعدّى البحث فى هذه النقطة إلى تقرير ما استطاع اللاحقون من إفادة وخطوة إلى الأمام فى سبيل التقدم الإنسانى ، بالقياس إلى السابقين لهم . هل عمل علماء المسلمين مثلا على تحقيق هذه الغاية المتحركة دائماً إلى الأمام ، أو أن المدرسية (الإسكولائية) التى ساروا على نهجها كبتت فيهم دوافع التقدم وأنكصتهم عن السير بتأثيرها ، مع العلم بأن التقدم سنة من السنن الكونية .

وإخراج هذا الكتاب الصغير إلى عالم المطبوعات من أفضال المجمع العلمى العربى بدمشق ، وأفضال جهود الناشر كذلك . ورحم الله شيخنا كرد على ، صاحب الكثير من هذه الأفضال التى تنبئ بها جهود تلاميذه ، وتدلّ عليها مؤلفاته ومصنفاته ، منذ أوائل هذا القرن العشرين الميلادى .

أما طريقة إخراج هذا الكتاب مطبوعاً من نسخة فريدة ، فلا غبار عليها ، بعد أن ظلت هذه النسخة فى ثوب المخطوطات أجيالا ، بالظاهرية بدمشق . وهى طريقة زعيمة بانتباه المتصدرين للنشر العلمى ، لأن بعض المخطوطات فريد فعلا ، ولا توجد منه سوى نسخة واحدة ، ولا سبيل إلى نشرها إلا بهذه الطريقة ، أو شبهها . ذلك أن الناشر هنا سلّط على المتن المفرد مقارنة دقيقة بتاريخ دمشق لابن عساكر ، وبكتاب فضائل دمشق للفزارى ، وأولهما مستمدّ من الربعى أبواباً بحالها فى ثنايا كتابه الضخم ، وثانيهما ناقل منه نقلا حرفيًّا كليًّا ما عدا الأسانيد الحديثية . (انظر ص ١٤ ، ١٩) . ولذا جاء المتن جلياً ، كأنما استقامت للناشر أكثر من نسخة لمخطوطة الربعى ، كما جاءت الحواشى على قدر معلوم . والناشر ملتزم فى الواقع ما رسمه لنفسه من القصد الحميد فى غير هذا الكتاب ، إيثاراً منه للمتن أن يشغل دائماً معظم الصفحة ، ومعظم التفات القارئ الذى سوف يرى أن الكتاب كله واضح ، لا تثقله الحواشى ولا تبهظه الشروح (انظر المقدمة ، ص ٢٣) ، وهذا عندى أجود النشر وأحسنه .

غير أنه يبدو لى أن الناشر غلبه هذا القصد فى الحواشى إلى مرتبة التقتير ، إذ عبر عدداً من الأسماء الجغرافية والألفاظ اللغوية دون أن يعطيها شيئاً من ضوئه ، ومثال ذلك الطوانة ، العمود المسفط ، الأشبان ، برزخ المثوى ، الحبية ، أبدالا ، مقرى ، قينية ، يعفور ، قعاص الغنم ، مستخص الدولة (ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧، ٤٤، ٦٣، ٦٩ ، ٧٧ ، ١١٢ ،على التوالى) . ذلك أن القارئ يؤوده الرجوع إلى القاموس كلما تعثر بكلمة ، ويحمد للناشر دائماً توفير ذلك عليه بحاشية توضيحية تحفظ عليه انصرافه إلى القراءة ، والإفادة فى غير عناء . ثم إننا بحاجة إلى تثمير الثروة اللغوية بشرح ما نجد من ألفاظ طيبة أضحت غريبة على الناس ، وإلى إشاعة استعمال هذه الألفاظ أو أوزانها أو اشتقاقاتها ، أملا فى سدّ ما نفتقر إليه فى مدارج النهضة الحديثة من مصطلحات الحياة اليومية الجديدة، بالشرق الأوسط الجديد .

أما الفهارس فى هذا الكتاب فعامرة متنوعة ، وليس ينقصها إلا فهرس للمصطلح ، من أمثال الألفاظ التى قدمت هنا ، فضلا عن ألفاظ مصطلح الحديث التى أصبحت من مصطلح التاريخ كذلك ، وهى فى الملحق الثانى الذى كتبه الشيخ نوح نجاتى (ص ٨٩ — ١١٠) . والناشر محمود على إيراد هذا الملحق الثانى ، لأنه درسٌ فى علم الحديث يلذّ للمؤرخ قراءته ، لمعرفة قواعد التحديث ، وطرق التمييز فى الأحاديث النبوية بين الصحيح ، والضعيف ، والمرفوع ، والموضوع ، والمنكر ، والمعضل ، والباطل ، وهكذا . ذلك لأن هذه الألفاظ الاصطلاحية هامة فى تدريس مناهج البحث فى التاريخ أهميتها فى علم الحديث ، والمؤرخ الذى يستطيع أن يستخدمها فى تقويم مراجعه وترتيبها ، ويجعل منها مسبارا لامتحان حقائقه ، هو القمين بصناعة التاريخ المأمون من القارئين على مقارفتها .

وفى هذا الملحق الثانى كذلك إشارات إلى كعب الأحبار وإسرائيلياته (ص ١٠٩) ، وهى جديرة بتفكير القارئ العربى ، ولا سيما بعد أن خرج پيرلمان بحثه فى كعب الأحبار . (Jewish Social Studies, Vol. 5, 1953) .

ومن الجديد علىّ فى هذا الكتاب أن عبد المطلب جدّ الرسول دفن بدمشق

(ص ٤٩) ، وأن بنى الأصفر تسمية قديمة للدلالة على ملوك غرب أوربا والبابوية (ص ٧٨) ، وهى تسمية شرح القلقشندى أصولها فى كتابه صبح الأعشى . ومن الواضح بعد هذه الإشارات إلى محتويات هذا الكتاب أن الكتب القديمة لا تزال ذخيرة دفينة ، وما ينضج منها للقارئ الأخصائى ينفع كذلك السياسى ، والمؤرخ ، واللغوى ، والمحدّث ، فضلا عن القارئ العام .

محمد مصطفى زيادة

ديسمبر ، سنة ١٩٥٣
مصر الجديدة

ابن واصل
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
نشره
جمال الدين الشيال
(مطبوعات إحياء التراث القديم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٥٣م)

لهذا الكتاب الكبير قصة طويلة طيبة ، حميدة المطاف والخاتمة على غير المألوف فى نشر الكتب الكبرى ، لأن النشر ليس إخراجاً سريعاً لمادة مخطوطة فى ثوب مطبوع ، بل عملية تؤدة صابرة مثابرة ، ذات أدوار لا يطيقها إلا العارف بأهمية المتون السليمة فى التأليف الجدير بالقارئ العربى الجديد . وهذه الأدوار هى إحصاء النسخ المعروفة من المخطوطة المزموعة للنشر ، ثم قراءة هذه النسخ مقابلة بعضها إلى بعض ، ثم اعتماد أحسنها أصلا للنشر ، وتهذيب هذه التى هى أحسن فى تقدير الناشر بتوضيح غامضها ، وتكميل ناقصها ، وتنوير مجهولها بالحواشى الضرورية . وهذا وذاك يتطلب من الناشر معرفة مفهرسة بمختلف المنابع والمراجع فى التاريخ والجغرافية واللغة ، والآثار والطبوغرافية كذلك . وتوفرت هذه المعرفة لناشر هذا الكتاب ، كما توفرت له مؤهلات النشر كلها بعد مران مشهود به فيما قدم هو للمكتبة العربية من مؤلفات المقريزى الصغرى ، وهو بقيامه على نشر مفرج الكروب لابن واصل جعل المعنيين بالتاريخ المصرى فى العصور الوسطى مدينين له بدين ضخم .

قرأتُ المخطوطة الباريسية من هذا الكتاب تلميذاً مبتدئاً يطلب المعرفة بباريس ، فعبرت عليه عبور الطالب الذى لم يجد فيه مادة بعمله الراهن وبحثه وقتذاك ، فلم أستمدّ منه جذاذات مكتوبة ، ما عدا جذاذة واحدة سجلت فيها اسم مؤلفه وعنوانه وعدد صفحاته وموضوعه ؛ وتوكلت على الصدفة أن أرى هذه المخطوطة مرة أخرى . لكنى عجبت لأجيال المستشرقين إهمالها هذا الكتاب

برغم وجود نسختين فى باريس من مخطوطاتها الأربع التى أحصاها الناشر لعمله فيما بعد ، وبرغم نسبة الكتاب إلى مؤرخ شهد أيام الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ، وعمل فى الدولتين قاضياً ، وسفر للسلطان بيبرس سفارة إلى الإمبراطور مانفرد بن فردريك الثانى فى صقلية ، وعاش فى هذه الجزيرة مدة أنجز أثناءها كتاباً فى المنطق اسمه الأنبرورية . وعجبت كذلك أن مصرياً أو شامياً ممن عرف المكتبة الأهلية بباريس فى سالف السنين لم يلتفت إلى هاتين المخطوطتين ، أو إحداها على الأقل ، والناشر يشاركنى هذا العجب فى مقدمته (ص ٢٠) ؛ ولعل غلط التسمية فى المخطوطتين الباريسيتين هو السبب فى احتجاب هذا الكتاب عن عيون المنصرفين للنشر ، حتى أواسط القرن العشرين الميلادى .

ثم مضت بضع سنوات ، وأخذت أعمل فى نشر كتاب السلوك للمقريزى ، واحتجت إلى كثير مما لم يكن متوفراً بمصر وقتذاك من المراجع وأدوات البحث ومنها المخطوطتان الباريسيتان لمفرج الكروب ، فحصلت دار الكتب المصرية على صور شمسية منهما لأجل خاطرى . ثم عرفتُ بعد ذلك أن نسخة مخطوطة ثالثة فى كامبردج بإنجلترا ، فحصلت المكتبة العامة بجامعة القاهرة على صور منها كذلك ، وصار بمصر عددٌ كافٍ من النسخ لمن يتصدّى للنشر ، فدعوت وتمنيت أن تلقى دعوتى مجيباً ذا أهلية علمية كافية . ثم رأيت نسخة رابعة فى إسطنبول ، وهى التى حصلت عليها المكتبة العامة بجامعة الإسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال ، بعد أن عقد النية على النهوض بهذا العمل ، وهى أقدم النسخ الأربع وأعظمها قيمة ، وأصلحها أن تكون أصلا للنشر ، لولا أنها قطعة من مخطوطة ابن واصل ، تنقصها محتويات هذا الجزء الأول المعروض فى هذه السطور ، فضلا عن معظم محتويات ما سوف يكون الجزء الثالث من هذا التأليف الحافل .

الواقع أنه ليس بين النسخ الأربع التى استأداها الناشر نسخة واحدة كاملة من مفرج الكروب ، ولكنها تكمل بعضها بعضاً . وتعيّن على الناشر بسبب ذلك أن يلجأ إلى عملية إضافية فى النشر ، وهى عملية التوفيق والوصل والتعشيق ، مع الحرص على الربط الفنى بين قطع المتن ، والدأب على الرجوع إلى المراجع المعاصرة إمعاناً فى الاطمئنان ؛ والناشر لهذا كله زعيم بثناء عاطر كثير . (انظر ص ١٣ — ١٧ من المقدمة) .

وبعد فهذا كتاب طويل زاخر ، وإنى أهنئ بطبع الجزء الأول منه صديقى الذى لزمنى أيامه الأولى تلميذاً بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم لزمنى أيامه الثانية زميلا بالتعليم الجامعى ، وسوف أغتبط لأيامه الثالثة حين ينتهى من عمله الصامت الجيد فى سبيل إمداد المؤرخين المصريين — وغير المصريين — بجميع أجزاء مفرج الكروب ، على غرار هذا الجزء الأول ، من دقة التحرير ووضوح الحاشية ، فى غير حساب لوقت . وإذ أثار الناشر فى مقدمته إلى قيامى على مراجعة هذا الجزء الأول وما بعده قبل تقديمه للمطبعة ، فلا أرانى صالحاً لاستعراضه أو نقد طريقته فى روح موضوعية إلا بمقدار . على أنى أستطيع التعوّض عن هذا التقيّد بالتنويه إلى ما يحتوى عليه هذا الجزء الأول من حقائق لم تكن معروفة إلا فى المراجع المتأخرة التى استمدت من ابن واصل ، دون ذكر اسمه معظم الأحيان ، ومنهم المقريزى نفسه فى الجزء الخاص بالأيوبيين من كتاب السلوك . ثم إنى لست متحرّجاً أن أطرى الناشر على عمله الذى يظهر واضحا ناضجا كل النضوج فى هذا الجزء الأول ، كما أنى لست متحرّجاً أن أدلّه على بعض ملحوظاتى رغبة فى إخراج الجزء الثانى شبيهاً بأخيه الأول ، من حيث الإمعان فى التهذيب والترتيب والتحشية ، فضلا عن مجانى التجربة . وهذه الملحوظات هى أن تكون مقدمة الجزء الثانى أبجدية العدد ، حتى لا تختلط أرقام صفحاتها بأرقام صفحات المتن ، وأن تكون الحواشى أكثر قصداً واختصاراً مما هى فى بعض صفحات هذا الجزء الأول (انظر ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥) . الواقع أن دستور النشر أضحى صارماً فى تطبيق مبدأ القصد والاختصار فى الحواشى ، بحيث لا تشغل الحواشى من الصفحة الواحدة إلا ثلثها على الأكثر ، ليظل الثلثان على الأقل للمتن ، وليظل المتن واضحاً للقارئ . على أن هذه الملحوظة بالذات هى مما أستطيع توجيهه إلى نفسى بشأن بضع صفحات معروفة لى من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، وهى ملحوظة تعلمتها من تجارب العمل فى النشر .

ثم إن فى استطاعة الناشر دائماً أن يوفر من جهوده باجتناب الوقوف عند ألفاظ أضحت فى مصطلح التاريخ المصرى معروفة سهلة الوصول إليها فى حواشى

المرحوم محمد رمزى فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وحواشى السلوك للمقريزى . وتكفى الإشارة إلى مواضع هذه الحواشى ، كما دأب الناشر دأباً حميداً فى هذا الجزء الأول ، إلا إذا جدت لديه معلومات إضافية يقتصر هو على إيرادها فى حواشيه ، وينفرد لذلك بفصل التجاديد والإضافة إلى المعرفة التاريخية .

(انظر ص ١٤ ، ٢١ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٨) . وبهذه الطريقة يستطيع الناشر أن يسلط من ضوء معرفته على ما عساه يكون جديداً من الألفاظ الاصطلاحية ، مثل الدينوز ، وقلم دقيق ، وقلم جافى ، والجهات . (ص ٤٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ على التعاقب) .

وبالكتاب عدد من الأخطاء المطبعية التى لا سبيل إلى اجتنابها فى معظم المطبوعات المصرية ، مهما بذل الناشر من جهد فى الأصول والبروفات ، لأن الغلطات المطبعية لا تزال فى مصر من الهفوات المغتفرة المنتظرة . ومن هذه ما يلى فى صورته الغالطة ثم الصحيحة

ص	٣	كمصدر أساسى	مصدراً أساسياً
«	٤	سنوات طويلة	بضع سنوات
«	٦	التصفيل	التفصيل
«	١٣	ينقصه	ينقصها
«	١٤	السلاليم	السلالم
«	١٥	أربعة (وثمانـ)ين	أربعة [وثمانيـ]ن
«	١٧	مياقارقين	ميافارقين
«	١٨	بل وأثار	بل أثار
«	٢٢	يا غيسيان	ياغى سيان
«	٣٦	انظر ما فات	انظر ما تقدم

هذه ملحوظات قليلة ، وليس فيها ما يستطيع أن يكون مأخذاً على الناشر ، مع العلم بأن فى هذا الجزء الأول متناً وحاشية ما هو محمدة له ، ومدرسة لمن يريد دراسة تطبيقية بالمجان فى النشر . مثال ذلك تقرير الناشر (ص ٢٦ ، ٣٧ ،

٤٠ ، ٤٣ ، ٨٢) عدم استطاعته أن يجد تعريفاً لمكان من الأمكنة ، أو تحقيقاً لاسم من الأسماء ، أو شرحاً للفظ من الألفاظ ، دون أن يجد غضاضة فى ذلك ، لأن المراجع لا تسعف الناشر دائماً ، والناشر مشكور على هذا النوع من الحاشية ، إذ يبرهن بها أن المتن أهم لديه من الحاشية ، والمضىّ فى العمل الشامل خير من الوقوف عند الحذافير المستعصية . ثم إن الناشر حرص كل الحرص (ص ١٣ ، ١٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦) على ذكر المساعدات الفنية التى تلقاها من مختلف الأشخاص ، وهو كذلك مشكور هنا على هذا النوع من الاعتراف بضرورة التعاون بين القائمين على النشر فى بلاد العربية .

أما مواضع الأهمية فى هذا الجزء الأول من ابن واصل ، وهى مواضع عمد الناشر إلى التنويه بها تنبيهاً للقارئ المستفيد ، فكثيرة معروفة للباحثين العارفين بمراجع التاريخ المصرى ، ولكنهم سوف يقرأونها هنا لأول مرة فى مرجع عاش صاحبه زمن الأيوبيين بعد العادل الأول ، وزمن المماليك حتى بيبرس الأول ، وتقلّب فى بيئتهم ، واستمدّ من هذه البيئة وهو يكتب كتابه . لذا يأتى ابن واصل فى مقام ابن الأثير وابن شداد ، وابن الجوزى وسبطه ، والقاضى الفاضل وابن العديم ، والحنبلى والصفدى ، مضافاً إليه أن ابن واصل انفرد عن السابقين واللاحقين من هؤلاء وأولئك بأن كتابه جاء فيما جاء تاريخاً كاملا للأيوبيين ، من أيوب أبى صلاح الدين إلى أيوب أبى تورانشاه آخر السلاطين الأيوبية فى مصر ، فضلا عما كتبه فى الزنكيين فى الشرق الأوسط ، وفى سلاطين المماليك وقيامهم بعد الأيوبيين فى مصر والشام (انظر ص ٥ — ٨ من المقدمة). ففى الصفحات الخاصة بالزنكيين مثلا تصوير لطيف لشخصية زنكى ، وكأن ابن واصل هنا أمسك بريشة مصوّر لا قلم كاتب مؤرخ (ص ١٠٠ — ١٠٦) . وفى الصفحات الخاصة بنور الدين بن زنكى أبدع ابن واصل التصوير مرة أخرى (ص ٢٦٣ — ٢٧٩) ، وهو فى الحالين ناقل مقلّد لابن الأثير ومعاصريه ، ولكنه مبدعٌ مبتكر على أية حال ، بالمفاضلة والموازنة بين ما توفر لديه من المراجع . وبهذا الجزء الأول من مفرج الكروب كذلك إشارات إلى أصول الأيوبيين وحركاتهم الأولى فى سبيل بناء دولة ، وأهمها عندى فعلٌ ماضٍ مبنى للمجهول

اختفى ابن واصل وراءه ، ليشير إلى قصة تسليم أيوب لأخيه شيركوه مدينة دمشق ، تنفيذاً لاتفاق سابق بين الأخين ، دون أن يعلم به أصحاب دمشق إلا بعد فوات الأوان . (ص ٣، ٩ — ١١ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٦٨) . ومن هذه الإشارات الخاصة بأصول الأيوبيين كذلك إشارة إلى صفات المضاء والعزيمة فى صلاح الدين (ص١٧٥ ، ١٦٣) ، وإلى صفات السرعة والصرامة التى اتصف بها عمه شيركوه ، حين أقطع البلاد المصرية للعساكر التى قدمت معه ، وجعل صلاح الدين مباشراً للأمور كلها ، وذلك غداة تولية شيركوه الوزارة الفاطمية . (ص (١٦٥) . وكلّ هذه الإشارات تضيف إلى ما أورده مستشرق معروف بصدد أصول الأيوبيين ، وبصدد أسرار نجاحهم فى تكوين دولة . انظر (Minorsky. Studies in Caucasian History)

وفى هذا الجزء الأول من ابن واصل إشارات تنبيهية إلى تطوّر الإقطاع الإسلامى (ص ١٠١ ، ١٥٠ ، ٢٨٠) ، وإلى طريق الإغارات على مصر من ناحية فلسطين ، وهو طريق قلعة صدر والسويس . (ص ١٣٨) .

وإذ عنى الناشر عناية واضحة بتنبيه القارئ إلى هذه الإشارات ، وغيرها من مواضع الأهمية التاريخية والوثائقية (انظر ص ١٧) ، وهى مواضع سوف ينتفع بها الباحثون قبل أن ينتهى هو من نشر هذا الكتاب ، فلا أقل من تصفية شكره وتكريره — لا تكراره — على توفيقه الذى غدا برهاناً دامغاً دالاً على أن دستور النشر أضحى محترماً فى مصر ، بين أيدى بعض الأمناء المخلصين للأجيال القادمة ، فى مصر والشرق الأوسط .

محمد مصطفى زيادة

القوة البحرية والتجارة فى البحر المتوسط
فيما بين عامى ٥٠٠ و ١١٠٠ م

أرشيبالد لويس — مطبعة جامعة برنستون . عام ١٩٥١

Naval Power And Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100 Archibald R. Lewis. Princeton U. Press .

اتجه نفر من العلماء والساسة فى الولايات المتحدة الأميركية فى السنوات الأخيرة لدراسة شئون دول الشرق الأوسط دراسة مستفيضة . وقد أخرجت دور النشر فيها عدة مؤلفات قيمة كان لجامعة برنستون نصيب الأسد فيها .

يهدف المؤلف فى كتابه أثر القوات البحرية الإسلامية والمسيحية فى حياة هذا البحر فى خلال العصور الوسطى . وسقوط الحضارة الغربية مدة إلى أن استطاعت فى القرن الرابع عشر أن تنهض ثانية وتؤثر على الحضارة الإسلامية وتنتزع منها قوته الأولى .

والواقع أن هذا الكتاب خليط بين التاريخ الوسيط البحرى والاقتصادى والسياسى . عالج المؤلف فى الفصل الأول أحوال عالم البحر المتوسط كله فى حوالى عام ٥٠٠ م فى أثناء سيطرة النبط والغال وروسة وولاياتها وتكلم عن طرق الملاحة الرئيسية بين الشرق والغرب . ومصادر الثروة الاقتصادية والعلاقات التى ربطت دول الشرق بالغرب عن طريق هذا البحر القديم .

وعالج المؤلف فى الفصل الثانى أحوال بيزنطية المالية والاقتصادية والبحرية (٥١٨ — ٦٤١ م) وعلى الأخص « ما كانت عليه فى أيام جوستنيان وخلفائه عندما سيطرت على مناطق غنية هامة فى آسيا الصغرى وسوريا وشمال إفريقية .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث — الهجوم العربى بعد إرساء قواعد الدولة الاسلامية الأولى (٦٤١ — ٧٥٢ م) وتكلم عن الحركات البحرية الخاطفة ضد جزر البحر الشرقية القريبة من القواعد الإسلامية وكذلك ضد القسطنطينية معقل الدولة البيزنطية الكبرى . وقد عالج المؤلف تلك الحقبة بعناية واضحة .

ذلك لأن ما كتب منها بروح « أميركية » ما زال ضئيلا . . . هو نضال نشط مسلح بين المسلمين وبيزنطية استمر أعواماً طويلة فى مد وجزر بحراً وبراً وانتهى بظهور السفن الإسلامية على متن هذا البحر بكل جرأة — ثم انتهى باستسلام بعض الدول المسيحية الصغرى وانكماشها ضد منافسهم الخطير الجديد .

وكان أن اتجهت الفتوح الاسلامية نحو غرب البحر المتوسط فى شمال إفريقية . وأسبانيا والساحل الجنوبى لفرنسا . . . مما كان له أثر كبير فى ازدهار التجارة الاسلامية فى أوربا ونمو العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والمسيحين.

وقد أوضح المؤلف الكثير من النظم الملاحية والضرائبية ومراكز الصناعات وأمهات المرافق الاقتصادية وتكلم عن المصادمات والحروب التى استمرت عنيفة بين الجانبين . ومع ذلك ظلت بيزنطية واقفة على قدميها وإن كانت قد بدأت تترنح تحت ضغط اللكمات الإسلامية .

وفى فصل تال عالج المؤلف أحوال البحر المتوسط تحت سيادة الإمبراطورية الإسلامية فى أوج عظمتها — فى أسبانيا المسلمة غرباً . وفى مصر الفاطمية شرقاً يؤلف الاثنان فكى كماشة يحيط طرفاها بكل ما تصادفه أمامهما .

هذا ما يوضحه مستر لويس فى فصول الكتاب المتتابعة عندما يرفع الستار عن عصر الانتقال . عندما بدأت تضعف سيطرة المسلمين على جزر الغرب والوسط وبداية تفكك الدولة الإسلامية الكبرى فى أسبانيا وضعف الحكام فى مصر والشام واستقلال كل حاكم وأمير بولايته . وكان هذا نذيراً بالخطر الذى دفع بعض دول أوربا بالتكتل لطرد المسلمين من المنطقة الغربية فى البحر وفعلا استعيد النفوذ فى جزر كورسيكا وصقلية ومالطة وجنوب إيطاليا ومعظم جزر البليار . بينما هددت الأساطيل الأوربية سواحل شمال إفريقية وأسبانيا نفسها . بل وأكثر من ذلك أن نجحت التعبئة الصليبية ووصلت أولى الحملات المسيحية إلى السواحل السورية واستقرت بعض إماراتهم هناك . ولولا نهوض رجال من طراز عماد الدين زنكى ونور الدين وشيركوه وأخيراً صلاح الدين لكان الخطر جسيما والعاقبة سيئة . ولكن استطاعت الدولة الأيوبية أن توقف الخطر الأوربى عند حده وردته عن بلادهم إلى أن استطاع سلاطين المماليك أن يقذفوا نهائياً قوات هذا الشر إلى البحر .

وكانت من عواقب هذا النضال الذى شاهده البحر المتوسط أن ذبلت اقتصاديات دول البحر الإسلامية وضعفت بحريتها وبدأ نفوذها يتقلص ويتضاءل وينكمش رويداً رويداً .

فى ذلك الحين كانت تنهض على سواحل البحر قوى صغيرة جديدة فى إيطاليا — مثل بيزة وجنوة . ظهر نشاطهما الاقتصادى على متون سفنهم فى شرقى البحر المتوسط وغربيه . وقد حملت خيرات البلاد الإسلامية لتعود بها إليها مصنوعة — ثم استولى الغرب تدريجاً على القواعد والمرافئ الهامة على سواحل البحر والتى بدونها تتعرض التجارة البحرية للأخطار . وهكذا أفلتت سيادة البحر بالتدريج من أيدى المسلمين . ولكن مع ذلك كانت للشرق الإسلامى قوة يعمل الغرب حسابها .

وتفسير ذلك أنه ما كاد يرفع الستار عن القرن الثانى عشر حتى شاهدنا تكوين الإمارات الأندلسية مع إمارات شمال إفريقية وميلاد دولة المرابطين والمحدثين وفى ظلهما أعادت ما تبقى من أسبانيا المسلمة ومراكش والجزائر بناء أساطيلها . واسترجعت بعض القواعد التى لا غنى عنها واستمتعت معاً برخاء اقتصادى . وتوثقت عرى التحالف بين الشام ومصر تحت حكم الأيوبيين ثم المماليك وشبت منهما دولة عربية قاومت الصليبيين .

وكانت هذه النهضة — ثقافية أم اقتصادية — محلية الأثر أى أنه لم يكن لها فاعلية تذكر على الغرب .

وهكذا أتيح للبحر المتوسط أن يشهد مصرع القوة البحرية والمكانة الاقتصادية التى استحوذ عليها المسلمون ثم وانتقالها إلى أيدى الأوربيين حتى استطاع الترك الاستيلاء على الأستانة وطردهم سادتها منها وتشييدهم من جديد دولة قوية تمخر سفنها الحربية عباب البحر المتوسط وإن لم تتجاوز الساحل الجنوبى لإيطاليا .

ولم يكتب للعثمانيين تلك السيادة الطويلة الأمد . لأن أوربا كانت إلى سبيل استخدام النظم المستحدثة فى الإدارة والسياسة والاقتصاد والتعليم مما لم تكن تعرفه بعد آفاق التفكير العثمانى .

عبد الرحمن زكى

أطلس التاريخ الإسلامى

هارى و . هازارد

نشرته مطبعة برنستون . عام ١٩٥١ بإشراف الأستاذ فيليب حتى

Atlas of Islamic History. Compiled by Harry W. Hazard
Princeton University. Press 1951 .

يقول كاتب المقدمة إن الغرض من أطلس التاريخ الإسلامى هو أن ينتفع به طلاب البحث ورجال الأعمال وموظفى الحكومة المختصين بأعمال الشرقين الأدنى والأوسط .

ويذكر الكاتب أنه وإن لم يكن الهدف الأصلى من الأطلس أن يفيد منه الباحث . لكنه يستطيع أن يستعين بما تجمعت فيه من معلومات مبعثرة فى شتى المراجع والقواميس التى يتعذر الحصول عليها لندرتها والتى يمكن أن توضع تحت متناوله . وأهم المراجع التى أشار إليها الكاتب :

معلمة الإسلام . تاريخ العرب للأستاذ حتى — انتشار الإسلام لأرنولد — معارف تاريخ العالم للانجر — تاريخ العصور الوسطى طبعة جامعة كامبردج — مقدمة فى تاريخ العلم لسارتون — الحروب الصليبية فى القرون الوسطى المتأخرة لعزيز سوريال عطيه — تاريخ الهند لهايج (كامبردج) — تركستان إلى الغزو المغولى لبارثولد . . . إلى غيرها من البحوث والمقالات والمؤلفات القديمة كمعجم البلدان لياقوت . وبلدان الخلافة الشرقية (لاسترانج) والقاموس الجغرافى (وبستر) ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ازامباور — والأسرات الإسلامية (لين بول) إلخ .

***

وأطلس التاريخ الإسلامى من المؤلفات التى نحتاج لمثلها ليستعين بها الطالب فى بحوث التاريخ الإسلامى . ويتضمن الأطلس الخارطات الملونة الآتية :

١ – خارطة عامة للعالم الإسلامى من مراكش إلى إيران .
٢ – خارطة العالم الإسلامى فى القرن الأول الإسلامى (السابع الميلادى) .
٣ – خارطة العالم الإسلامى فى القرن الثانى الإسلامى (الثامن الميلادى) .
وهكذا إلى القرن الثالث عشر الإسلامى .

ويضاف إليها خارطات للشرق الأدنى وأخرى تبين الحملات الصليبية – والإمبراطورية العثمانية – ومثلها لبيان انتشار الإسلام فى الشرقين الأوسط والأقصى – والهند وآسيا الوسطى – وآسيا الجنوبية الشرقية – وأندينوسيا .

وتقابل كل خارطة – الإيضاحات الموجزة والمعلومات الهامة والأحداث الرئيسية التى تتصل بالعصر .

ومثل هذا العمل المفيد ليهنأ عليه جميع الذين اشتركوا فى إخراجه – وهو مقدمة طيبة فى ميدان الجغرافية التاريخية الإسلامية . وكنا ننتظر أن لا يقع المؤلفون فيما وقعوا فيه من بعض تسميات المدن والأماكن الإسلامية ولكننا نرجو أن نقرأها صحيحة كما وردت فى المراجع العربية فى الطبعة المترجمة إلى اللغة العربية التى أعلن عنها أخيراً .

وليس هناك ما نسميه تناسقاً بين الألوان التى اختارها الرسام أو الطابع للخرائط . وقد يكون هذا عيباً فنياً . وكان يمكن اختيار الخطوط أو النقط أو الهواشير الرفيعة بدلا من الألوان . . .

ومع ذلك . فالعمل يستحق الشكر والثناء .

عبد الرحمن زكى

المسألة السودانية والوثائق البريطانية

للأستاذ عبد المنعم عمر

The Sudan Question based on British Documents
Abdel Monem Omar, Cairo 1951.

ما أحوج المؤرخ أو السياسى إلى الوثائق الرسمية ليستند عليها ويدعم بها حججه عندما يتناول بحث المسألة السودانية . ولقد سد السيد عبد المنعم عمر هذا الفراغ ويسر مهمة السياسى والمؤرخ بوصف المشكلة الوطنية فى الصورة الصادقة .

وهذه المجموعة من الوثائق التى حشدها وشرحها المؤلف يبدأ بها منذ الاحتلال البريطانى برسائل لورد كرومر ودوفرين وما ليت وجرانفيل من الساسة الإنجليز . وأكثرها يتناول إعادة الأمن إلى السودان وظروف حملة هيكس وإيفاد جوردون ومعاونيه . وأخيراً تحقيق أهداف السياسة البريطانية لإخلاء السودان وتركه للمهديين .

وبالكتاب مجموعة من الرسائل الرسمية الخاصة بفاشودة وموقف كتشنر تجاه السياسة الفرنسية التى هدفت استقطاع السودان الجنوبى وضمه إلى ممتلكاتها كما تناول اتفاقية عام ١٨٩٩ وملحقاتها عقب استرجاع السودان وما أفادته بريطانيا منها . وليس بخاف أن الإنجليز ينسبون كل تقدم طرأ على الشطر الجنوبى للوادى إلى السياسة التى اتبعوها متناسين جهود مصر والمصريين .

وأهم الرسائل التى أبرزها المؤلف ما ذكرها عن اعتداء الإنجليز على حقوق مصر بإرغامها على سحب القوات المصرية من السودان فى عام ١٩٢٤ — ذلك الاعتداء الذى حاولوا أن يخففوا أثره فى المعاهدة المصرية الإنجليزية (١٩٣٦)

شكراً للمؤلف لأنه استطاع بجمع وبحث هذه الرسائل إنارة الطريق أمام الباحث وتيسير مهمة المؤرخ .

عبد الرحمن زكى

مقياس النيل فى جزيرة الروضة

السيد كامل عثمان غالب

من منشورات المجمع العلمى المصرى

١٨٢ صفحة من الحجم الكبير — ٤٦ صورة فوتوغرافية وغيرها من الرسوم

Le Mikyas ou Nilomètre de l'Ile de Roda
Kamel Osman Ghaleb. Le Caire 1951.

أول عمل أقدم على نشره المجمع العلمى المصرى منذ عام ١٩٤٨ . وهو المؤلف الرابع والخمسين من منشورات المجمع . وهو لعالم ومهندس مصرى معروف اشتغل بالآثار طوال حياته العلمية . وهو فى طليعة الخبراء فى العمارة الإسلامية فى مصر . وقد يسرت له خدمة حوالى أربعين عاماً فى وزارة الأشغال العمومية بالأعمال الخاصة بالرى أن يؤلف كتابه النفيس عن مقياس النيل ليتوج به حياته العلمية النافعة .

* * *

مقياس النيل بالروضة أثر إسلامى شيده محمد بن كثير الفرغانى المهندس القدير فى عام ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) فى أخريات عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى . وقد عرف المقياس بعدة أسماء وردت فى كتب الخطط الإسلامية أهمها :

المقياس الهاشمى — المقياس الجديد — والمقياس الكبير .

واشتمل الكتاب على عدة فصول ومقدمة طيبة — أوجز فيها المؤلف أهم مراجع الكتاب .

وقد تناول فى الفصول الأولى أهمية اختيار الموقع الذى شيدت عليه المقاييس الأولى . وأولها مقياس أسامة بن زيد التنوخى عامل خراج مصر . ثم انتقل إلى الكلام عن تاريخ المقياس الكائن إلى هذا اليوم فى أنف جزيرة الروضة .

وحقق اسم منشئه الفرغانى وأعمال الإصلاحات المتتالية التى أجريت فيه على مر الأيام منذ أيام أحمد بن طولون حتى أيام الحملة الفرنسية . ثم تابع الكتابة إلى الإصلاحات التى نهض بها محمد على والحكومات المصرية المتتالية إلى عام ١٩٣٨ .

والمعروف أن الفرنسيين فى أثناء احتلالهم القصير مصر ــ كانوا كشفوا عن عمود المقياس ورفع ما تراكم بقاع بئره من الطمى وكشفوا معظم العمود ووضعوا له تاجاً تعلوه قطعة أخرى من رخام ارتفاعها ذراع واحدة (١٨٠٠ م) .

ووصف المؤلف فى أحد فصول الكتاب ــ النقوش الزخرفية التى فى داخل بئر المقياس والتى فى خارجه ووصف عمود المقياس وما طرأ عليه من هبوط اهتمت له وزارة الأشغال عام ١٨٩١ . وتلاه هبوط آخر فى عام ١٩٢٥ فقامت مصلحة المبانى بمعاونة تفتيش رى الجيزة وإدارة حفظ الآثار العربية لإيقاف الهبوط وعمل إصلاح شامل .

ووصف المؤلف آبار المقياس وأحواضه السفلى والوسطى والعليا ودرج المقياس وجدرانه وكذلك عدد قطع الحجارة التى اشتملت على نقوش هيلوغريفية . كما وصف قبة المقياس وتطورها منذ شيدت إلى أن أعاد تشييدها فى زمن الحملة الفرنسية .

ومن أهم ما تناوله المؤلف مجرى النيل فى خلال الأزمنة التى مرت بالمقياس ولم ينس كذلك أن يتحف القارىء ببعض الطرف عن جزيرة الروضة ونشأتها التى زالت اليوم عنها .

وللكتاب عدة ملاحق تاريخية لأهم ما ورد عن القياس فيما كتبه المؤرخون منذ عام ١٤٧٥ إلى عام ١٨٧٨ إلى جانب شتى المعلومات التى يفيد منها المهندس والأثرى والمؤرخ .

والصور والرسوم الهندسية تبين ذلك العناء الذى بذله المؤلف الفاضل لكى يخرج الكتاب مرجعاً فريداً يخلد ذكره .

* * *

وهناك بعض أخطاء مطبعية لكنها ليست بالكثرة التى تضايق القارئ .

واستطاع المؤلف أن يتلافى ضررها . فطبعها على حدة وأرفقها بالكتاب .

ومن الصدف أنه فى الوقت الذى نشر فيه كتاب السيد الجليل . فى مصر . نشر فى الولايات المتحدة الأميركية كتاب عن مقياس القاهرة للمستشرق الأميركى ويليام بوبر . . .

وينبغى علينا أن نذكر أن السيد كامل عثمان غالب ساهم عملياً فى إصلاح المقياس للمرة الأخيرة عندما كان مفتشاً عاماً لرى قبلى وبحرى . وإليه يعود الفضل إلى الحالة التى نشاهد عليها المقياس . . . اليوم .

عبد الرحمن زكى